طبع بدعم من
وزارة الثقافة
عمان - الأردن

الحياة الاجتماعية في بغداد

في العصر العباسي الأخير

(٥٧٥ - ٦٥٦ هـ / ١١٧٩ - ١٢٥٨ م)

تأليف

د. محمد عبد الله أحمد القدحات

جامعة الملك فيصل

دار البشير

الحياة الإجتماعية في

بغداد

في العصر العباسي الأخير

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٥/٧/١٥٩٨)

٩٥٦,٠٥٥

القدحات، محمد عبد الله

الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي الاخير /

محمد عبد الله القدحات .ـ عمان : دار البشير، ٢٠٠٥

(   ) ص .

ر . أ : (٢٠٠٥/٧/١٥٩٨).

الواصفات : / العصر العباسي / تاريخ العراق / العراق /

الاوضاع الاجتماعية / التنمية الاجتماعية /

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر: ١٥٦٨ /٧/ ٢٠٠٥

دار البشير

عمارة جوهرة القدس – العبدلي
هاتف: ٤٦٥٩٨٩١ فاكس: ٤٦٥٩٨٩٣
ص. ب ٩٢٧٤٨٧ عمّان ١١١٩٠ الأردن

E-mail:dar_al_bashir@hotmail.com

الحياة الاجتماعية في

بغداد

في العصر العباسي الأخير

(٥٧٥ - ٦٥٦ هـ / ١١٧٩ - ١٢٥٨ م)

تأليف

د. محمد عبد الله أحمد القدحات

وزارة الثقافة

٢٠٠٥

دار البشير

الإهداء

إلى روح والدي.....

تغمده الله فسيح جنانه

إلى والدتي.....

أطال الله في عمرها

المقدمـــة

دراسة المجتمع الإسلامي من موضوعات التاريخ الهامة التي تكشف عن المظاهر الاجتماعية للحضارة العربية الإسلامية، تلك المظاهر التي أغفلها البحث العلمي التاريخي، ولم تكرس لها بالماضي جهود كافية للكشف عنها وإبرازها للعيان. لقد اهتم التاريخ الإسلامي بسيرة الحكام بالدرجة الأولى. أن ذلك لم يكن ذنب التاريخ الإسلامي كي يسير في هذا الاتجاه، فقد ساعد عليه المؤرخون المسلمون، وكانت النتيجة إلى حد ما إهمال الكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

ازداد الاتجاه نحو التاريخ الاجتماعي، الذي يركز على دراسة المجتمع وتطور اتجاهاته وأحواله الاجتماعية والحيوية وطرق ووسائل معيشته. وقد تعزز هذا الاتجاه في كتابة التاريخ العربي والإسلامي بظهور جماعة من كبار الباحثين المحدثين كان لهم فضل الريادة في هذا المجال، وقاموا بتثبيت هذا المنحنى وتعميقه بتشجيعهم بعض طلاب الدراسات الأكاديمية العليا على وضع أطروحات جامعية تتناول بالدرس والتحليل تاريخ المجتمعات الإسلامية، وجعله خطا أساسيا في دراسة التاريخ في هذه الحقبة من عصرنا.

لكن التصدي لمثل هذه المواضيع ليس سهلا، بسبب بعض العوائق والتي من أهمها:

(أولا) في تحديد أفق هذه الدراسة، لأن جوانب الحياة، الاجتماعية متعددة. لذلك اضطررت إلى ترك بعض الجوانب وعدم التعرض لها، كالحالة العقلية أو الخلقية. كما أنني قد نبهت إلى الأمور التي لم أجد عنها مادة كافية عسى أن تجد

من تمكنه ظروفه الإطلاع على مصادر غير التي استعملتها، فيجد فيها مادة تكشف ما غمض منها.

(ثانياً) قلة المادة وتشتتها في بطون المصادر على اختلاف أنواعها مثل: التراجم، والطبقات، والخطط، والجغرافية، وكتب الرحلة، والفقه، والحسبة، والتصوف، والتفسير، وكتب الأدب بأنواعها، مثل: كتب المقامات، والحكايات والأسمار، أو الكتب التي تدور حول المغفلين أو الأذكياء أو الطفيليين. ونظرة إلى قائمة المصادر والمراجع في نهاية الدراسة تعطي فكرة عن هذا التنوع في المصادر القديمة والمراجع الحديثة التي استفادت منها الدراسة.

إن معظم الدراسات التي تناولت العصر العباسي الأخير وصفته بعصر الفوضى والانهيار، محملة مسؤولية ذلك لخلفاء ذلك العصر. فلم تنصف بعض الخلفاء أمثال: الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ) والظاهر (ت٦٢٣هـ)، والمستنصر بالله (ت٦٤٠هـ) الذين حاولوا جادين إعادة بناء ما تضعضع من أركان الخلافة العباسية، وإستعادت بعض المدن التي استقلت أو صارت تحت حكم بعض الولايات إلى حكم الخلافة، فكان الناصر لدين الله أول خليفة حكم كامل العراق بعد فترة طويلة لم يكن للخليفة حكم سوى بغداد ونواحيها.

كان الناصر بحق "أسد بني العباس" أدرك حالة الضعف التي تعيشها الخلافة العباسية، ووجد أن أفضل القواعد التي يمكنه البناء عليها هو توحيد الجبهة الداخلية للمجتمع. فإن اندماج فئات المجتمع المختلفة في بوتقة واحدة، تعمل لخدمة الدولة والدفاع عن كيانها، هي الوسيلة لتحقيق هدفه. لذلك رسم سياسته الداخلية، التي كان عنوانها الرئيس: أنه خليفة المسلمين بجميع فئاتهم ومذاهبهم وحرفهم. ونستطيع أن نلمس أبرز معالم سياسته الداخلية من خلال:

١. وجد الناصر لدين الله أن الأمة الإسلامية منقسمة إلى سنة وشيعة. وحتى السنة منقسمة إلى مذاهب. متناحرة متقاتلة، تعلن العداء والاقتتال لأبسط اختلاف فقهي بينها. فوجد الناصر لدين الله أنه الوحيد القادر على توحيدهم، والتقريب بين مذاهبهم، فتصدى للعلم والاشتغال به فوضع كتابا سماه "روح العارفين" حوى سبعين حديثا، أجازه لكبار علماء المذاهب السنية في بغداد: الحنفية والحنابلة والشافعية والمالكية.

٢. أما الشيعة فقد حاول تقريبهم، ومنحهم الحرية في التعبير عن آرائهم وطقوسهم المتعلقة بعقائدهم كالنوح على الحسين وأحياء يوم عاشوراء. كما استعان بهم في إدارة الدولة، فولى بعضهم الوظائف العليا: كأستاذ الدار وأمير الحج. كما شملهم بمنحه وعطاياه في جميع المناسبات. واصدر أوامره بإصلاح وتعمير أضرحة أئمتهم خاصة مقام موسى الكاظم. لقد دفعت هذه السياسة إلى اتهام بعض المؤرخين له بأنه كان شيعي "يرى رأي الأمامية".

٣. ولما كانت الصوفية تمثل شريحة واسعة من المجتمع الإسلامي. ولا يمكن لمن أراد النجاح في مسعاه أن يتجاهلها، فنجد الناصر قد اهتم بهذه الشريحة، وأنشأ لها الربط، وتفقدها بالعطايا، كما استعمل كبارهم كسفراء أمثال عمر السهروري (ت٦٣٠هـ).

٤. كان العلماء يشكلون الفئة المثقفة والمحركة – إلى حد ما للعامة، لذا حرص الناصر ثم من جاء بعده من الخلفاء على تقربهم، وجعلهم في جملة الندماء، كما اسندوا لهم أرفع المناصب الإدارية: كالوزارة والحجابة والدواوين. كل ذلك لأجل استخدامه في توحيد المجتمع، من خلال كلمتهم المسموعة، إضافة إلى مقدرتهم الإدارية والعلمية.

٥. وكانت العامة، ونقصد بها الفئات المتدنية من المجتمع مثار القلق لجميع خلفاء الدولة العباسية. فقد كانت هذه الفئة مستعدة للمشاركة في أي نزاع أو فتنة داخلية لمجرد الانتماء المذهبي أو المهني أو حتى الانتماء السكني، فكثرت الفتن بين عوام محلات بغداد، بحيث صارت أحدى الصور الاعتيادية للمجتمع البغدادي. فكان رأي الناصر أنه لا بدِ من لمّ شعث هذه الفئات من العيارين والشطار. فقام بتوحيدها بتنظيم أسماه الفتوة، وجعل نفسه زعيمها ورئيسها، وإليه الرجوع فيما اختلف فيه. ليس هذا فحسب بل حاول منحها مسحة دينية بإسنادها إلى الإمام علي بن أبي طالب رابع الخلفاء، وهو الشخصية المقبولة لدى كل من السنة والشيعة. كما أوعز لأحد فقهاء الحنابلة وهو ابن المعمار بتأليف كتاب على نسق كتب الفقه، حوى قواعد الفتوة وشروط الانتساب إليها، وموجبات عزل الفتى، ومسائل كثيرة تتعلق بهذه المنظمة وسماه "الفتوة".

هذه السياسة التي رسمها الناصر، سار عليها من جاء بعده من الخلفاء، فاشتغلوا بالعلم، وأجازوا بعد ذلك برواياتهم. وقام المستنصر بالله بإنشاء المدرسة المستنصرية على أساس تعدد المذاهب. ورغم أن المستعصم لم يسر على سياسة من سبقه، إلا أنه اهتم بالعلم والعلماء، واستمر برعاية منظمة الفتوة حتى خرجت بعد ذلك من سيطرته ونفوذه. لكن لا نحمل المستعصم كل المسؤولية، عن انهيار الخلافة العباسية أمام هجمات المغول، وإنما يتحملها جميع حكام وأمراء المسلمين في المشرق والمغرب، خاصة إذا علمنا أن الاجتياح المغولي كان اجتياح عام للعالم الإسلامي، وليس لبغداد وحدها.

لهذه الإيحاءات كانت هذه الدراسة، لتبرز من خلال المقارنة بين الروايات والنقد لبعضها، صورا مشرقة لهذا العصر ولخلفائه، فليس لمجرد سقوط الخلافة في

هذا العصر نهمل جميع الصور المشرقة فيه، ونصفه بالفوضى والانهيار، وأنه المسئول عن ضياع الدولة.

ووجدت من واجبي دراسة الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي الأخير (٥٧٥-٦٥٦هـ/١١٧٩-١٢٥٨م) التاريخية، عبر أربعة محاور:

١) البنية الاجتماعية لسكان بغداد.
٢) التنظيمات الاجتماعية في بغداد.
٣) الأعياد والاحتفالات والتسلية والحياة اليومية.
٤) المرافق والخدمات العامة في مدينة بغداد.

إن ما أصبوا إليه من نشر هذه الدراسة، توفير مادة علمية تخدم الباحثين والدارسين في مجال الدراسات التاريخية، فلعلهم يجدون فيها ما يشكل لبنة من لبنات دراسة موضوع أو فرعية منها.

في الختام، فقد اجتهدت في هذه الدراسة، ربما أظفر برضا القارئ الكريم، وأرجو أن يصفح عني إن وجد ما لا يرضاه، فالكمال لله وحده. وأدعو الله أن لا يحرمني أجر المجتهد والمصيب .

والله من وراء القصد

الباحث

التمهيـــد

الأوضاع السياسية للخلافـــة العباسية في الفتـــرة (٥٧٥ - ٦٥٦هـــ / ١١٧٩ - ١٢٥٨م)

- السياسة الداخلية للخلافة العباسية
- السياسة الخارجية للخلافة وعلاقتهـــامع الدول المجاورة

السياسة الداخلية

حكـــم في الحقبة موضوع الدراسة (٥٧٥-٦٥٦ هـ/١١٧٩-١٢٥٨م) أربعة مـــن خلفاء بني العباس، أولهم الإمام أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله بن محمد المقتفي[١]. أمه أم ولد اسمها زمرد خاتون[٢]. كانت ولادته في سنة (٥٥٣هـ[٣] /١١٥٨م) ويلقب بالناصر لدين الله[٤]. بويع بالخلافة في الليلة التـــي توفـــي فيها والده في ذي القعدة سنة(٥٧٥هـ[٥]/١١٧٩م). وكانت وفاته في شـــوال مـــن سنة (٦٢٢هـ[٦] /١٢٢٥م) بعد أن قضى في الخلافة مدة تقرب من سبعةٍ وأربعين عاماً.

وبعد أن تمت البيعة للناصر لدين الله، حاول أستاذ الدار المجد بن الصاحب[٧]، الـــتحكم في شؤون الخلافه. يظهر هذا التحكم من خلال الدعاء له على المنابر بعد الدعاء للخليفة الناصر لدين الله[٨]. ويعود السبب في تحكم ابن الصاحب في شؤون الخلافة إلى الظروف التي أحاطت بتولي الناصر للخلافة، فكان الانقسام في القصر واضـــحا بين كبار موظفيه، والانقسام قائم على أساس مذهبي: السنة ويرأسهم ابن

(١) ابـــن الأثيـــر، الكامل، ج١٢، ص٤٣٨؛ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٤٢، ج١، ص٣٤؛ صلاح الصفدي، نكت الهميان، ص٩٣.

(٢) الاربلي، خلاصة الذهب ص٢٨٠.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ص١٧٣.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق٢، ص٦٣٥.

(٥) ابن دحية، النبراس، ص١٦٥، ابن العماد، شذرات، ج ٥، ص٩٧.

(٦) المقريزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص٢٧١.

(٧) مجـــد الدين بن الصاحب، تولى أستاذية الدار للخليفة المستضيء ثم لولده الناصر، قتل سنة ٥٨٣هـــ ابن أبي عذيبة، إنسان العيون، ورقه ٨ أ.

(٨) ابن جبير، الرحلة، ص١٨١؛ جواد، "الناصر لدين الله" ج١، ص٢٤.

العطار، والشيعة ويرأسهم ابن الصاحب.

وكان المستضيء وبدعم من السنة يرغب في أن يكون وليّ عهده أبا منصور هاشم. أما الشيعة فقد أرادوا أبا العباس الناصر. تمكن أهل السنة في البداية من إثارة مخاوف المستضيء من ولده أبي العباس حتى مال إلى أخيه، لكن ذلك لم يدم طويلاً، حيث عاد وخطب بولاية العهد لولده أبي العباس. وكان لزوجة المستضيء السيدة بنفشة أثرٌ كبير في الخطبة له، فقد أشارت على المستضيء بذلك قائلة: "الله الله، تعدل عن أبي العباس"(١).

هذه الظروف انعكست على سياسة الخليفة الناصر لدين الله بعد توليته الحكم، فقمع المعارضين وعلى رأسهم ابن العطار، فقبض عليه بعد أسبوع من خلافته ثم قتله، وفي الوقت نفسه قرّب ابن الصاحب ورفع من شأنه، كجزء من رد الجميل على موقفه. فارتفع شأنه حتى دُعي له على المنابر بعد الخليفة(٢).

وجد الناصر لدين الله أن ابن الصاحب قد استغل تكريمه له، وحظوته عنده استغلالاً أساء به لشخصه، فلما وجد الناصر نفسه قد أحكم قبضته على شؤون الحكم، رأى إن اتساع نفوذ ابن الصاحب، يتعارض مع السياسة التي وضعها لإعادة النهوض بالخلافة من جديد، فتخلص منه سنة (٥٨٣هـ(٣)/١١٨٧م).

لم تخلّ الفترة السابقة لحكم الناصر لدين الله من تدخل الحاشية والمماليك في اختيار الخلفاء ولعل ذلك يعود إلى سوء العلاقات بين أبناء الأسرة العباسية، وضعف الشعور برابطة القرابة بينهم، وسياسة العزلة التي اتبعها الخلفاء عن أهلهم

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق١، ص ٣٥٤؛ عبد الهادي، الفتوة ، ص٢٠.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص١٨١، الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١١.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ص٢٠٢.

وعـن الـناس، واعتمادهم على الخدم من المماليك[1]. كل ذلك أفسح المجال لهذه الحاشـية أن تسـتغل الحكم لصالحها، فلا تتردد في التدخل لاختيار الأضعف من أولاد الخلفاء ليكون الخليفـة، أو التحالف مع من يضمن لها النفوذ والسلطان.

فلم تعد ولاية العهد مشكلة في هذه الفترة، كما كانت في الفترات السابقة، فبعد أن أعاد الناصر الأمور إلى نصابها، وضرب على كل يد تحاول التدخل في شؤون الحكم[2]، نجده يعهد بولاية العهد لولده أبي نصر محمد سنة (٥٨٥هـ[3]/١١٨٩م). ولكنه عدل عنه سنة (٦٠١هـ[4]/١٢٠٤م) وأمر بالخطبة لابنه الأصغر أبي الحسن علي[5]، ورغم وفاة ولي العهد الجديد، إلا أن المنصب بقي شاغراً حتى سنة (٦١٨ هـ/١٢٢١م) عندما أعاد الخطبة من جديد لأبي نصر محمد[6].

---

(١) على سبيل المثال قصة المسترشد مع أخيه أبي الحسن عبدالله، الذي هرب ودعا لنفسه الأمر، الذي اضطر الخليفة إلى حبسه والتضييق عليه حتى توفي. ابن الجوزي، المنتظم، ح٩، ص ١٩٨، ص ٢٠٤. وكـذلك ما رواه ابن الأثير من أن أحد حظايا الخليفة المقتفي طمعت في أن يكـون ولـدها الخليفة، فتآمرت على قتل ولي العهد مع أحد كبار رجال الدولة وهو ابن الكـيا الهراس، على أن تكون له الوزارة، فرتب بعض الجواري لقتله عند دخوله على أبيه المريض، لولا انكشاف الأمر ونجا الخليفة الجديد. انظر: الكامل، ح٩، ص٦٨-٦٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل ج١٢، ص٤٢، ابن الدّبيثي، ذيل، ج١، ص١٤٨؛ الذهبي، مختصر، ج١، ص١٩

(٣) وقـيل أن الأميـر أبا نصر محمد قد تنازل عن ولاية العهد، وكتب بذلك ورقه بخطه بدار الوزيـر ابن مهدي العلوي، يطلب فيها من الخليفة إعفائه من هذا المنصب، وشهد على ذلك الفقهاء والقضاة. ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٢٠٦.

(٤) ابـن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص١٤٨؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٤٤؛ ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٤٥.

(٥) الذهبي، مختصر، ج٣، ص١١٨؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٣٤٩ .

(٦) ابن الكازروني، مختصر، ص٢٥٦؛ الذهبـي، تاريخ الإسـلام، الطبقة ٦٣، ص٢-١١.

أظهر الناصر حزماً مبالغاً فيه في موضوع ولاية العهد وعدم السماح بالتدخل في هذا الأمر للحاشية أو للأمراء من بني العباس، فوجد أن أفضل طريقة للخلاص مــن تــدخلات الأسرة العباسية، هي إجبارهم إلى الإقامة في دار الشجرة أحد دور الخلافــة، ومــنع اتصالهم بالخاصة والعامة. أشار ابن جبير الذي زار بغداد سنة ٥٨٠هــ، إلى ذلك بقوله: "ودور الخلافة مع آخرها، وهي تقع منها في نحو الربع أو أزيد، لأن جميع العباسيين في تلك الديار معتقلين اعتقالا جميلاً، لا يخرجون ولا يظهــرون، ولهــم المرتبات القائمة بهم"[1]. كما أنه لم يتردد في القبض على ولده الأكبر أي نصر محمد بعد عزله من ولاية العهد، ومعاملته معاملة سيئة[2].

بعد وفاة الناصر بويع لولده أبي نصر بالخلافة، ولقب بالظاهر بأمر الله. وكان ذلك يوم عيد الفطر سنة (٦٢٢هــ[3]/١٢٢٥م). لم يعمر الظاهر طويلاً، فقد توفي فــي منتصف رجب من سنة (٦٢٣هــ[4]/١٢٢٦م). وبعد وفاته تولى الخلافة ابنه أبو جعفر، حيث بايعه أخوته وبنو عمه، وجميع رجال الدولة في رجب سنة (٦٢٣ هــــ/١٢٢٦م) وتلقــب بالمستنصــر بالله[5]. وكان عمره يوم توليه الخلافة خمسة وثلاثين عاماً[6].

توفـــي المستنصر بالله (سنة٦٤٠هــ/١٢٤٢م) ولم يعهد لأحد بولاية العهد. فعادت الحاشية من جديد لتلعب نفس الدور السابق في اختيار الخليفة، فبعد حرمانهم

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص١٨١.

(٢) الصفدي، الوافي، ج٢، ص٩٥ .

(٣) ابن الكازروني، مختصر، ص٢٥٦، الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٥.

(٤) ابن الكازروني، مختصر، ص ٢٥٦؛ الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٥.

(٥) ابن الكازروني، مختصر، ص٢٨٥.

(٦) يحيى عبد الهادي، الفتوة، ص٢١.

من النفوذ وكثير من الامتيازات أيام الناصر والمستنصر، قررت الحاشية من جديد تولـية شخص ضعيف، يكون تحت سيطرتهم ومنفذاً لرغباتهم، لا أن يكونوا تحت سيطرته، فوقع اختيارهم على المستعصم بالله، "لما يعلموا من لينه وانقياده، ليكون الأمر إليهم فتقلدها، واستبدوا بالتدبير"[1].

لم يسلم المستعصم بالله من تدخل الحاشية، فقد نُسب إلى الدويدار الصغير أنه كـان يعمـل على خلع الخليفة والمبايعة لولده الأكبر، فأدى ذلك إلى انقسام رجال الحاشـية علـى أنفسـهم، فـي الوقت الذي كان فيه الخطر المغولي يطرق أبواب العراق[2].

لم يباشر المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م) من أمور الخلافة شـيئاً، معتمدا على الحاشية، قضى معظم أوقاته باللهو ومعاشرة النساء، وممارسة هواية بالصيد[3]. استمر المستعصم في الخلافه إلى أن قتل سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) علـى يد المغول بعد سقوط بغداد. فكان بذلك آخر خلفاء بني العباس الذين حكموا بغداد[4].

علاقة الخلافة العباسية بالدول المجاورة

تخلصت الخلافة العباسية في عام (٥٥٢هـ/١١٠٨م) من آخر محاولة قام بها سـلاطين السـلاجقة، لاستعادة نفوذهم في بغداد على يد الخليفة المقتفي بالله. فقام السـلطان محمود بمحاصرة بغداد محاولاً دخولها، إلا أن استعدادات الخليفة حالت

---

(١) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٩٠-٢٩١.

(٢) مجهول، الحوادث، ص٢٩٤.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٥؛ القزاز، الحياة السياسية، ص٨١.

(٤) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٩١؛ يحيى عبد الهادي، الفتوة، ص٢٢.

دون نجـــاح ذلـــك الحصار(١). ويكون الخليفة المقتفي بذلك أول خليفة عباسي حكم بغداد مستقلاً منذ سيطرة الأتراك على الحكم في عهد الخليفة المنتصر(٢).

ورغـــم هذه النتيجة بقي السلاجقة في بلاد فارس يمثلون خطراً على الخلافة العباسية، فكان كل سلطان سلجوقي جديد يحاول استعادة مكانة السلاجقة القديمة في بغداد، كي يُكسب حكمه الصفة الشرعية، ويتخلص من منافسيه(٣).

كانـــت آخـــر محاولة لتحقيق هذه الغاية محاولة السلطان طغرل الثالث، الذي أرســـل إلـــى الخليفة الناصر سنة (٥٨٣هـــ/١١٨٧م) رسولاً، يطلب منه أن يقوم الديـــوان بعمارة دار السلطنة(٤)، ليسكنها إذا وصل إلى بغداد. لكن رد الخليفة كان صارماً على تلك الرسالة، تمثل بهدم دار السلطنة حتى سويت بالأرض(٥).

كـــان طغرل الثالث تحت وصاية عمه قزل أرسلان، ولما كبر حاول التخلص مـــن نفـــوذ عمه(٦)، فأرسل قزل إلى الخليفة يطلب المساعدة على تمرد ابن أخيه، "ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه"(٧).

اســـتجاب الناصـــر لدين الله لطلب قزل أرسلان، وأرسل جيشاً بقيادة وزيره جـــلال الدين بن يونس سنة (٥٨٤هـــ /١١٨٨م). لكن كان وصول ابن يونس قبل

---

(١) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص١٣٤.

(٢) القزاز، الحياة السياسية، ص٢١٢.

(٣) الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص١٣٩ ؛ حسنين، سلاجقة إيران والعراق،ص١٣٩.

(٤) هـــي الـــدار التي كان يقيم بها سلاطين السلاجقة في بغداد وتقع في محلة المخرم. الحموي، معجم البلدان، ج٥ ، ص٧١.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٦٠ .

(٦) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص١٧٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٦٠.

(٧) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص١٧٦؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٢٠٢.

وصول حليفه قزل أرســلان، فدارت بينهما معركة، انتهت بهزيمة عسكر الخليفة وأسر الوزير[1].

استمرت الخلافة تشجع قزل أرسلان وتثير المتاعب لطغرل حتى ملّ الحرب، وانهكت قوته، واعتزل الحياة[2]. عند ذلك اتجه قزل أرسلان إلى أذربيجان فهاجم طغــرل، وأجبره على تسليم نفسه في قلعة قرب تبريز. كانت مكافئة الخليفة لقزل أرسلان أن خلع عليه، ولقبه "الملك الكريم والغازي الرحيم"[3].

مكــث طغرل في السجن بضع سنين، تمكن أتباعه بعدها من إخراجه، وقتل قزل أرسلان سنة (٥٨٨هـ[4]/١١٩٢م).

عــند ذلــك قــرر الخليفة الناصر أنه لا بد من الاتصال بالخوارزميين الذين ظهــروا حديثا على الساحة السياسية، لمواجهة خطر السلاجقة، فأرسل الناصر إلى خــوارزم شاه علاء الدين تكش يطلب منه قتال السلاجقة مقابل تفويضه حكم البلاد التــي يفــتحها[5]. كانــت هــذه الرسالة من الخليفة العباسي بمثابة الاعتراف بهم وبشــرعية وجودهم، فلم يتأخر علاء الدين تكش في الاستجابة، حيث سار بجيشه

---

(١) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص١٧٧؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٨٧؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٢٠٤.

(٢) الراوندي، راحة الصدور، ص ٤٩٣؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص ١٧٩.

(٣) الراوندي، راحة الصدور، ص ٤٩٣.

(٤) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص ١٨١؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٧٦ ؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص ٢١٨.

(٥) ابــن الأثيــر، الكامــل، ح١٢ ، ص ١٠٧ ؛ ســبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ح، ق ٢، ص٤٤٤.

G.Marcais , Al-Nasir Li-Din Allah, E.I - ١ عمر، النهوض العربي، ص ١٨١.

للقـــاء طغرل الثالث، فالتقيا بالري سنة (٥٩٠هـ[١]/١١٩٤م) فدارت بينهم معركة، انتهت بمقتل طغرل الثالث[٢]. وبذلك انتهت دولة السلاجقة في فارس، وحلّت محلها الدولة الخوارزمية التي صار الاتصال بينها وبين الخلافة مباشرا.

يبدو أن الخوارزميين الذين قامت دولتهم على أنقاض دولة السلاجقة، رسموا لدولـــتهم السياسة عينها التي مارسها من قبلهم السلاجقة والقائمة على التوسع على حساب الدول المجاورة، فبعد أن استولوا على أملاك السلاجقة، أصبح الباب مفتوحا أمامهم للسيطرة على المناطق التي تخضع للخلافة العباسية.

نـــال خـــوارزم شاه علاء الدين تكش رضى الخليفة الناصر بعد القضاء على الســـلاجقة، فأرسل له الخلع مع وزيره ابن القصاب[٣]. لكن خوارزم شاه لم يستقبل عـــلاء الـــدين رسول الخليفة، ولم يلبس خلعة الخلافة[٤]، وكان ذلك إشارة منه إلى معاداة الخلافة، وإعلان العصيان لأوامر الخليفة.

نتـــيجة لهذا الموقف، كان لا بد للخليفة من التحرك عسكريا ضد علاء الدين خـــوارزم شاه، فـــأرسل جيشاً بقيادة سيف الدين طغرل مقطع بـــلاد اللحف[٥] سنة (٥٩١/١١٩٤) اســـتطاع ســـيف الدين الدخول بجيشه إلى أصفهان بعد أن تركها

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ١٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١٢، ص١٠٨؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق ٢ ، ص٤٤٤؛ ابن الأثير، الكامل، جـــ١٢، ص١٠٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص١٠٨.

(٤) الـــراوندي، راحة الصدور، ج٥٢٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٢، س١٠٨؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٤٤٥.

(٥) بـــلاد اللحـــف: مـــن نواحي بغداد، ويسمى بذلك لأنه في لحف جبال همذان ونهاوند ومنها البندجيين. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٤.

الخوارزميـــين[1]. وفي العام نفسه أرسل الناصر الدين الله جيشاً أخر بقيادة وزيره ابن القصاب استولى على خوزستان وهمذان والري[2].

كان لأوضاع دولة علاء الدين خوارزم شاه غير المستقرة، وعدم قدرته على السيطرة على المناطق التي استولى عليها، وموقف الخلافة الصارم تجاه تصرفاته، أن حـــاول -ولو مؤقتاً- تحسين العلاقة مع الخلافة[3].

لـــم يـــدم صفو العلاقة بين الطرفين طويلا، فما أن وجد علاء الدين خوارزم شـــاه نفسه قد استعاد سيطرته على بلاده، حتى أرسل سنة (٥٩٢هـ/١١٩٥م) إلى الخلـــيفة الناصر يكرر عليه مطالبه القديم، وأن يكون الخليفة تحت تصرفه[4]. هذا الموقـــف أغضـــب الخلـــيفة[5]، فرد رسول خوارزم شاه بلا جواب[6]. ولم يكتف الخلـــيفة بـــذلك، بل تحرك عسكرياً رداً على هذا الخروج عن سلطته، فأرسل في ســـنة(٥٩٣هـــــ/ ١١٩٦م) أبـــا الهيجاء السمين[7]، فضم همذان. لكن سوء سياسة السمين، واعتقاله جماعة من الأمراء الذين أعلنوا الطاعة للخليفة، أن أدى ذلك إلى فشل الحملة[8].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح١٢، ص١١٧؛ فهد، تاريخ العراق، ص ٦١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح١٢، ص ١١٩.

(٣) العبود، الدولة الخوارزمية، ص ٨٤ .

(٤) الذهبي، العبر، ح٣ ص ١٠٥؛ السيوطي، تاريخ ، ص ٣٦٣- ٤ .

(٥) لذهبي، العبر، ج٣، ص١٠٥ .

(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص١٠٥؛ العبود، الدولة الخوارزمية، ص٨٦ .

(٧) أبـــو الهيجاء السمين ويلقب بحسام الدين، كان من اكابر أمراء مصر، وكانت القدس إقطاعا لـــه، فلما ملك العادل والعزيز مدينة دمشق من الأفضل، أخذا القدس منه، فذهب لاجئا إلى بغداد. ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ١٢٥.

(٨) المصدر نفسه، ج١٢ ص ١٢٥ .

رأى الخليفة أنه لا بد من الاستعانة بالقوى المجاورة للخوارزميين، فبعث إلى السلطان غياث الدين الغوري سلطان الهند وغزنة، يأمره بقصد بلاد الخوارزميين، لمنعهم عن قصد بغداد. لم يتردد غياث الدين، فأجاب الخليفة إلى طلبه، خاصة أنه وجد أن الظروف مواتية للاستيلاء على بعض أملاك الخوارزميين، فأرسل إلى سلطان الخوارزميين يتهدده بقصد بلاده وأخذها[1].

أمام هذا التطور السياسي، وجد الخوارزميون أنفسهم مضطرين مرة أخرى إلى تحسين علاقتهم مع الخلافة. ولتأكيد حسن النوايا تجاه الخلافة أرسل خوارزم شاه علاء الدين أخاه إلى بغداد إظهاراً للطاعة واعتذارا عن طلبه الخطبة[2].

توفي خوارزم شاه علاء الدين تكش في رمضان سنة (٥٩٦هـ/١١٩٩م) وقبل وفاته، بعث إلى ابنه قطب الدين يخبره بحاله ويستدعيه لتولي الحكم[3]. وصل قطب الدين بعد موت والده، فبايع له الأمراء بالملك[4]، ولقبوه "علاء الدين" [5] لقب والده.

خلال النصف الأول من حكم خوارزم شاه علاء الدين محمد الذي امتد من (٥٩٦-٦١٧هـ/ ١١٩٩-١٢٢٠م) سادت علاقة طيبة بينه وبين الخلافة. هذه العلاقة الودية لم تلبث أن تبدلت بتغير الأهداف والأطماع، خاصة عندما طلب

---

(١) المصدر نفسه، ج ١٢ ص ١٣٥؛ عمر، النهوض العربي، ص ١٧١.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل ج ١٢، ص ١٥٦؛ ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ص ١٠؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص ٢٥٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ١٥٦.

(٥) النويري، نهاية الإرب، ج٢٧، ص٢٢٩.

خوارزم شاه محمد الخطبة له من جديد في بغداد سنة (٦١٤هـ[١]١٢١٧م)، حيث أرسل إلى الخليفة الناصر يقول:[٢] "كن معي كما كانت الخلفاء قبلك مع سلاطين السلجوقية كألب أرسلان وملكشاة، وأقربهم لنا عهداً السلطان سنجر، فتكون بغداد والعراق لي، ولا يكون لك إلا الخطبة". إلا أن الناصر أبا ذلك وأنكره، لتعارضه مع سياسته الاستقلالية، ودعوته إلى إعادة أمجاد الخلافة من جديد [٣].

تعمد خوارزم شاه محمد إلى اختلاق المبررات لشن حرب على الخلافة العباسية. ومن تلك المبررات التي قدمها ليضفي الشرعية على غزوة بغداد، أن الخليفة الناصر عزل ولي عهده الأمير أبا نصر محمد، فلما أسقطت الخطبة له في سائر الآفاق، رفض خوارزم شاه محمد إسقاطها قائلاً[٤] : "قد صح عندي توليته، ولم يثبت عندي موجب عزله. ومن المبررات أيضاً أن الخليفة الناصر قد أرسل جماعة من الإسماعيلية لقتل شريف مكة الشريف قتاده، لكنهم أخطاؤا فقتلوا ابن عمه[٥]،فما كان منه إلا أن يستفتي أئمة بلاده، فأفتوه بأن الإمام الذي يقوم بمثل هذه الأعمال يجب عزله[٦]. كذلك أعلن أنه عثر على وثيقة في غزنة تثبت تحريض الخليفة للغوريين على مهاجمة بلاده[٧].

علـى أثر ذلك، قام خوارزم شاه محمد بعزل الخليفة العباسي، ونصّب خليفة

---

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج١، ص٣٣٠.

(٢) فاروق عمر، النهوض العربي، ص١٧٢.

(٣) الصفدي، نكت، ص٢٣٥.

(٤) الجويني، تاريخ جهانكشاي (بالفارسية)، نقلاً عن العبود، الدولة الخوارزمية، ص٩٦.

(٥) خواندمير، حبيب السير (بالفارسية) نقلاً عن العبود، الدولة الخوارزمية، ص٩٨.

(٦) صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص١٤٠.

(٧) خواندمير، حبيب السير (بالفارسية) نقلاً عن العبود، الدولة الخوارزمية، ص٩٨.

علـــوي من ترمذ يُدعى علاء الملك الترمذي[1]. يعلق الدكتور عبد المنعم رشاد[2] علـــى هـــذا الأجـــراء بـــأن خوارزم شاه كان يبغي منه الحصول على تأييد البلاد المجاورة، ومحاولة زعزعة مركز الخلافة في بغداد.

استعد خوارزم محمد لغزو بغداد، واتجه إليها سنة (٦١٤هـ[3]/١٢١٧م) وفي طـــريقه، وصـــل الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي رسول الخليفة الناصر إلى معســكر خـــوارزم شاه[4]، الذي حاول أن يقنعه بالعودة إلى طاعة الخليفة، لكنه لم يفلح، وأصّر خوارزم شاه على المضي إلى بغداد[5].

لـــم تكـــن نتيجة الهجوم إلا الفشل، ذلك أنه لما وصل إلى عراق العجم وجد أمـــوره مضـــطربة بعـــد مقتل نائبه فيه[6]. كما أن الخليفة الناصر اتخذ جملة من الإســـتعدادت العســـكرية لحمايـــة بغـــداد "ففرق السلاح، وصرف الأموال، وأقام المتاريس حولها "[7]. ولعبت الظروف المناخية الأثر الأكبر في إفشال الهجوم، فما أن ســـار خـــوارزم شاه عن همذان حتى هبت عواصف ثلجية استمرت ثلاثة أيام، أدت إلى هلاك معظم دوابه، وتعطيل حركة الجيش[8]، مما اضطره إلى العودة من

---

(١) ســـبط بـــن الجـــوزي، مـــرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٨٢؛ أبو شامه، الذيل، ص١٠؛ ابن الفوطي، تلخيص، ج٤، ق٢، ص ١٠٨٥. ولكنه يسميه علا الدين القندري.

(٢) Rashad, the abbasid caliphate, p.٥٠

(٣) الذهبي، العبر، ج٣، ص١٦١؛ النويري، نهاية الإرب، ج٢٧، ص٢٣٩.

(٤) النســـوي، ســـيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٥٢؛ أبو شامة، الذيل، ص١٠١؛ ابن خلدون، تاريخ، ج٥، ص ١٣٠؛ البغدادي، التاريخ الغياثي، ورقة ١١٨ أ.

(٥) النسوي، سيرة جلال الدين، ص٥٢.

(٦) أبو شامة، الذيل، ص ١٠٠.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٣١٧؛ النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٦٤.

(٨) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٨٢؛ أبو شامة، الذيل، ص١٠٠ .

حيث أتى.

فسّر بعض المؤرخين الإرتداد السريع لخوارزم شاه محمد، بأن بلاده تعرضت لخطر من قبل القبائل المجاورة وخاصة قبائل المغول، واتهموا الخليفة الناصر أنه كان وراء تلك التحركات.

وأول مـــن أورد هـــذه التهمة من مصادرنا ابن الأثير. فقال[١] : "وإن كان ما ينســـبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك، فهـــو الطامـــة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم". وأورد هذه التهمه دون تمحـــيص مؤرخـــون أخـــذوها عن ابن الأثير، أمثال: ابن الوردي[٢]، والغساني[٣] والمقريزي[٤]، وابن أبي عذيبة[٥].

أمـــام هذه التهمه الخطيرة، لابد للباحث من التوقف عندها لكشف الحقيقة. في الـــبداية نرى أن هذه التهمة لم ترد في المصادر الأخرى المعاصرة للناصر وعلى رأســـها النســـوي، الذي كان أول من يجب أن يتضمنها كتابه، وخاصة أنه يؤرخ للســـلطان جـــلال الـــدين منكبرتي الخوارزمي. ولم يورد الرواية أيضاً مؤرخون معاصـــرون أو قـــريبون من الفترة أمثال: سبط بن الجوزي، وابن الدبيثي، وابن شداد، وأبو شامة وغيرهم.

كما يلاحـــظ في رواية ابن الأثير الارتباك والشك "وإن كان" فهو ليس متأكد من الرواية، ويُسند هذه الرواية إلى العجم، وهذا دليلاً على ضعف الرواية.

---

(١) الكامل، ج١٢، ص٤٤٠.

(٢) تاريخ، ج٢، ص٢١١.

(٣) العسجد المسبوك، ص٤٠٨. ويصرح بنقلها عن ابن الأثير قائلاً: "وقال ابن الأثير."

(٤) السلوك، ج١، ق١، ص٢١٨.

(٥) أنسان العيون، مخ، ورقه ٤أ.

يعلل القزاز[1] هذه التهمه أنها ناجمة عن تقصير الخليفة الواضح، وعدم تقديره مسـؤوليته كخليفة للمسلمين. لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الغزو المغولي للعالم الإسـلامي كان جزءاً من حركة واسعة تستهدف إقامة إمبراطورية مغولية عالمية، نجحـت فعـلاً في أيام مؤسسها جنكيز خان باحتلال الصين الشمالية وأواسط آسيا وبـلاد فارس، تبين لنا أن غزوهم للدولة الخوارزمية والعالم الإسلامي لايمكن أن يعود إلى تحريض الخليفة أو سواه[2].

خَلفَ جلال الدين منكبرتي سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م) والده خوارزم شاه محمد، الـذي بـدأ حكمـه بمكافحة المغول، واستطاع أن ينتصر على المغول في بعض المعـارك. وبينما كان الموقف يحتم عليه خلق روح من المودة مع الخلافة وتكوين حلـف إسلامي لمواجهة المغول، نجده يحاول تكوين حلف ضد الخلافة العباسية[3]. لكـن بعد فشله في تكوين هذا الحلف، قرر أن يقوم بالهجوم منفرداً، فتحركت قواته سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م)[4].

كان مصير هذا الهجوم هو نفس مصير الهجوم السابق الذي قام به والده. فقد بادر الخليفة الناصر إلى صدّ هذا الهجوم بتعبئة قواته، وتوزيع السلاح والمال على العساكر، ونصب المجانيق[5]. واتبع الخليفة سياسة التجويع لجيش جلال الدين حيث

---

(١) الحياة السياسية، ص٢٣٠.

(٢) العبود، الدولة الخوارزمية، ص١٠٥.

(٣) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٢٠٩؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق٢، ص٦٣٤ ابن كثير، البداية، ج١٣، ص١١٤؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٢١٦؛ العبود، الدولة الخوارزمية، ص١٠٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٤٢٦.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٦٣، ٤.

أرسل الفدن إلى الأرض المجاورة لبغداد وحرثها، بحيث لم يبق ما تأكله دوابه[١].

ولمـــا لم يستطع جلال الدين تحقيق مآربه ضد الخلافة العباسية، رأى أنه لابد مـــن مصـــالحتها، فأرسل إلى بغداد رسولاً برسالة تتضمن العتاب. وعندما وصل الرسول قوبل بالاحترام، وأكرمه الخليفة، وخلع عليه وأرسل معه الخلع إلى جلال الدين[٢].

عندما تولى الحكم الخليفة الظاهر بأمر الله سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) أرسل الرسل إلى السلطان جلال الدين منكبرتي يحملون البشرى، فاحتفل السلطان بهم[٣]، ولكن توفي الظاهر قبل أن يرى نتائج هذه المبادرة.

فـــي أواخـــر سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) أرسل الخليفة المستنصر بالله وفداً إلى جلال الدين، وكان آنذاك محاصراً لمدينة خلاط، لمفاوضته على جملة من الأمور، أهمهـــا إعادة الخطبة للخليفة في بلاده[٤]، فأسرع السلطان إلى إجابة ذلك[٥]. ولعل الخطر المغولي الذي كان يهدده كان وراء هذه الخطوة السريعة[٦].

أمـــا بالنســـبة لعلاقـــة الخلافة العباسية بالأيوبيين، فبعد أن قام صلاح الدين الأيوبـــي عـــام (٥٦٧هـــ/١١٧٧م) بإسقاط الدولة الفاطمية بمصر، وإعادتها إلى

---

(١) الحموي، التاريخ المنصوري، ص١١٨.

(٢) النويـــري، نهايـــة الإرب، ج٢٧، ص٢٨٤. وللمزيد من التفاصيل حول المصالحة والمقابلة انظر المصدر نفسه والصفحة.

(٣) النسوي، سيرة جلال الدين، ص٨٠؛ فهد، تاريخ العراق، ص٧٨.

(٤) النسوي، سيرة جلال الدين، ص٣٠٤.

(٥) المصدر نفسه، ص٣١٠.

(٦) العبود، الدولة الخوارزمية، ص١٦٦.

ممتلكات الخلافة العباسية، أقيمت الاحتفالات في بغداد تعبيراً عن الشعور بالفرح(١) وبهذه المناسبة أرسل الخليفة المستضيء الخلع إلى نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي(٢).

ازدادت العلاقة بين الشام ومصر والعراق قوة ومتانة، وأبرز صورة لهذه العلاقة نراها بعد أن اعتلى الناصر لدين الله سُدة الحكم(٣)، ففي اليوم الذي بويع به الناصر لدين الله كان رسول صلاح الدين الشيخ ضياء الدين الشهرزورى في بغداد، فقام على الفور بمبايعة الناصر، وأرسل بذلك إلى صلاح الدين(٤).

ليس من الصعب تفسير هذه العلاقة القوية بين الطرفين، فقد قامت العلاقة على أساس المصالح المشتركة، فصلاح الدين كان بحاجة إلى دعم الخلافة العباسية حتى لو كان ذلك الدعم معنوياً، أما من جانب الخلافة العباسية فقد نظرت بارتياح إلى جهود صلاح الدين في استئصال جذور التشيع بعد إزالة الدولة الفاطمية، وتوطيد أركان الدعوة للخلافة العباسية في مصر من جديد(٥).

كان أول اتصال بين الخلافة والأيوبيين بعد أن تمت البيعة للخليفة الناصر سنة (٥٧٧هـ/١١٨٣م)، ففي هذه السنة توفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب، وكان قد أوصى بأن تسلم حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، لكن صلاح الدين رأى في ذلك خطراً يهدده، فقرر الاستيلاء

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٣٧١؛ ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص٢٦٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٣٧١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص١٥٦.

(٣) حمارنه، "وقفة عند الخليفة الناصر، ص١٤٧.

(٤) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٩.

(٥) عاشور، ظل الخلافة العباسية، ص٤٧٢.

عليها، فكتب إلى الخليفة يستأذنه في ذلك[١]. وبعد أن حاصرها لمدة ثلاثة أيام [٢]، فك الحصار عن حلب واتجه لمحاصرة الموصل[٣]. أرسل صلاح الدين إلى الخليفة يشرح له أسباب الحصار، بأن أهلها قد تعاونوا مع الصليبيين ضده[٤].

سارع عز الدين مسعود صاحب الموصل وأرسل إلى الخليفة الناصر يطلب منه المساعدة في إبعاد صلاح الدين عن الموصل[٥]، فأرسل الخليفة إلى صلاح الدين الشيخ شهاب الدين السهروردي وبشير الخادم لإقرار الصلح[٦]. إلا أن تلك المصالحة لم تنجح بسبب اختلافهما على شروط الصلح[٧]. لكن صلاح الدين قرر رفع الحصار بعد مدة نتيجة لحصانة المدينة[٨]. ثم عاد صلاح الدين مرة أخرى إلى حلب، ودخلها بعد أن عقد صلحاً مع صاحبها، فكتب صلاح الدين بهذا الصلح إلى الخليفة العباسي[٩]

عاد صلاح الدين مجدداً إلى حصار الموصل، لكنه تركها مرة أخرى[١٠] ثم عاد من جديد لحصارها. وانتهى الحصار بالصلح بين الطرفين، بأن تُسلم شهرزور

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص ٢٢-٣.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية، ج٢، ص٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١١٩.

(٤) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٤٤؛ أبو شامة، الروضتين؛ وأنظر عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٤٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٤٨٦؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٣٣.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٥٥؛ الجميلي، دولة الاتابكة، ص١٥١.

(٧) الأصفهاني، البرق الشامي، ح٥، ص ٣٧-٨ .

(٨) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٩؛ القزاز، الحياة السياسية، ص٢٦٠.

(٩) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤٢؛ الغامدي، صلاح الدين والصليبيون، ص٨٥.

(١٠) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٥١ - ٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق ١، ص٨٤.

وقلاعها لصلاح الدين، وتكون له الخطبة والسكة في الموصل[1].

كــان مــن ثمرة جهود صلاح الدين في تحقيق الوحدة أن لقي الفرنج الهزيمة على يده في حطين في ربيع الآخر سنة (٥٨٣هــ/١١٨٧م). وبهذه المناسبة أرسل صلاح الدين بالبشائر للخليفة الناصر[2]. لكن هذه البشارة العظيمة أرسلت مع شاب بغــدادي مغمور، كان قد هاجر إلى الشام من الفقر، فلما وصل إلى بغداد لم يقابل من الخليفة كعادة رسل صلاح الدين[3]. وقد استغل جماعة من أعداء صلاح الدين فــي ديــوان الخلافة هذه الحادثة، وحاولوا إفساد العلاقة بينه وبين الخليفة الناصر وقالوا: "إنه أساء الأدب لإبقاء اسمه بالملك الناصر مضاف للاسم الأشرف الذي هو للإمام الناصر"[4].

لمــا علــم صلاح الدين بذلك حاول أن يظهر الحقيقة، ويؤكد ولاءه للخليفة، فأرســل إلــى الخليفة رسالة أخرى، يوضح فيها موقفه مما نسب إليه. "وأما النعت الذي أُنكر عليّ فهذا من عهد الإمام المستضيء بنور الله أمير المؤمنين، والآن كل مــا يشــرفني به أمير المؤمنين من اسمه فهو اسمي الذي أتشرف به وأُعرف"[5]. وهذا يوضح مدى حرص الطرفين على استمرار حسن العلاقات بينهما[6].

وعــندما فــتح صلاح الدين بيت المقدس سنة (٥٨٣هــ/١١٨٨م)، أرسل إلى الخلــيفة الناصــر ضــياء الدين الشهرزوري يحمل البشرى بهذه المناسبة، ويعلمه

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٧١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص٢٦٨.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٤٨

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٤٩.

(٥) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٢٧٨-٩

(٦) ظل الخلافة، ص٤٧٧.

بالخطبة له على منبر المسجد الأقصى(١).

فـــي عـــام (٥٨٧هـــ/١١٩١م) حاصر الصليبيون مدينة عكا، فلم يجد صلاح الـــدين بُـــداً من دعوة حكام المسلمين في المشرق والمغرب لمشاركته في الجهاد، فأرسل إلى الخليفة الناصر يطلب المساعدة (٢). لكن مشاركة الخليفة كانت بسيطة لا تليق بمركزه كخليفة للمسلمين، فقد أرسل مع النقيب فخر الدين نقيب مشهد باب التـــبن حملين من النفط وتوقيع بعشرين ألف دينار(٣). قبل صلاح الدين النفط، أما المال فإنه اعتذر عن قبوله، وأرســـل يشكر الخليفة(٤).

توفـــي صلاح الدين (٥٨٩هــ/١١٩٣م) فحاول ابنه الأفضل الذي تولى حكم مديـــنة دمشق أن تكون له الزعامة، فأرسل يعلم الخليفة بموت والده، كما أرسل له عدة والده في الحرب وملابسه وهدايا نفيسة(٥).

بعـــد أن وطد الخليفة الناصر أركان الفتوة في بغداد، أراد أن ينتسب إليه فيها ملـــوك الأطـــراف، فأرسل في سنة (٥٩٩هـــ/١٢٠٢م) إلى الملك العادل وأولاده الخلع وسراويل الفتوه(٦).

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢، ق١، ص٣٩٨ - ٩.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق١ ، ص١٠٣؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٢٦

(٣) العمـــاد، الفتح القسي، ص٣٦٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٣١٤ ؛ ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص٢١١.

(٤) العماد، الفتح القسي، ص٣٦٥ ؛ سبط بن الجوزي، مرآة، ج٨، ق١، ص٤٠١ .

(٥) أبـــو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢١٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٥؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص١١٤؛ السيوطي، تاريخ، ص٣٦٣.

(٦) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥١٣؛ أبو شامة، الذيل، ص٣٣

لـــم تقتصر العلاقة بين الطرفين على الشؤون السياسة بل كانت هناك علاقات ثقافيه وعلمية، فبعد أن ألّف الخليفة الناصر كتاب (روح العارفين) أرسله إلى الشام مع شهاب الدين أبو حفص السهروردي ليقرأه الظاهر على أمرائه[1].

احتلت الخلافة في نفوس الأيوبيين مكانة كبيرة، وكانت كلمتها نافذة. ومن شدة احتـــرامهم للخلـــيفة الناصـــر لدين الله أنه إذا ذكر في مجالسهم" خفضوا أصواتهم هيـــبـــة وإجلالاً"[2]، بل أن الملك الظاهر كان إذا ذكر اسم الخليفة في مجلسه يقف احتراماً [3]

كانـــت رســـل العـــادل إلـــى الديوان الخلافي لا تنقطع حاملة الهدايا، فتقابل بالتـــرحاب والتقديـــر. وكانت شفاعة الخليفة عندهم مقبولة[4]، ففي سنة (٦٠٦هـــ/١٢٠٩م) أرســـل كـــل من نور الدين أرسلان ومظفر الدين كوكبري صاحب إربل يطلـــبون مـــن الخلـــيفة الناصر أن يتدخل في الصلح بينهم وبين العادل الذي كان يحاصر سنجار[5]، فأرسل إليه الناصر يأمره بالرحيل، فرحل[6].

اســـتغل الصـــليبيون مـــوت العادل فهاجموا دمياط سنة (٦١٦هـــ/١٢١٩م). وعندما بلغ الخليفة الخبر، أرسل الرسائل إلى ملوك الشام يطلب منهم الإسراع إلى

---

(١) ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص ص١٦٧-١٦٨.

(٢) السيوطي، تاريخ، ص٣٦٠.

(٣) ابن الفرات، تاريخ،ج١، ص١٦٨.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢،.ص٥٨١؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٥٩.

(٥) الجميلي، دولة الاتابكة، ص١٨٧.

(٦) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ٢٨٨

نجدة الكامل بن العادل في مصر [1].

ولما توجه جلال الدين منكبرتي سنة (٦٢٢هـ /١٢٢٥م) لمهاجمة بغداد، أرسل إلى السلطان المعظم عيسى، يطلب منه المساعدة والمشاركة في الزحف على بغداد، فرفض المعظم هذا الطلب قائلاً[2]: "أنا معك على كل أحد إلا الخليفة فإنه إمام المسلمين".

ترك الموقف السلبي للخلافة من الخطر الصليبي أثر في نفوس الأيوبيين. وتجلى هذا في المحاورة التي جرت بين المعظم عيسى ويوسف بن الجوزي رسول الخليفة الذي قدم نائبا عن الخليفة الظاهر بأمر الله سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) ليصلح بين أبناء العادل ، ويقطع صلتهم بجلال الدين منكبرتي. قال المعظم عيسى للرسول عندما اخبره باستعداد الخلافة لنجدته: "ما لكم عادة تنجدون أحد، هذه كتب الخليفة الناصر عندنا ونحن على دمياط، نكتب ونستصرخ به ونقول: انجدنا، فيجيء الجواب بأن قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا"[3].

بعد وفاة الكامل (٦٣٥هـ[4]/١٢٣٧م) تفرقت كلمة الأيوبيين، ولم يستطع من بقي بعده منهم إعادة الوحدة إلى الأسرة مرة أخرى، وانتهت هذه الفوضى السياسية بتخلص الصالح أيوب بن الكامل من ابن عمه الناصر داود بعد اعتقاله، ثم طلب من الخلافة أن تُقره على ما بيده، فاعترفت بسلطته[5].

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٢٢ .

(٢) أبو شامه، الذيل، ص١٤٤ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٧

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٦٣ ؛ القزاز، الحياة السياسية، ص٢٤٧.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٧٠٥ –٧.

بعد أن شعر الملك الصالح أيوب بدنو أجله سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦) أوصى أحد كبار قادة جيشه بتسليم البلاد إلى الخليفة المستعصم بالله، ليرى فيها رأيه. وهذا يُظهر الارتباط الوثيق بدولة الخلافة العباسية[١]، واعتبار هؤلاء السلاطين جندا تابعين لها. ومما يؤيد هذا الارتباط أيضاً ما جاء في لقب السلطانة شجرة الدّر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب، التي تولت حكم مصر بعد مقتل توران شاه ابن السلطان أيوب سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م). وهي أول سلاطين المماليك حيث أظهرت انتسابها إلى الخليفة المستعصم وظهرت هذه النسبة في تلقبها بـ: "المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين"[٢].

وإذا انتقلنا مرة أخرى جهة المشرق ، **فنجد أن الخلافة كانت تواجه عدواً شرسا عرف بالحشاشين أو الحشيشية**، والذين جرأوا على التخلص من أعدائهم بالاغتيال[٣]. يبدأ تاريخ هذه الطائفة باحتلال الحصن الجبلي آلموت على يد الحسن الصباح سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٢٠م). فقد نقل ابن الصباح حاضرته إليها، وأخذ ينشر دعوته من ذلك المكان[٤]. وكان أول ضحاياهم الوزير نظام الملك السلجوقي (ت ٤٨٥هـ[٥]/١٠٩٢م).

---

(١) مجهول، الحوادث، ص١١٤ – ٥؛ القزاز، الحياة السياسية، ص ٢٧٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٤٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٧، فهد، تاريخ العراق، ص٣٧. ويعلق المقريزي على سبب وصية السلطان بتوجيه البلاد إلى الخليفة وعدم تسليمها إلى ولده توران شاه إنه كان على علم بما في ولده من الهوج. السلوك، ج١، ق٢، ص٣٤٢

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة حشاشون .

(٤) ابن العماد المصدر السابق، ج٥، ص٨٤، زامباور، معجم الأسرات، ص ٣٢٩.

(٥) لويس، الحشاشون، ص ٤٥-٦.

فـــي سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) توفي سيد آلموت محمد الثاني، فخلفه ابنه جلال الـــدين حســـن (٦٠٧-٦١٧هـــ/١٢١٠-١٢٢٠م) وقد عاد السلطان الجديد إلى الإســـلام على مذهب أهل السنة والجماعة، واتباع تعاليم الشريعة الإسلاميـــــة[١]. بهـــذه المناســـبة أرسل جلال الدين في سنة(٦٠٨هـ/١٢١١م) إلى الخليفة الناصر لـــدين الله والى ملوك الأطراف يخبرهم بالعودة إلى الإسلام[٢]، ثم بعث إلى أتباعه في حصون الشام يلزمهم أن يفعلوا ما فعل في بلاده، فأعلنوا الطاعة[٣]، كما أعلنوا التـــزامهم بمـــذهب الإمـــام الشافعي[٤]. وطلب جلال الدين من الخليفة أن يبعث له القضاة والفقهاء، ليفقهونهم، ويقضون بينهم[٥].

اصدر الخليفة مرسوما ببغداد يؤكد عودتهم إلى الإسلام. وخوطب جلال الدين بألقاب الشرف، وأصبح يعرف بـــ: "المسلم الجديد "[٦]. كانت فرحة الخليفة الناصر بهـــؤلاء المسلمين الجدد عظيمة، إذ وجد في دخولهم في طاعته ما يزيده قوة على قـــوة، كمـــا وجـــد فـــي زعيمهم حليفا يساعده في تنفيذ سياسته، ويدفعه في وجه خصومه[٧].

لكن هذه العودة إلى الإسلام لم تدم طويلا، ففي عام (٦١٨هـ/١٢٢١م) وثب جماعـــة من الفدائية على جلال الدين، فقتلوه، وتولى الحكم ابنه علاء الدين الثالث،

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٢٩٨؛ ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص ١٢٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٢٩٨؛ ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص١٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٠٣؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٥ .

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٢٩٨.

(٤) ابن الفرات، تاريخ، ج ١، ص ١٢٠ .

(٥) أبو شامه، الذيل، ص ٨١.

(٦) لويس، الحشاشون ص ١٤٦.

(٧) القزاز، الحياة السياسية، ص ٢٤٣ .

الذي عاد بهم إلى ما كانوا عليه في سالف عهدهم(١).

كانـــت نهايـــة الإسماعيلية على يد المغول الذين اكتسحوا قلاعهم واحدة بعد الأخرى حتى سقطت آلموت سنة (٦٥٤هـ(٢)/١٢٥٦م).

وفي أثناء صراع الخلافة مع الخوارزميين **تعرضت لخطر آخر تمثل بالمغول.** كـــان المغول يعيشون في منطقة صحراوية قاسية تقع في الشمال الشرقي من أسيا تعـــرف بهضـــبة منغوليا، وكانوا ينتقلون في أرجائها الواسعة طلبا للرزق، وكانوا كلمـــا ضـــاقت بهم الأرض، خرجت بعض قبائلهم إلى المناطق المجاورة، ينهبون خيـــراتها ويُعملـــون فـــيها معول الخراب. بدأوا الاحتكاك بالعالم الإسلامي بعد أن تعـــاون الخوارزميون معهم، رغبة في القضاء على الخطا وبعض القبائل المناوئة لهـــم(٣). كان أول احتكاك بينهم وبين الخلافة سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م) حيث وصل المغول إلى حدود إربيل ودقوقا، ولكنهم لم يحاولوا التوجه إلى بغداد(٤) .

وبعـــد أن تمّ لهم القضاء على الخوارزميين سنة (٦٢٨هـ(٥)/١٢٣٠م) عادوا ليشـــكلوا تهديـــدا حقيقـــيا علـــى الخلافـــة، فأرسلوا حملة إلى بغداد، فأمر الخليفة المستنصر بالله بتجهيز العساكر، وأرسل إلى جميع ملوك الأطراف للاحتشاد(٦).

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٤٠٥؛ فهد، تاريخ العراق، ص ٨٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٨.

(٣) القزاز، الحياة السياسية، ص ٢٩٧ .

(٤) أبو شامة، الذيل، ص ١٢٨؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص ٣٨٤.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق٢، ص ٦١٩؛ فهد، تاريخ العراق، ص ٨٩.

(٦) مجهول، الحوادث، ص٢٧.

وفــي ســنة (٦٣٥هــــ/١٢٣٧م) وصل التتر إلى أطراف بغداد[١]، ثم تكرر وصــولهم ســنة (٦٤٢هـ[٢]/١٢٤٤م). اهتم الخليفة المستنصر بالدفاع عن بغداد، فانفــق الأمــوال لــتقوية الجيش، ونصب المجانيق على أسوار بغداد. كما استفتى الفقهــاء: أنــه إذا اتفق الجهاد والحج أيهما أولى؟. فأفتى الفقهاء بأن الجهاد أولى، فأبطــل الحــج ذلك العام. كما استنفر الجميع لحمل السلاح والاستعداد للجهاد. فلما وصــلت عســاكر المغول حدث بين الطرفين حرب محدودة، فما أن أصبح اليوم التالي، حتى غادر المغول أطراف بغداد[٣].

بــوفاة المستنصــر بالله سنة (٦٤٠هــ/ ١٢٤٢م) فقدت الخلافة كل قوة لها، حــيث تولى الخلافة المستعصم بالله "وكان مستضعف الرأي، ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموعا فيه، غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور"[٤] "وكّل أموره الكليات إلى غير الأكفاء، وأهمل ما يجب عليه حفظه[٥]".

في رمضان (٦٥٥هــ/١٢٥٨م) أرسل هولاكو إلى الخليفة المستعصم رسولاً يــتهدده ويتوعده، ويخبره بما حلّ بالعالم على يدّ المغول، وأن باب بغداد لن يكون مغلقاً في وجه، ثم طلب من الخليفة تهديم الأسوار والحصون، فأرسل الخليفة وفداً إلى هولاكو، حاول الوفد إقناع هولاكو بترك بغداد، لكنه إذا أراد الحرب، فأن جنود الخلــيفة مستعدون للقتال[٦]. وعندما وصل الرّد إلى هولاكو هدّد وتوعد، ثم تقدم

---

(١) المصدر نفسه، ص١١١.

(٢) ابن الكازروني، مختصر، ص٩٨.

(٣) مجهول، الحوادث، ص١٩٩.

(٤) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٣٣.

(٥) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٩١.

(٦) رشيد الدين، جامع التواريخ، مج٢، ج١، ص٢٧٥.

نحـــو بغداد، فلم تستطع قوات الخليفة أن تقابل قوات المغول، فدخلوها في المحرم (٦٥٦هـــــ [١]/١٢٥٨م) وبذلك قضوا على الخلافة العباسية التي استمرت أكثر من خمسة قرون.

---

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ص ٦٣٠-١؛ القزاز، الحياة السياسية، ص٣٠٢.

الفصـــل الأول

التقسيمات السكانية لمجتمع مدينة بغــداد

أولاً : من الناحية الدينية :

١. المسلمـــــون

٢. أهل الذمـــــــة

ثانياً : من ناحية المكانة الاجتماعية

١. فئة الخاصـــــة

٢ . فئة العامـــــــة

أصبح المجتمع الإسلامي في هذه الفترة خليطاً من العناصر المختلفة: عرب، فرس، ترك، ديلم، أرمن، وأكراد. كما تشابكت العلاقات الاجتماعية بين هذه العناصر. لذا لا يمكن بالأسس المتبعة عند دراسة المجتمع في الفترات الأولى من التاريخ الإسلامي، والتي تركز على العرق كأساس لدراسة البنية الاجتماعية.

ومهما يكن من أمر صعوبة تحديد هيكلية الفئات الاجتماعية في هذه الفترة، إلا أن ذلك لم يحد من قيام نظام تفصيلي للفئات الاجتماعية في ذلك العصر لاقى صداه في الاهتمام بالتعبير عن الفروق الاجتماعية في مناسبات متعددة وعبر وسائل مختلفة. وإذا كان من الصعب علينا توزيع فئات المجتمع البغدادي على طبقات، لأن مفهوم الطبقة الاجتماعية على شيء من التقيد، إلا أننا لا نستطيع أن ننفي وجود الطبقات في ذلك المجتمع، أو وجود تفاوت بين فئاتها. ويصح القول أن المجتمع البغدادي المترف بمراتب اجتماعية كان بعضها مفتوح على بعض بحيث يستطيع القلة أن يعبروا من مرتبة إلى أخرى، تبعاً لمعطيات عدة أهمها: السلطة والثروة والمهنة والثقافة[1] لذلك ستقوم الدراسة بتقسيم المجتمع على أساسين هما: الدين، والمكانة الاجتماعية .

أ – فئات المجتمع الدينية

انقسم المجتمع الإسلامي إلى فئتين رئيسيتين هما: المسلمون (سنة وشيعة)، وأهل الذمة (يهود ونصارى). وسنقوم بدراسة كل فئة على حده.

١ – المسلمون

كان المذهب السني هو المذهب الرسمي للدولة العباسية. وبالتالي فالسنة يمثلون الأغلبية من سكان بغداد.

---

(١) سعيد، العامة ببغداد، ص٥٩.

كانت الظروف السياسية التي تعرضت لها البلاد حتى منتصف القرن السادس الهجري قد فرضت على سكان بغداد التجمع في السكن على أساس مذهبي، فاشتهرت محلة الكرخ مثلاً بأنها مسكن الشيعة، كما اشتهرت أحياء أخرى كباب الأزج(١)، ومشهد أبي حنيفة(٢) في الجانب الشرقي، وأحياء قطفتا(٣) وباب البصرة والحربية في الجانب الغربي بأنها مسكن أهل السنة(٤).

كان الخليفة في نظر أهل السنة الإمام وظل الله في الأرض. وقد عمل الخلفاء على تقوية هذا الاتجاه وتأكيده بأعمالهم وأقوالهم، فتصدوا للتأليف الديني لتثبيت مبادئ أهل السنة. فصنف الخليفة الناصر لدين الله كتاب "روح العارفين"، الذي حوى سبعين حديثاً(٥). كما أجاز للعلماء بالرواية عنه(٦)، وأرسل نسخاً من الكتاب

---

(١) باب الأزج: من محلات الجانب الشرقي في بغداد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٦٨.

(٢) وصف ابن جبير المشهد بقوله: "وبأعلى الشرقية خارج البلد محلة كبيرة، بإزاء محلة الرصافة وفي تلك المحلة مشهد حفيل البنيان، له قبة بيضاء سامية في الهواء، فيه قبر الإمام أبي حنيفة -رضي الله عنه- وبه تعرف المحلة". الرحلة، ص١٨١.

(٣) قطفتا: محلة كبيرة مجاورة للمقبرة التي فيها قبر معروف الكرخي. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٧٤.

(٤) القزاز، الحياة السياسية، ص ١٥١ -٢.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٣٢.

(٦) لم يكن الخليفة الناصر لدين الله أول خليفة قام بالتأليف، فقد صنف الخليفة القادر كتابا في الأصول ذكر فيه فضل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، وكان يقرأ كل جمعه في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي، ويحضر الناس سماعه. ابن الجوزي، المنتظم، ج٧، ص٢٨٩ .

إلـــى ملـــوك الأطـــراف ليسمعه الناس[١]. واشتغل الخليفة الظاهر بأمر الله برواية الحديث عن والده الناصر[٢]. وكان كثير الإحسان للعلماء[٣]. أما الخليفة المستنصر بـــالله فقـــد وصفه الإربلي بأنه: "كان حسن السيرة، جميل السريرة، ذا علم وعمل وعفـــو وحلم"[٤]. وكان المستعصم بالله محباً للعلم، أنشأ خزانة كتب، ونقل إليها من نفائس الكتب الشيء الكثير[٥].

رغم وجود المذاهب الإسلامية قبل تدخل الأجانب من -بويهيين وسلاجقة- في الحـــياة السياسية في دولة الخلافة العباسية، لكن كان تدخل هؤلاء سبباً مباشراً في إذكاء العصبيات المذهبية، وتحولها من خلافات فكرية إلى فتن دموية مدمرة، كان المنتفع الوحيد منها هو ذلك الأجنبي، استطاع عن طريقها إطالة أمد سيطرته على العراق.

علـــى الرغم مما عرف من أن نظام الملك الوزير السلجوقي، كان يهدف من إنشـــاء المـــدارس النظامية التي بثها في كثير من المدن إلى محاربة التشييع، فقد ســـاهمت بدورها في بث الفرقة بين أهل السنة أنفسهم، وعمقت الخلافات، وبذرت بـــذور البغضاء بين الشوافع الذين أوقفت المدارس عليهم، نظراً وتدريساً من جهة، وكـــل مـــن الحنابلة والحنفية من جهة أخرى. فلما رأى الحنفية ما عزم عليه نظام الملـــك الشافعي من تأسيس المدارس النظامية في أمهات المدن، أسرعوا إلى تربة

---

(١) أبـــو شـــامة، الذيل، ص٩٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٦٥؛ ابن الكازروني، مختصر، ص٢٤٥ ؛ السيوطي، تاريخ، ص٣٦١.

(٢) االإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٤.

(٣) القلقشندي، مآثر الإنافة، ج٢، ص٧٤.

(٤) خلاصة الذهب، ص٢٨٦.

(٥) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٣٣.

الإمام أبي حنيفة، وأنشأوا مدرسة بإزائها، افتتحت قبل النظامية بخمسة أشهر[1].

حاول بعض المؤرخين التأكيد على أن الخلاف بين مذاهب أهل السنة ما هو إلا خلاف شكلي إذا ما قورن بالخلاف بين أهل السنة والشيعة[2]. وإن كان هذا صحيحاً فإن الأمور قد سائت إلى حد كبير في القرن السادس الهجري بين السنة أنفسهم. نلمس هذا من الروايات التي أشارت إلى ذلك. قال الوزير يحيى بن هبيرة (ت٥٦٠هـ/١١٦٥م): "إن اختصاص المساجد ببعض أرباب المذاهب، بدعة محدثة، فلا يقال هذه مساجد أحمد، فيمنع منها أصحاب الشافعي، ولا العكس؛ فإن هذا من البد. وقد قال تعالى في المسجد الحرام:﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[3] وهو أفضل المساجد. أما المدارس، فلم يقل فيها ذلك، بل قال: "لا ينبغي أن يضيف في الاشتراط على المسلمين فيها، فإن المسلمين فيها أخوة"[4].

ورّث المستضيء ابنه الناصر لدين الله تركة (الخلافة) تعاني كثير من المشاكل والمصاعب، كان غياب مفهوم الاستقرار والانسجام بين فئات المجتمع أهمها، حيث الخلافات المذهبية بين أتباع المذاهب المختلفة، وما كان ينجم عنها من فتن، تؤدي في حالات كثيرة إلى الاقتتال. ساهمت هذه الفتن في تفسيخ عرى الانسجام والتقارب بين سكان بغداد، والتي كانت بحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى، خاصة في ظل الأخطار الخارجية التي أخذت تهدد كيان (ما تبقى) من الخلافة العباسية.

---

(١) جواد وسوسة، دليل خارطة بغداد، ص٥٦ .

(٢) أمين، تاريخ العراق، ١٦٩م.

(٣) سورة الحج، الآية٢٥ .

(٤) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ح١، ص٢٧٩ -٢٨١؛ ابن أبي عذيبة، إنسان العيون، مخ، ورقة ٤.

لم يدرك الخليفة المستضيء عظم الأخطار الخارجية التي تواجه دولته، والتي كانت أكثر ما تحتاج إليه جبهة داخلية متماسكة، تنبذ الخلافات الفكرية والعقائدية جانباً، وتستعد لمقاومة أي عدو لن يفرق بينهم بناءً على معتقد أو مذهب. وقد ساهمت سياسة الخليفة المستضيء في استمرار الخلاف، واتساع شقته، فبدلاً من أن يمارس سياسة متوازنة في تعامله مع فئات شعبه، نجده ينصر فئة على أخرى، ويقرب فئة على حساب الأخرى.

اتبع الخليفة المستضيء سياسة سنية بالكامل[١]، فقرب السنة، ومارس سياسة أقرب إلى الاضطهاد ضد الشيعة، مستعيناً ببعض علماء السنة لتطبيقها. وكان رأس هؤلاء الفقيه أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي[٢] (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) فأذن له الخليفة بالجلوس بباب بدر -وهو جزء من حرم دار الخلافة- لعقد مجالس وعظه[٣]. والتي غالباً ما كانت وسيلة من وسائل الدعاية للخليفة، يستغلها لتأكيد زعامته الدينية للمسلمين، خاصة إذا علمنا حرص المستضيء على حضور تلك المجالس[٤].

مارس ابن الجوزي دوراً بارزاً في تطبيق سياسة الخليفة المستضيء ضد الشيعة، خاصة بعد مباركة الخليفة لجهوده. يقول ابن رجب: "وكان الرفض في هذه الأيام -ويقصد أواخر أيام المستضيء- قد كثر، فكتب صاحب المخزن إلى الخليفة:

---

(١) رغم وجود تمثيل للشيعة في دار الخلافة ممثلاً بابن الصاحب، إلا أن هذا لا يدل على سياسة عامة تجاه الشيعة.

(٢) تقرب ابن الجوزي إلى الخليفة بتأليف كتابين هما: (المصباح المضيء في خلافة المستضيء) و(النصرة على مصر) بعد القضاء على الدولة الفاطمية بمصر. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص٤٠٤ .

(٣) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص٤٠٤ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

إن لم تقوَّ يد ابن الجوزي، لم يطق دفع البدع، فكتب الخليفة بتقوية يده"[١].

أعلـن ابـن الجوزي هذا التأييد في أحد مجالس وعظه، محرضاً أتباعه على مهاجمـة الشيعة. "أن أمير المؤمنين قد بلغه كثرة الرفض، وقد خرج توقيعه بتقوية يـدي في إزالة البدع، فمن سمعتموه من العوام ينقص الصحابة، فأخبروني، حتى أنقض داره، وأخلده في الحبس"[٢].

وكجـزء من هذا التأييد، أمر المستضيء بعمل لوح نصب على قبر أحمد بن حنبل كتب عليه: "هذا ما أمر بعمله سيدنا ومولانا أمير المؤمنين الإمام المستضيء بـالله، وفي أسفله مكتوب: هذا قبر تاج السنة، وحيد الأمة..."[٣]. كما سمح الخليفة عـام (٥٧٤هـ/١١٧٨م) بعمـل دكة بجامع القصر للشيخ أبي الفتح ابن المنى الحنبلـي، مما أثار سخط أتباع المذاهب الأخرى[٤]. ومن شدة ما لحق الشيعة زمن المستضيء، نجد ابن الجوزي يصف حالهم، بقوله: "وخمدت جمرتهم وصاروا أذل من اليهود"[٥].

لم تقتصر الفتن كما أشرنا سابقاً بين السنة والشيعة، بل كانت بين مذاهب أهل السـنة أنفسهم، فالتعصب وعدم قبول الرأي الآخر، دفع ابن الجوزي إلى ممارسة الاضطهاد ضد ابن مذهبه عبد السلام بن عبد الوهاب الجيلي، بحجة اشتغاله بالعلوم العقلية والفلسفة[٦]، التي تعتبر بنظره برهاناً على سوء العقيدة[٧].

---

(١) المصدر نفسه، ح١، ص٤٠٧ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) المصدر نفسه، ح١، ص٤٠٨ .

(٤) الذهبي، تاريخ، ط٦٤، ص٢٥ .

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ح١٠، ص١٨٥، الذهبي، تاريخ، ط٦٣، ص٢٦ .

(٦) ابن أبي عذيبة، أنسان العيون، مخ، ورقة٢٥١.

(٧) ابن الجوزي، المنتظم، ح١٠، ص١٤٥ .

إذاً فقـــد تولى الخليفة الناصر لدين الله الحكم، والأمة منقسمة على نفسها، إلى فرق وتيارات فكرية متناحرة، كل منها لا يعترف بأحقية الآخر بالوجود. ولم تكن بيده العصا السحرية التي تنهي الوضع القائم.

مـــارس الخلـــيفة الناصـــر سياسة توفيقية بين أتباع المذاهب المختلفة، فقرب الجميع، وخاصة الشيعة اللذين لقوا الضيم في عهد والده. هذه السياسة دفعت بعض المؤرخين إلى اتهامه بالتشيع(١) وهذا ما سنوضحه عند الحديث عن الشيعة.

رغم السياسة التوفيقية التي اتبعها الناصر، إلا أن الفتن كانت تظهر بين الفينة والأخـــرى، ففي أحد مجالس الوعظ التي كان يحضرها الفقيه أبو الحسن أحمد بن إســـماعيل القزويني في المدرسة النظامية، أظهر ميله للأشعري، فأغضب الحنابلة، والـــذين طالـــبوه بلعن يزيد بن معاوية، فلم يستجب لهم، فرموه بالآجرّ، ولم يمنعه منهم إلا تدخل السلطة.

فـــي خلافة المستعصـــم كتب شخص رقعة تقول: هل الأيمان يزيد أو ينقص؟ وعرضـــت علـــى جماعة فلم يُكتب فيها ، فكتب فيها وضاح الحنبلـــــي(٢)، وعبد العزيـــز القميصي وبالغا في ذم من يقول أن الأيمان لا يزيد و لا ينقص، ثم سُلّمت الفتوى إلى فقيه حنفي، فلم يكتـــــب فيها، فانتهى الحديث إلى الديوان، وتألم الحنفية مـــن ذلك وقالوا: هذا يعرض بذم أبي حنيفة، فأمر الخليفة بإخراج ابن وضاح من

---

(١) الكتبـــي، فـــوات الوفيات،ج١، ص٦٦، أبو الفدا، تاريخ، ج٣، ص١٣٦؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص١٧٣.

(٢) هـــو الشيخ كمال الدين علي بن محمد بن وضاح الشهرباني، ولد بشهربان سنة ٥٥٩هـــ، ثم قـــدم بغـــداد، ودرس بالمستنصـــرية، ثم تخرج منها سنة ٦٤٧هـــ، وبعدها رتب بالمدرسة المجاهديـــة بعد احتلال بغداد مباشرة من قبل المغول. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج٢، ص٢٨٣.

المدرسة المستنصرية، ونُفي ابن القميصي خارج بغداد[1].

ومما يشير إلى هذه العصبية إن أتباع كل مذهب إذا وصلوا إلى السلطة كانوا يستغلون هذه المكانة للنيل من اتباع المذاهب الأخرى، كما فعل الوزير عبد الله بن يـونس الحنبلـي مع الركن عبد السلام بن عبد القادر الجيلاني، فقد نكل به وكبس داره، وأخـرج كتبه التي كان من بينها كتب في الفلسفة والنجوم [2]، واستدعى ابن يونس القضاة والفقهاء والأعيان، وكان منهم أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ثم قـرأ شيئاً من تلك الكتب وأمر بإحراقها، ثم أمر القاضي بتفسيقه ورمي طيلسانه، وأخرجت مدرسة جده من يده ويد أبيه عبد الوهاب، وفوضت إلى ابن الجوزي[3].

ولما تولى الوزارة محمد بن علي بن القصاب، وهو شيعي المذهب، سعى في القبض على خصمه ابن يونس، وتتبع أصحابه، وأعاد مدرسة الشيخ عبد القادر إلى ولـده عبد الوهاب، ورد ما تبقى من كتب عبد السلام الجيلي التي أحرق بعضها، وقبض على الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ونفاه إلى واسط، وادعى عليه أنه اقتطع مـن وقف المدرسة ومالها، وكتب محضراً في ذلك، ورجع عبد السلام الجيلي إلى بغـداد، ورتب عميداً لها، وخُـلع عليه، ورد إليه استيفاء مـال الضامن، وأعطي داراً [4].

رافق القبض على ابن الجوزي، تتبع أتباعه، منهم المؤرخ والفقيه عبيد الله بن علي بن نصر بن المارستانية، حيث كان المكلف بقراءة كتب عبد السلام الجيلي

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٢٤٣.

(٢) ابن أبي عذيبة، أنسان العيون، مخ، ورقة ٢٥١.

(٣) المصدر نفسه والورقة.

(٤) سـبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٢٥١؛ الذهبي، سير، ج٢٢، ص٢١٦؛ ابن أبي عذيبة، أنسان العيون، مخ، ورقه ٢٥١.

يوم عُقد له المجلس، وكان يقرأ الكتاب ويقول: "يا عامة، عبد السلام يقول: من بخرّ زحل بكذا وكذا. وقال: يا ألهي، يا علة العلل، نال ما أراده". فبعد القبض عليه، اعتقل بقسم المجانين في البيمارستان العضدي(١).

كان أغلبية أهل السنة يتبعون مذاهب الحنفي والشافعي والحنبلي، أما أتباع مالك فكانوا قلة، أغلبهم من القادمين من المغرب ومصر.

ورغم ذلك، فقد سمحت الدولة لأتباع هذه المذاهب بحرية إنشاء المدارس التي تقوم على أساس المذهب. فنجد في بغداد أكثر من ثلاثين مدرسة أحادية المذهب، لا يدّرس بها إلا المذهب الذي وقفت لأجله(٢). واستمر هذا حتى حكم المستنصر بالله، الذي حرص على التقريب بين تلك العناصر. وكان أعظم أجراء اتخذه، أنشاء المدرسة المستنصرية سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م)، وجعلها وقفاً على المذاهب الأربعة، فوفد إليها طلاب العلم، ونسوا الضغائن والأحقاد المذهبية، وأصبح يجمع طلبة المدرسة المستنصرية على اختلاف عناصرهم ومشاربهم وطوائفهم شعور واحد وهو الاعتزاز بالمدرسة المستنصرية ومكانتها وعلومها(٣). هذا بالطبع عامل مهم من عوامل التقارب والوحدة بين الطوائف المختلفة التي كانت تتنافس وتتناحر في القرنين الخامس والسادس الهجريين. إلا أننا نجد في القرن السابع الهجري أن ذلك التناحر قد ضعف نوعاً ما، وليس ببعيد أن المستنصرية كانت من العوامل المؤثرة وبصورة كبيرة في تقليل وأضعاف ذلك التنافس والتناحر المذهبي(٤).

---

(١) ابن رجب، ذيل الطبقات الحنابلة، ج١، ص٤٤٥ــ٤٤٦ .

(٢) انظر الفصل الرابع "المدارس"

(٣) أمين، المدرسة المستنصرية، ١٩٦٠، ص١١٩.

(٤) المرجع نفسه والصفحة .

كانت تعاليم المستنصرية الفقهية قد نبعت من علماء السنة، ومعنى ذلك أن خريجي المدرسة كانوا من أتباع المذهب السني، وذلك يؤدي فينا إلى نتيجة مهمة، هو أن وظائف الدولة أصبحت في يد السنة على اختلاف مذاهبهم[1].

كانت السلطة تتدخل أحياناً لمنع وقوع الفتن بين المذاهب، ولما كانت مجالسهم من أكثر المجالات التي تكون نقطة انطلاق لها، فإن السلطة كانت في بعض الأوقات تمنع عقد تلك المجالس، ففي سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) أمر الخليفة المستعصم بمنع الوعاظ من الجلوس للوعظ ببغداد[2]. ولكن في بعض الأوقات وقفت السلطة إلى جانب السنة في نزاعهم مع الشيعة، فعندما قتل أهل الكرخ سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) رجلاً من أهل قطفتا حمل أهل القتيل ابنهم إلى باب النوبي[3]، فأرسل المستعصم الجند لتأديب أهل الكرخ، وقتل جماعة منهم، ونهبت الكرخ، وسبيت النساء[4].

إذاً كان التعاون وثيقاً بين أهل السنة ومؤسسة الخلافة، فأغلب الموظفين من السنة في الجيش والإدارة، وفي دار الخلافة نفسها.

ويشكل الشيعة جزءاً مهماً من المجتمع البغدادي آنذاك. يختلف الشيعة عن أهل السنة في موقفهم من الخلافة ونظرتهم إليها. فقد كان قيام الخلافة العباسية إيذاناً بانتهاء وحدة آل البيت السياسية، فدعوا الناس سراً إلى البيعة لهم. وكان ضعف

---

(١) المرجع نفسه، ص١٢٤.

(٢) مجهول، الحوادث، ص٢٤٣؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٥١.

(٣) باب النوبي: هو احد أبواب دار الخلافة العباسية ببغداد، والراجح أسمه أنه اخذ من اسم دابة النوبة التي كانت تقف أمامه. ابن الكازروني، مقامة ، ص٣٣٠.

(٤) أبو الفداء، تاريخ، ج٣، ص٢٠٢؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٦٢٥؛ الصياد، المغول،ج١، ص٢٥١

الخلافة ووقوعها في قبضة المتغلبين ، فرصة أتاحت للشيعة في بغداد أن يقوموا بنشاط سافر، فعندما سيطر البويهيون على الخلافة، وفروا للشيعة الحماية والمنعة[1].

حاول الخلفاء في الحقبة موضوع الدراسة استعادة الوحدة بين عناصر المجتمع بالتوفيق بين السنة والشيعة، والاهتمام بهم، حتى اتهم الخليفة الناصر لدين الله بأنه شيعي "يرى رأي الأمامية[2]".

إن ظهور التشيع في بداية حكم الناصر، كان نتيجة طبيعية لما أفرزته الظروف السياسية عند توليه لمنصب الخلافة من تحكم أستاذ الدار ابن الصاحب، الذي كان متشيعاً مغالياً، ولكن بعد أن عمت الشكوى منه، وكثرت السعايات فيه، أمر الخليفة الناصر بالتخلص منه سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧ م).

إن رعاية الناصر للشيعة، لا تعني أنه كان متشيعاً، بل كانت جزءاً من سياسته التوفيقية بين عناصر المجتمع من جهة، وإضعافاً للمشاعر الطائفية، وللقضاء على الفتن التي كانت تتوالى بين السنة والشيعة من جهة أخرى. إن إبقاءه لابن الصاحب، ما كان إلا لحاجته إليه، حيث كانت مقاليد الأمور بيده، منذ عهد والده المستضيء، لذلك غض الطرف عنه، حتى أن الشيعة في عاشوراء فعلوا ما لم يفعلوه في أي عصر، فقد ساروا في الشوارع، ووصلوا حتى باب حجرة الخليفة، وعلى مسمع منه، سبوا الصحابة وعائشة زوجة النبي ﷺ بقولهم: "ألعنوا راكبة الجمل"[3].

---

(١) القزاز، الحياة السياسية، ص١٦٠.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٦٦؛ أبو الفدا، تاريخ، ج٣، ص١٣٦؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص١٧٣

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٦٩؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٢.

والدليل على هذا التوجه التوفيقي في سياسة الناصر، أنه كان يدعو شيخ الحنابلة ابن الجوزي لعقد مجلس وعظه بباب بدر، ليستمع وأهله لمواعظه(١)، كما وأنه تأكيداً لهذه السياسة جعل مشهد موسى الكاظم أمناً لمن لاذ به(٢)، وأمر سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م) أن يُقرأ مُسند الأمام أحمد في المشهد نفسه(٣).

لم يقاطع الشيعة وظائف الدولة بالرغم من رأيهم بالخلافة العباسية، فتولوا الكثير من المناصب، فكان منهم الوزراء، أمثال: محمد بن أحمد بن القصاب، ونصير الدين بن مهدي العلوي ومؤيد الدين بن العلقمي(٤). وكان منهم أستاذ الدار هبة الدين ابن الصاحب(٥)، وبعض الولاة مثل زعيم خوزستان الأمير مجير الدين طاشتكين، الذي ولي إمرة الحج(٦).

كان هؤلاء الموظفين الشيعة كثيراً ما يستغلون مناصبهم في بعض الأحيان فيعملون على حماية الشيعة وتشجيعهم على أهل السنة. وصف ابن الأثير مجد الدين ابن الصاحب أستاذ الدار بأنه: "كان متحكماً في الدولة ليس للخليفة الناصر معه حكم، وكان رافضاً سباباً، أحيا شعائر الإمامية، وبسط الخليفة يده وقربه تقريبا زائداً، فراج الرفض في زمانه، وشمخت المبتدعة، وسفكت الدماء، وسب الصحابة، وبطر بطراً شديداً (٧) "

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص١٧٦ .

(٢) مجهول، مختصر أخبار الخلفاء، ص١١١.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، ط٦٣، ص٦٥.

(٤) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٤، ص٣٢٥، ص٣٣٧ .

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٨٣ .

(٦) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٤٨٠ .

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٨٩ .

حـرص الخلفاء بعد الناصر على هذه السياسة. ففي سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) أمر الخليفة المستنصر بالله بتوزيع ثمانية آلاف دينار على جهات مُعينة، جعل ألف منها لفقراء الطالبيين وألف لفقراء مشهد الحسين بن علي[1]. وفي سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) قصد المستنصر زيارة مشهد موسى بن جعفر، فلما عاد أمر بثلاثة آلاف دينار إلى أبي عبد الله الحسين بن الأقساسي نقيب الطالبيين، وأمره أن يصرفها على العلويين المقيمين في مشاهد: علي بن أبي طالب والحسين وموسى بن جعفر[2].

ولما احترق مشهد "سر من رأى" سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)، أمر الخليفة بأن يعمر من جديد وإعادته إلى أفضل مما سبق[3].

كانت سياسة الخليفة المستعصم في التعامل مع الشيعة متذبذبة، فنجده أحياناً يحرص على زيارة مشاهدهم ورعاية فقرائهم. ففي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) أمر بعمارة سور مشهد موسى بن جعفر الذي كان قد غرق في السنة الماضية[4]. إلا أنه لم يسر على هذا النمط طويلاً، فقد قرب السُّنة ودعمهم ضد الشيعة، ففي الفتنة بين السنة والشيعة سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) وقف الخليفة إلى جانب السنة، وأمر الجند بمهاجمة الكرخ فنهبوها وقتلوا وسبوا النساء[5]. كما منع المستعصم من قراءة مقتل الحسين بن علي في عاشوراء في الأعوام (٦٤١هـ/١٢٤٣م)[6]، وعام

---

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٧٠ .

(٢) مجهول، الحوادث، ص٩٥ .

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٢ .

(٤) المصدر نفسه، ص٢٣٣.

(٥) أبو الفدا، تاريخ، ج٣، ص٢٠٢؛ مجهول، الحوادث، ص١١٤ .

(٦) المصدر نفسه، ص١٨٣.

(٦٤٨هـ[1]/ ١٢٥٠م) وسنة (٦٥٠هـ [2]/ ١٢٥٢م) .

٢ – أهل الذمــــــة

كان أهل الذمة يمثلون فئة دينية في المجتمع. وأهل الذمة هم القاطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين، وسموا بهذا الإسم لأنهم كانوا في ذمة المسلمين، دفعوا الجــزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم. إن تقاليد الإسلام كانت تقتضي بأنه إذا أراد المسلمون فتح إقليم وجب عليهم أن يخيروهم بين الإسلام فمن استجاب يطبق عليه أحكامه، ومن أمتنع فرضت عليه الجزية لقوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [3].

لــذلك فمفهوم أهل الذمة يشمل اليهود والنصارى والمجوس[4]، والصابئة[5]. وقد تمتعوا بكثير من التسامح وإقامة شعائرهم بأمن واطمئنان[6].

لا تسعفنا المصادر الإسلامية بأية معلومات عن أعداد أهل الذمة في بغداد. لكن هناك اثنان من الرحالة اليهود قدّموا لنا معلومات عن أعداد اليهود– مع تحفظنا على ما فيها من أرقام بسبب الاختلاف الكبير فيما أورداه. أولهما بنيامين التطيلي الذي زار بغداد سنة (٥٦٠هــ/١١٦٥م) في عهد الخليفة المستنجد، فجعل عدد

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٤٨؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٨٥.

(٣) التوبة، آية ٢٩ .

(٤) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص٥٨ .

(٥) مجهول، الحوادث، ص٦٩.

(٦) التطيلي، الرحلة، ص١٣٥.

اليهود في بغداد ألف شخص[1]، أما بتاحيا الذي زار بغداد سنة (٥٨٠هـ/١١٨٥م) فقد بالغ وجعل عددهم في العراق ستمائة ألف نسمة[2].

حرص أهل الذمة على ممارسة الأعمال والمهن التي تدر عليهم الأموال[3]، فتركز عمل اليهود في الأمور المالية والمصرفية، فعملوا في التجارة[4]، والصياغة[5]، والجهبذة[6]. أما النصارى فعملوا في مهن الطب[7]، والكتابة في الدواوين[8]، وصناعة العطر[9].

يُعزي الدكتور عبد العزيز الدوري نجاح أهل الذمة في هذه المهن وخاصة التجارة والصيرفة بأنه عائد إلى موقف الإسلام من الربا والاحتكار، فابتعد عنها المسلمون ومارسها أهل الذمة[10].

وكان ممن اشتهر من اليهود في هذه الأعمال أبو طاهر بن شُبَّر، الذي عمل

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) رحلة بتاحيا نقلاً عن متز، ج٢، ص٦١.

(٣) القزاز، الحياة السياسية، ص١٧٦.

(٤) الدوري، تاريخ العراق، ص٣٣.

(٥) مجهول، الحوادث، ص٦٨؛ ترتون، أهل الذمة، ص١٩.

(٦) مجهول، الحوادث، ص٦٨. والجهبذ هو النّقاد الخبير بغوامض الأمور العارف بطرق النقد. الدوري، تاريخ العراق، ص١٥٧.

(٧) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٣٢.

(٨) مجهول، الحوادث، ص١١.

(٩) المصدر نفسه، ص٦٧.

(١٠) مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٧١.

جهــبذاً للخلــيفة الناصر لدين الله[1]، وابنه أبو غالب بن أبي طاهر عاملاً في دار الضرب[2].

وأمــا من النصارى فقد أشتهر أبو الفرج بن المسيحي رئيس الطب[3]. كذلك صاعد بن توما النصراني، الذي تقدم في أيام الناصر لدين الله حتى صار في منزلة الــوزراء، وكــان الخلــيفة يثق به على حفظ أمواله ويرسله في أمــور خفية عن الوزيــر[4]. كــان صــاعد فــي البداية طبيباً وكاتباً للأمير نجم الدين أبو اليمن الشــرابي، ثــم صار من خواص الخليفة الناصر "حتى أوكل إليه تدبير سائر أمور المملكة وتدبير شؤون أبنائه وبناته ونسائه[5].

وصــاعد هــو الثالث ممن اشتهر من عائلة المسيحي، فهناك أخويه الجاثليق المعروف بابن المسيحي وأبو الخير ماري بن هبة الله عبد البقاء بن إبراهيم المؤمل بــن المسيحي، وكان طبيب الناصر الخاص، ولكن لما أُصيب الخليفة بمرض في مثانــته، أشــار بشــق العضو لإخراجه، وكاد الخليفة أن يقتله لما رأى عجزه عن مداواته، وقد مات أبو الخير بعد أن ناف عن المائة سنة(٦٠٨هـ/١٢١٢م) وخلف كتاب "الاقتضاب في الطب"، و"مختصر انتخاب الاقتضاب"، وأشعار سريانية[6].

---

(١) ابــن الســاعي، الجامــع المختصــر، ج٩، ص١٦٢. وكان رئيس اليهود حتى توفي سنة ٦٠١هـ.

(٢) المصدر نفسه، ج٩، ص١٦٦.

(٣) مجهول، الحوادث، ص١٣ .

(٤) ابن العبري، مختصر، ص٢٤١؛ القفطي، أخبار العلماء، ص١٤٤.

(٥) القفطــي، أخبار العلماء، ص ١٤٤-٥ ؛ ابن أبي أصيبيعة، عيون الأنباء، ص ٤٠٥-٦؛ ابن العبري، مختصر، ص٢٤١ .

(٦) المصدر نفسه، ص٤١٦؛ فييه، أحوال النصارى، ص٣٥٣.

لنعد إلى مرض الخليفة، فبعد أن عجز أبو الخير عن علاجه، أُستدعي طبيب من أفضل جراحي الكرخ هو ابن عكاشة، وبعد عدة علاجات غير مجدية، توصل طبـيب نصـراني آخر هو أبو نصر سعيد بن عيسى إلى مداواته بالمرهم المحلل للحصـى، وبعـد ثلاثة أيام خرجت الحصى، فأُغرق بالهدايا والأموال حيث أمره الخليفة بالدخول إلى دار الضرب، وأن يحمل من الذهب ما يقدر أن يحمل، ففعل ثم أتـته الخلـع إلى داره من أم الخليفة ومن ولديه الأميرين: محمد وعلي، والوزير نصير الدين بن مهدي العلوي، والأمير نجاح الدين الشرابي، وقد حصّل من الدنانير الـذهب عشرين ألفاً، ومن الثياب والخلع الشيء الكثير، وفرضت له العطايا طول حياته(١).

وكـان علـى أهـل الذمة مقابل معيشتهم في بلاد الإسلام أن يدفعوا الجزية؛ فالفقيـر يدفـع ديـناراً، والمتوسـط دينارين، والغني أربعة دنانير على رأس كل حول(٢).

وتجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء، وعُفيّ منها النساء والصبيان والمجانين ورجال الدين(٣). وحُدد شهر المحرم من كل عام كموعد لدفع الجزية "وفي غرة المحرم جلس محي الدين أبو عبد الله بن فضلان(٤) في ديوان الجوالي،

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤٠٣؛ جان فييه، أحوال النصارى، ص٣٥٤ .

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٢٨.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن فظلان، فقيهاً وعالماً، درّس بعد أبيه بمدرسة فخر الدولة بن المطلب، ثم تولى تدريس النظامية، وبعدها قُلد قضاء القضاة والنظر في أوقاف المدارس والأربطـة وبقـي على ذلك إلى أن توفي الخليفة الناصر، فلما تولى الظاهر عزله، ثم ولي نظارة المارستان العضدي، توفي سنة ٦٣١هـ. مجهول، الحوادث، ص٦٣-٧٠ .

واستوفى الجزية من أهل الذمة"[١].

وكـــان علـــيهم الحضور إلى ديوان الجوالي حتى "توزن جزيته"[٢]. ولكن من الرســـالة التـــي رفعها ابن فضلان والتي أوضح فيها وضع أهل الذمة وتمكنهم في الدولة على حساب المسلمين، يظهر أنه لم يكن هناك حزم في عهد الخليفة الناصر فـــي تطبـــيق هذه القاعدة، فقد يرسلها أحدهم مع أحد أقربائه، ولكن في فترة لاحقة عـــندما تولـــى ابن فضلان ديوان الجوالي تشدد في هذا الأمر وأصر على حضور الذمـــي بنفسه إلى الديوان، فهذا أبو علي بن المسيحي رئيس الطب، والذي كان له اختصاص ودخول على الخليفة، تظاهر بالمرض، وأعتذر، وسأل أن تؤخذ الجزية من يد ولده، فلم تُقبل منه، فحضر وأداها[٣].

والحقـــيقة أن الجـــزية لـــم تكن عقابا لأهل الذمة، بل هي نظير إعفائهم من الجندية، ومقابل حماية المسلمين لهم.

ونتـــيجة لـــبعض التجاوزات أصدر الخليفة الناصر لدين الله عام (٥٧٩ هـــ/ ١١٨٣م) مرسوما يمنع استخدام أهل الذمة في الدواوين[٤]، فقد رأى في ذلك إذلالاً للمســـلمين، فوقع إلى أستاذ الدار ابن الصاحب بقوله: "أن الله تعالى نفى أن يكون للكافر على المسلم سبيل، وفي استخدام أهل الكتاب إهانة للمسلمين، فلا يستخدم أحد فـــي شيء من الأعمال ورتب عوضهم من يصلح من المسلمين"[٥]. وقد أشار ابن

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣ .

(٢) مجهول، الحوادث، ص٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣ .

(٤) الأيوبـــي، مضمار الحقائق، ص٧٣، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٧٨، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٦١-٢.

(٥) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٧٣، Rashad ,op .cit , p١٦١

الصـــاحب علـــى الخلـــيفة التروي في هذا الأمر، وذلك لما في أيديهم من الأموال والأوراق التي يمكن أن يخفوها.

ولكن الخليفة تشدد في هذا الموضوع وقال: "ما إلى هذا سبيل ولو ذهب أصل بـــيت المـــال، ولا يبق أحد من الكفار في شيء من الأعمال". فأُخرج من كان في الديـــوان من أهل الذمة كأولاد النظام وغيرهم من النصارى من أولاد زطينا، وابن الأشـــقر كاتب ديوان العرض[١]. وقد حاول ابن البخاري[٢] نائب الوزارة أن يشفع لـــدى الخليفة بابن الأشقر "لأنه ثقة عفيف" فكتب الناصر "هذا الأشقر قد مات، ما الـــذي يُصـــنع بعده في ديوان العرض "فأمر بإخراجه بعد أن عرض عليه الإسلام فأبـــى[٣]، وكـــان له ولد أعلن إسلامه، فكتب أستاذ الدار إلى الخليفة في ذلك، فرد الخليفة "إنما منعنا من استخدام الكفار لأجل كفرهم فمن أسلم يعاد إلى خدمته"[٤].

علّـــق الأيوبي على هذه الخطوة التي قام بها الناصر بقوله:[٥] "وكانت معدودة مـــن مكـــارم أخلاق أمير المؤمنين الناصر لدين الله لأنه لم يسبق لها ولم يعتمدها سواه".

على أية حال، يبدو أن هذه السياسة كانت ذات مدى قصير، لعل ذلك عائد إلى تمكـــنهم فـــي الدولة، وخبراتهم التي لا يمكن الاستغناء عنها، لعدم توفر البديل من

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٧٤ .

(٢) هـــو أبـــو طالب علي بن علي بن هبة الله البخاري، ولي قضاء القضاة مرتين، الأولى سنة ٥٨٢هـــ، ثـــم نـــاب في الوزارة حتى عزل، والثانية سنة ٥٨٩م، وتوفى سنة ٥٩٣ هـــ. الذهبي، مختصر، ج٣، ص٣٠٧.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٧٤.

(٤) المصدر نفسه والصفحة .

(٥) المصدر نفسه والصفحة .

المسلمين. لأن هناك من الشواهد ما يدل على أن أهل الذمة استمروا في تأدية دور مهـم في خدمة الديوان[1]، فابن الساعي يذكر في حوادث سنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م) وفاة أبو غالب أبي طاهر بن شبر اليهودي أنه كان عامل دار الضرب، وهذا يعني أنه عاد إلى الخدمة في الديوان بعد قرار الناصر لدين الله[2].

أمـا الوضـع الاجتماعي الذي تمتع به أهل الذمة، وما لهم من الحرية والجاه والترقي على حساب المسلمين. أشار إليه ابن فضلان في رسالته إلى الناصر بقوله: "هـذا مـع مـا لهم من الحرية الزائدة والجاه القاطع والترقي على رقاب خواص المسـلمين، وقـد شاهد العبد وغيره من الفقهاء الحاضرين في المخزن لتناول البر المتقـبل: أن ابـن الحاجب قيصر أقام ابن محرز الفقيه من طرف موضع كان به وأقعد ابن زطينا كاتب المخزن لمكان خدمتـه"[3].

ولعـل المكانة العالية التي حظي بها أهل الذمة هي التي أثارت حنق الفقهاء، فـنجد إصـرار ابن فضلان على عدم المساواة بين المسلمين وأهل الذمة بإيراد ما روى عـن علي -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: "أمرنا أن لا نساويهم في المجلس، ولا نشيع جنائزهم، ولا نعود مرضاهم، ولا نبدأهم بالسلام"[4].

وأمـا ملابـس أهل الذمة، فقد فرض عليهم منذ العصر العباسي الأول لباس خاص حتى يتميزوا به عن المسلمين. وكان الخليفة الرشيد أول من ألزمهم ذلك سنة (١٩١هـ[5]/ ٨٠٦ م). ويظهر أن الخلافة في الفترات التالية وحتى نهاية العصر

---

(١) Rashad ,op .cit , p١٥٦

(٢) الجامع المختصر، ج٩، ص١٦٦.

(٣) مجهول، الحوادث، ص٦٥ .

(٤) المصدر نفسه، ص٦٩.

(٥) أبو يوسف، الخراج، ص٢٧٩ -٨٠.

العباسي لم تتمسك كثيراً بملاحقة أهل الذمة الذين كانوا يستطيعون تحقيق أغراضهم ببذل المال للتخلص من هذه القيود التي أشار إليها ابن فضلان في كتابه الذي رفعه إلى الخليفة الناصر لدين الله[١].

لنعد إلى ابن فضلان وموقف الخليفة من كتابه. ويعود عدم تجاوب الخليفة مع مطالب ابن فضلان لسببين: أولهما أن النصارى والأطباء منهم بخاصة (مثل أمين الدولـــة الذي بقي طبيب الخليفة إلى سنة (٦٢٠هـــ/١٢٢٣م) كانوا يتمتعون بنفوذ كـــافٍ ليحولوا دون إصغاء الخليفة إلى مقالة ابن فضلان. وثانيهما أن الأمر لم يعد يســـتحق الاهتمام، لأن عدد النصارى قد أضحى ضئيلاً، وان كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية مرموقة[٢].

خضـــع أهل الذمة في تنظيمهم الاجتماعي والديني لسلطة رؤسائهم من رجال الـــدين البطريـــرك والجاثليق[٣] عند النصارى، ورأس الجالوت[٤] عند اليهود. أما طـــريقة وصـــول هـــؤلاء الرؤساء إلى مناصبهم داخل طوائفهم، فأن اليهود كانوا يتوارثون الرياسة، فيما لجأ النصارى إلى انتخاب بطاركتهم[٥].

كان للنصارى رئيسان يعين كل منهما بعهد خاص صادر عن الخليفة أحدهما الجاثليق، وكانت المدائن مركز كرسيه الرسمي، والثاني بطريق اليعاقبة. وكان يتم انتخاب الجاثليق عن طريق النساطرة الذين ينتخبون من بين عدة مرشحين، يشارك

(١) القزاز، الحياة السياسية، ص١٨٤٠.

(٢) فييه، أحوال النصارى، ص٣٦٤.

(٣) الجاثليق يعرفه القلقشندي بأنه صاحب الصلاة عند النصارى. صبح الأعشى، ج٥، ص٤٤٤.

(٤) هـــو رئيس اليهود، والجالوت هم الذين جلوا عن أوطانهم ببيت المقدس. الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٢٤.

(٥) متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٧٨؛ إسماعيل، الحياة الاجتماعية، ص١٤٨.

في الانتخاب رؤساء الوحدات الدينية في الأقاليم ووجوه الطائفة(١).

أمـــا مراســـيم تعيين جاثليق النصارى، فكانت تجرى من قبل المطارنة، حيث يعقـــدون اجـــتماعاً للتشـــاور في من يتولى الجثليقة(٢). وبعد الإجماع على شخص يكتـــبون خطـــوطهم بالمـــوافقة على سجل خاص يسمونه الشلموت(٣). بعد أن يتم الاتفـــاق، يخـــرج مـــوكب الأساقفة إلى ديوان دار الخلافة، ويتم تنصيب الشخص المخـــتار بمرســـوم خلافـــي. عند ذلك يعود الموكب إلى كنيسة درب دينار بسوق الثلاثاء، حيث يقرأ عهده، ثم تقام الصلوات وتقرأ فصول من الإنجيل(٤).

من أشهر من تولى منصب الجاثليق للنصارى، إيليا الثالث أبو حليم، وبقي في منصبه الذي تولاه سنة (٥٧٢ هـ/١١٧٦م) مدة أربع عشر سنة حتى سنة (٥٨٦ هـــ(٥)/١١٩٠م). وبعد ثلاثة أشهر تولى المنصب جاثليق النصارى يابلاها بن قيَّو الموصلي(٦)، وبعد موته ، اجتمع أساقفة المشرق من السريان وطلب كل واحد منهم الرياسة لنفسه، ولكن أخيراً انتخب سبريشوع بن قيوّما(٧). وآخر من وردنـــا من أسماء جاثليق النصارى أبـــو الفضل بن أبي الخير المسيحي (ت٦٥٣هـــ(٨)/ ١٢٥٥م).

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) ماري، أخبار فطاركة كرسي المشرق، ص٨٦

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٧ .

(٤) المصدر نفسه، ص١١١، ص١٥٤؛ الذهبي، تاريخ، ط٦٣، ص٧٤ .

(٥) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤١؛ فييه، أحوال النصارى، ص٣٥٩ .

(٦) فييه، أحوال النصارى، ص٣٥٩.

(٧) المرجع نفسه ،ص٣٦٢.

(٨) مجهول، الحوادث، ص٣٠٠.

أمـــا زعـــيم الطائفـــة الـــيهودية، فقد زودنا الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي بمعلومات وافية عن تعينه. يشترط في رأس الجالوت أن يكون من نسل داود -عليه السلام- ويسميه المسلمون "ابن سيدنا داود"، لأن في يده وثيقة تثبت نسبه، وعادة ما يكون من المتقنين للعلوم والآداب[١]. يكون تعيينه بمرسوم صادر عن الخليفة. أورد ابـــن الساعي وثيقة تمثل مرسوماً تعيين الخليفة الناصر لدين الله لدانيال بن العازر بن هبة الله رأس مشيئة لليهود "ولما ضرع دانيال بن إلعازر بن هبة الله في ترتيبه رأس مشيئة اليهود عوضاً عن إلعازر بن هلال بن فهد الدارج على قاعدته وجاري عادتـــه، وأنهى ما يتحلى به عند أهل نحلته، ويتصف به واستحقاقه، لما ضرع فيه بحســـن طريقته فيهم وسلامة مذهبه... ترتيبه رأس مشيئة اليهود على عادة الدارج المشار إليه"[٢].

أما صلاحياته، فأن نفوذه يسري على جميع طوائف اليهود في العراق، وبلاد خراسان، وسبأ اليمن، وبلاد ما بين النهرين وجميع اليهود في العالم الإسلامي. كما يختار للجاليات في المدن المختلفة قضاتها بعد أن يأتوا إلى بغداد[٣].

كانت العادة أن يجري احتفالاً كبيراً بمناسبة تعيين رأس الجالوت، فبعد صدور قرار التعيين، يسير رأس الجالوت الجديد إلى قصر الخليفة ومعه الأمراء والأعيان مـــن أبناء طائفته، حاملاً معه الهدايا للخليفة، وعند وصوله يمثل بين يدي الخليفة، فيســـلمه عهـــده، ثـــم يضع يده على رأسه، وبعد ذلك يعود بموكبه الخاص وحوله الجماهير من أبناء ملته إلى بيته باحتفال كبير تصحبه البوقات والطبول[٤].

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٢٢٤.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٦٨.

(٣) مجهول، الحوادث، ص٢١٨ .

(٤) التطيلي، الرحلة، ص١٣٨.

تقتضـــي التقاليد المرعية بين اليهود والمسلمين بالنهوض أمام رأس الجالوت عند مروره بهم، ومن خالف ذلك عوقب بالضرب[١].

ولكن في فترة لاحقة حدث تطور حول تنصيب رأس الجالوت، حيث صارت مراسيم التعيين تتم عند قاضي القضاة، فبعد مشافهة الوزير لرأس الجالوت بالولاية، يذهب إلى قاضي القضاة يسلمه مرسوم تعيينه. فعندما عين عالي بن زفريا اليهودي رأس مشيئة اليهود سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) سار إلى قاضي القضاة، فأجلسه بين يديه وقال له: "قد وليتك الزعامة على أهل شريعتك"[٢].

من أشهر من تولى منصب رأس الجالوت أبو طاهر بن شبر (ت٦٠١ هـ[٣]/ ١٢٠٤م)، وإلعازر بن هلال بن فهد[٤]، ودانيال بن إلعازر بن هبة الله (ت٦٠٥ هـ[٥]/١٢٠٨م) ودانيال بن شمويل بن أبي الربيع[٦]، وعالي بن زفريا الإربلي سنة (٦٤٨هـ[٧]/١٢٥٠م).

ولمـــا دخل المغول بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨) قتلوا الرجال والنساء، ماعدا النصـــارى فانـــه قـــد عُـــين لهم جند لحراسة بيوتهم، والتجأ إليهم خلق كثير من المسلمين، فسلموا عندهم[٨].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣٧ .

(٢) مجهول، الحوادث، ص٣٤٨؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٧٥ .

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ج٩، ص٢٦٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٩، ص٢٦٦.

(٦) مجهول، الحوادث، ص٢١٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٤٨؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٧٥ .

(٨) الغساني، العسجد المسبوك، ص ٥٧٥.

كانـــت أمـــاكن عبادة أهل الذمة منتشرة في مدن بغداد والعراق، ومن أشهر أديــرة[١] النصـــارى في بغداد دير العذارى[٢]، ودير الثعالب[٣]، ودير أشموني[٤]، وكانت كنيسة درب دينار أشهرها خاصة أنها كانت مقر الجاثليق، وفيها يقرأ عهده عند توليتـــه المنصب[٥].

أمـــا اليهود فلهم في بغداد في الحقبة موضوع الدراسة ثمانية وعشرين كنيساً، قسم في الرصافة (الجانب الشرقي)، وقسم في الكرخ (الجانب الغربي) على شاطئ دجلـــة. وقـــد وصف التطيلي كنيسة اليهود في بغداد بقوله[٦]: "وهي بناء عظيم فيه الأســـاطين الـــرخام المنقوشـــة بالأصباغ الزاهية المزوقة بالفضة والذهب وتزدان رؤوس الأســـاطين بكـــتابات من المزامير بحروف من ذهب، وفي صدر الكنيسة مصـــطبة يصـــعد إليها بعشر درجات من رخام، وفوقها الأريكة المخصصة لرأس الجالوت".

والصـــابئـــــة باعتبارهم أهل ذمة، لم يعد لهم دوراً في المجتمع البغدادي في هـــذه الفترة، فلم نجد أي إشارة لهم باستثناء ما أورده صاحب الحوادث في الكتاب الـــذي رفعـــه ابـــن فضلان إلى الخليفة الناصر بقوله[٧]: "والصابئة قوم من عبدت

---

(١) الديـــر: بيت يتعبد فيه الرهبان، يكون في الصحارى والمواضع المنقطعة عن الناس. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٩؛ ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج٢، ص٥٤٩ .

(٢) وسمي بذلك لأنه تسكنه الرواهب العذارى، وكانت كلما وهبت أمراه نفسها للتعبد سكنة الدير معهن. الحميري، الروض المعطار، ص٢٥٢.

(٣) بينه وبين بغداد نحو ميلان. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٥٥٥ .

(٤) بني على اسم امرأة تدعى أشموني. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٥٥٢.

(٥) الذهبي، تاريخ، ط٦٣، ص٧٤ .

(٦) التطيلي، الرحلة، ص١٣٩.

(٧) المصدر نفسه والصفحة .

الكـــواكب يسكنون في البلاد الواسطية لا ذمة لهم، وكان في قديم الزمان لهم ذمة، فاســتفتى القاهـــر بالله أبا سيد الإصطخري من أصحاب الشافعي في حقهم، فأفتاه بإراقـــة دمـــائهم، وأن لا تقبل منهم الجزية، فلما سمعوا بذلوا خمسين ألف دينار، فأمســك عــنهم، وهـــم الـــيوم لا جزية عليهم ولا يؤخذ منهم شيء، وهمّ في حكم المسلمين والأمر أعلى".

ب – فئات المجتمع من ناحية المكانة الاجتماعية

إذا انتقلـــنا للحديث عن فئات المجتمع البغدادي من حيث المكانة الاجتماعية، فإننا سنجد أن المجتمع انقسم إلى فئتين:

١ – فئة الخاصة

كان الخلفاء يمثلون قمة الهرم الاجتماعي. وقد حكم في هذه الفترة (٥٧٥ – ٦٥٦هـــ/١١٧٩-١٢٥٨م) أربعة من الخلفاء هم: الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢ هـــ/١١٧٩-١٢٢٥م) والظاهـــر بأمـــر الله (٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م) والمستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م) والمستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦ هـــ/١٢٤٢-١٢٥٨م). ونســتطيع أن نقســم خلفاء هذه الفترة إلى قسمين: الأول وكانـــوا خلفـــاء أقوياء حاولوا إعادة أمجاد الخلافة، فاهتموا بأمور دولتهم، واتبعوا مخـــتلف الوســـائل لتحقيق هذه الغاية، وأما القسم الثاني فكان الخليفة ضعيفاً، إهتم بملذاته وشهواته أكثر من اهتمامه بالدولة والجيش.

وشـــمل القســـم الأول الخلفاء: الناصر لدين الله، والظاهر، والمستنصر. فكان الناصـــر "بصيرا بالأمور مجربا مهيبا مقداما عارفا شجاعا... أحب مباشرة أحوال الرعية بنفسه، حتى كان يتمشى في الليل في دروب بغداد ليعرف أخبار الرعية وما

يـــدور بينهم، وكان كل واحد من أرباب المناصب والرعايا يخافه و يحاذره"[1] أما الظاهـــر -فرغم قصر فترة حكمه التي لم تتعدى السنة- فأنه كان موصوفاً بالقوة والعدل[2]. وقد بالغ المؤرخون في وصف المستنصر حتى قيل: "ولو قيل أنه لم يكن في خلفاء بني العباس مثله لصدق القائل[3] ".

فخلفاء هذه الفترة باشروا الأمور بأنفسهم، ولم يعتمدوا على الحاشية، إلا في الحالات التي لا تتطلب تدخلهم، فاستعادوا بذلك السيطرة على معظم العراق وبعض الأقاليم المجاورة. إضافة إلى اكتساب الاحترام والولاء من قبل ملوك الأطراف. لكن هذه السياسة تلقت ضربة قاصمة بتولي الحكم الخليفة المستعصم بالله -وهو الذي نقصده بخلفاء الفترة الثانية- فلولا تدخل حاشية القصر باختيار، فانه لم يتول الخلافة، فقد كان للخليفة المستنصر بالله أخاً يدعى "الخفاجي" كان شهماً قوياً كان يقول: "أن ملّكني الله الأمر الأعبرن بالجيوش نهر جيحون وانتزع البلاد من التتار وأستأصلهم" فلما توفـــي المستنصر لم ير الدويدار الكبير وإقبال الشرابي وكبار الأمراء تقليد الخفاجي الأمر، خوفاً منه، وآثروا المستعصم للينه وانقياده لهم. فاستُدعي المستعصم سراً من مسكنه وبايعوه بالخلافة[4].

لم يكن المستعصم بمستوى المسؤولية والظروف التي كانت بحاجة إلى خليفة قوي يباشر الأمر بنفسه، بدلاً من الاعتماد كلياً على الحاشية والموظفين، فقد كان "مستضعف الرأي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعاً فيه، غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور، وكان زمانه ينقضي أكثره بسماع

---

(١) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٣٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ص٢٨٤.

(٣) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٣٠.

(٤) السيوطي، تاريخ، ص٤٦٤-٥.

الأغاني والتفرج على المساخرة، وفي بعض الأوقات كان يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة، وكان أصحابه مستولين عليه"[١]. ويزيد الإربلي "ثم وكل أموره إلى غير الأكفاء، وأهمل ما يجب عليه حفظه والنظر فيه"[٢].

وفي عهد الخليفة المستعصم بالله سقطت الخلافة العباسية على يد المغول "وكان كلما سمع عن هولاكو من الاحتياط والاستعداد شيء، ظهر من الخليفة نقيضه من التفريط والإهمال"[٣]. ورغم ما يتحمله الخليفة من المسؤولية عن سقوط الخلافة، إلا أننا يجب ألا نحمله كل المسؤولية، فيتحملها معه الوزير والحاشية وكافة أهل العراق والعالم الإسلامي.

كانت مصاريف قصر الخليفة تأتي من المخزن[٤]. ذكر الغساني نفقات القصر وحاشيته من النواب والكتاب والحجاب والمماليك والخدم والبوابين وغيرهم من موظفي القصر إلى آخر أيام الظاهر وطيلة حكم الناصر من قبله، فبلغت ستين ألف دينار، وبلغت في أول خلافة المستنصر مائتي ألف دينار[٥].

---

(١) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٣٣.

(٢) خلاصة الذهب، ص٢٩١.

(٣) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٣٥ .

(٤) كان المخزن في الأصل تابعاً لديوان بيت المال، وهو يتكون من عدة خزائن تضم جميع دخل الحكومة، مثل خزانة الملابس، وخزانة النقود وخزانة الحبوب، وأخرى للسلاح، وكان يجري الموازنة الشهرية والسنوية لتلك الأحوال التي يريدها الخوارزمي ، مفاتيح العلوم، ص٤١؛

فهد، تاريخ العراق، ص٢٨٥.

(٥) العسجد المسبوك، ص٤٢١.

أما بالنسبة لمداخيل وثروات هؤلاء الخلفاء فقد كانت كبيرة، لما كانوا يتمتعون بـه مـن الأملاك والإقطاعيات ، يدير تلك الأموال وكلاء خاصون(1)، وكانت لهم أيضاً خزانات خاصة، فقد قيل أن الناصر لدين الله كان يحب المال حتى بلغت عنده مـبلغا عظيما بحيث ملأ منها بركة كبيرة وكان يأمل أن تفيض فمات قبل أن يحقق الأمنية، وقد ورث الخليفة المستنصر هذا المال فتأمله وقال: "ترى هل أعيش حتى أفنـيها وكذلك فعل"(2). وفي سنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م) حدث حريق بدار السلام من دار الخلافة فكان نتيجة ما احترق أكثر من ثلاثة ألف ألف دينار(3). وحدث مثل هذا الحريق سنة (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م) في دار الخلافة فاستخرج بعد الحريق من الأواني والذهب والفضة ما يزيد على مائتي ألف دينار(4).

كـان الخلفاء يميلون إلى الإكثار من الخلع والهدايا وخاصة بالمناسبات الدينية كحلـول شـهر رمضان أو عيدي الفطر والأضحى، حيث تخرج الخلع إلى كبار رجـال الدولـة وموظفي القصر. فقد جاء في سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) إن الخليفة المستنصر خلع على نائب الوزارة أبي الأزهر أحمد بن الناقد وعلى مماليكه وعلى كافـة الأمراء، وسائر أرباب الدولة حتى عمت الخلع خلقاً كثيراً يزيدون على ألف وثلاثمائة إنسان(5). وجاء في أحداث سنة (٦٤٠هـ) أنه وزعت الخلع من المخزن علـى الحاشـية وخدم دار الخلافة وغيرهم مما جرت العادة بالخلع عليهم في هذه

---

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٦٧، ص٢٨٩.

(٢) ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٢٦٠؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق ٢، ص٥٢٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٤٥. الذهبي، سير، ج٢٢، ص٢٢٣.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٩٤.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٩٢.

المناسبة، فبلغت ثلاثة آلاف وأربعمائة ونيفاً وعشرين خلعة[1]. وفي عام (٦٥٢ هـ/١٢٥٤م) فرقت الخلع على أربابها من الحاشية والخدم والفراشين وكانت ثمانمائة وستين قطعة[2].

لم تقتصر الخلع لأسباب دينية، بل نجد أن الخلع كانت تعم إذا ما حلّ فرح في دار الخلافة كقدوم مولود جديد أو حفلة ختان أو ختمة لأحد أبناء الخلفاء، فلما ختن الأمير أبو المناقب ابن الخليفة المستعصم سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، ختن معه جماعة من أولاد الأمراء وهم الأمير أبو جعفر منصور ابن الأمير السيد أبي القاسم عبد العزيز بن المستنصر بالله، وكشلوخان ابن الأمير الدويدار الصغير أيبك المستنصري، والأميران عبد الله وإسحاق ابنا الدويدار الكبير الطبيرسي الظاهري، وزنكي ابن الأمير محمد بن قيران وأرسل مع ابن أخ الخليفة صندوقاً من فاخر الثياب والزركش ما قيمته ثلاثة آلاف دينار، وسبعة أكياس فيها سبعة آلاف دينار، وأرسل مع ولد الدويدار الصغير صندوق فيه ستة آلاف دينار، وما قيمته ألف دينار، ثم مع ولدي الدويدار الكبير كذلك، ثم مع ولدي ابن قيوان صندوق فيه ألف دينار، ثم خلع على الطبيب الذي تولى ختن هؤلاء الأولاد وعلى بواب دار التشريفات وعلى وكيل الخليفة، وعمت الخلع خلقاً كثيراً[3].

لم يكن للأمراء من أفراد العائلة العباسية(عائلة الخليفة) أي نشاط سياسي في هذه الفترة. ولعل السبب في ذلك يعود إلى السياسة التي اتبعها الخلفاء والقائمة على منعهم من الاختلاط بالمجتمع والخروج من دار الخلافة "لأن جميع العباسيين في

---

(١) المصدر نفسه، ص٥١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٠٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٨٦.

تلك الديار معتقلون اعتقالا جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون"[1] وكان هؤلاء الأمراء يقـيمون بدار الصخرة ودار الفردوس ودار الشجرة من دور دار الخلافة[2]. أشار إلـى ذلـك الغساني عند الحديث عن غرق بغداد سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) قائلاً[3]: "وانتقل الساكنون بدار الصخرة من أولاد الخلفاء وكذلك ساكنو الفردوس من أعمام الخليفة، وكذلك سكان دار الشجرة ".

ولمـا ولـي المستعصم بالله الخلافة أطلق أولاده الثلاثة، ولم يحبسهم، كعادة الخلفاء من قبله، وهم: الأمير الكبير أبو العباس أحمد، والأمير الأوسط أبو الفضائل عـبد الرحمن، والأمير الأصغر أبو المناقب[4]، إلا أنه أبقى جميع أعمامه وأبنائهم مقيمين في تلك الدور، ولم يسمح لهم بالخروج.

ولم يتعد دور هؤلاء الأمراء في الحياة العامة على المبايعة للخليفة الجديد. فلما ولـي الخلـيفة الناصر لدين الله الحكم سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م) كان أول من بايعه البـيعة الخاصـة أخيه أبا منصور هاشم، ثم بايعه كبار رجال الدولة[5]. ولما تولى المستعصـم بـالله الخلافة سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) أحضر أحد أعمامه ويدعى أبو الفـتوح حبيب، وأوهم أن جماعة أخوته حضروا وبايعوه، فبايع وعاد إلى داره، ثم طلـب الباقون فامتنعوا، عند ذلك أُغلق باب الفردوس الذي يحتوي على دورهم، لا يدخل عليهم طعام ولا غيره، فبقوا على ذلك ثلاثة أيام، فلما اشتدت بهم الحال طلبوا

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص١٨١.

(٢) دار الشـجرة: هـي جزء من دار الخليفة ببغداد من أبنية المقتدر بالله، سميت بذلك لشجرة كانـت هناك من الذهب والفضة وسط بركة كبيرة مدورة أمام إيوانها مكللة بالجواهر على شكل الثمار. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢ ص٤٢١، القزويني، آثار البلاد، ص٣١٦.

(٣) العسجد المسبوك، ص٦١٦.

(٤) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٣٣.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ص٨، ق٢، ص٣٥٤.

المبايعة، فأحضروا فبايعوا[١].

لم تكن هذه الفئة من الأمراء العباسيين تتمتع بالثروة والمناصب الإدارية، بل كانــوا فقــراء ينتظرون صدقات وهبات الخلفاء، ومن الأدلة على حكمنا هذا تلك الــروايــات التي تشير إلـــى أن بعض الخلفاء قد قــدم لهم المساعدات المالية ففي سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) أمر الخليفة المستنصر بالله بأن توزع ثمانية آلاف دينار علـــى الفقــراء، خصص منها ألف دينار للأشراف المقيمين بدار الشجرة من دار الخلــيفة[٢]. وفـــي سنة (٦٤١هــ /١٢٤٣م) أمر الخليفة المستعصم بأن يحمل إلى أعمامه وأولاد الظاهر بأمر الله وإلى أخيه عبد العزيز عشرون ألف دينار[٣].

ولكـــن هناك فئة من عائلة الخلفاء كان لها دور في الحياة السياسية والحياة العامـــة، **ونقصـــد بهـــا نســـاء الخلفـــاء وأمهاتهم**، فكن يتمتعن بنوع من الحرية والاتصال بالعامة، فأنشأن المرافق العامة لخدمة المجتمع. ومن تلك النساء، السيدة بنفشـــه زوجـــة الخلـــيفة المستضيء بأمر الله. ولعل ذكرها في المصادر عائد إلى دورهـــا فـــي الخطـــبة بـــولاية العهـــد للإمام الناصر لدين الله، فقد أشارت على المستضـــيء بالخطـــبة له بعد أن فكر وبدعم من حاشية بالبيعة لابنه أبي منصور هاشم[٤]، وقد حفظ الخليفة الناصر هذا الجميل، فلما تولى الخلافة أنزلها في الـــدار التي كـــانت تقيم بها والدتـــه السيدة زمرد خاتون[٥]، ولما توفيت السيدة بنفشة سنة

---

(١) ابن العبري، مختصر، ص٢٥٤؛ الإربلي، خلاصة الذهب، ص ٢٩٠ – ١ .

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ص ٤٧١ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٥١٦ .

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٣٥٤.

(٥) أبو شامه، الذيل، ص ٢٩.

(٥٩٨هـ/١١٨٣م) تـولت أمرها والدة الخليفة الناصر وجهزتها أحسن جهاز[١]. وهذه السيدة لم تلد للمستضيء ولداً، وانصرفت إلى أعمال الخير، وكان لها خدمات جلـيلة للمجتمع[٢] ببغداد وخارجها، فقد جعلت دارها بأسفل البلد على شاطئ دجله مدرسة وقفتها على الحنابلة، وجعلت لها الوقوف الكثيرة، كما أنها بنت قنطرة على نهر عيسى، وعقدت جسراً على دجلة[٣].

أما السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء وأم الخليفة الناصر لدين الله – صاحبة القبة الفخمة و التربة القائمة بجوار تربة الشيخ معروف الكرخي بالجانب الغربي من بغداد– كانت في الأصل مملوكة تركية، ثم ولدت السيدة أولاداً، فاعتقها إكـراما لهـا. وقد عاشت زمرد خاتون في خلافة زوجها، وقضت من خلافة ابنها أربعا وعشرين سنة، أنشأت رباطا في محلة المأمونية سنة (٥٧٩هـ[٤] /١١٨٣م)، كما أنشأت مدرسة عرفت باسمها[٥] . وكان لها مبرات وأوقاف وإحسان كثير للعباد والزهاد والفقراء[٦]. وكانت السيدة باب بشير[٧] ذات بر، وقفت المدرسة البشيرية،

---

(١) المصدر نفسه والصفحة .

(٢) حول الأعمال التي أنشأتها هذه الفئة من النساء انظر الفصل الرابع .

(٣) ابن الساعي، نساء الخلفاء ، ص١١١ -٢ .

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص٥٠٣ .

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٣٤٤.

(٦) جـواد، سـيدات الـبلاط العباسي، ص ١٧٤؛ جواد، "المعاهد الخيرية النسوية، في التراث العربي، ج١، ص ١٢٩.

(٧) هي عتيقة الخليفة المستعصم وزوجته وأم ولده أبي نصر، توفيت سنة ٦٥٢هـ وسميت بباب بشـير نسـبة إلى الخادم الذي كان يقف ببابها واسمه بشير. الغساني، العسجد المسبوك، ص ٦١٨؛ جواد، المعاهد الخيرية، ج١، ص ١٣٢.

ووقفت دار للقران أيضاً، ورباطا للنساء المتصوفات[1].

امتلكت هذه الفئة من النساء الثروة والأملاك الواسعة، فالسيدة بنفشة تُخرج في كل عام زكاة الفطر صاعا من الذهب. فكانت تخرج صاعا من تمر ثم تقول: " هذا ما فرضه الشرع علي، وأنا لا أقتنع أن مثلي لهذا، فتخرج صاعا من الذهب العين، وتأمـــر بتفـــريقه على الفقراء[2]"، كما أنشأ لها الخليفة المستضيء بأمر الله دارا لم يكن ببغداد مثلها[3].

أما السيدة زمرد خاتون فقد أنفقت عندما حجت ثلاثمائة ألف دينار، وكان معها نحو ألفي جمل تصدقت بها على أهل الحرمين[4].

وكانت السيدة شاهان حظية المستنصر بالله (ت ٦٥١هـــ/١٢٥٣) لها المنزلة الرفيعة والمقام الذي لا يصل إليه غيرها، وكان لها باب وديوان ووكلاء، وحكمت في الديوان وأقطعت القرى وملكت العقارات[5].

يظهر لنا إن جميع نساء الخلفاء في هذه الفترة كن من الجواري والإماء، وقد جرت العادة كما كان في الفترات السابقة من التاريخ العباسي، أنه إذا ولدت إحداهن للخلـــيفة ولدا أو بنتا حررها من العبودية، وعقد عليها عقد الزواج، فتكون زوجته، تتمتع بكل الامتيازات التي تتمتع بها النساء الحرائر.

وشكل كبار الأمراء المماليك فئة مهمة من فئات الخاصة. وكان أغلب هؤلاء الأمـــراء المماليك من الأتراك، وقد كونوا في أواخر الدولة العباسية فئة عسكرية،

---

(١) مجهول، الحوادث، ص ٢٧٥، الغساني، العسجد المسبوك، ص ٦٠٨ .

(٢) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١١٤ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٢ – ٣ .

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق٢، ص٥١٣.

(٥) الغساني، العسجد المسبوك، ص ٥٩٩.

وكــان لكل منهم مماليك خاصين به. وهكذا كان التدرج في رتب هؤلاء المماليك، فهم ما بين غلام أي مجرد جندي بسيط، وأمير هو عادة من كبار المماليك.

قــام هؤلاء الأمراء بأعمال مختلفة تدل عليها ألقابهم. وعادة ما كانوا مقربين إلــى الخلفــاء ومختصين بخدمتهم[١]، فمنهم من عمل شرابي للخلفاء، وعمله تقديم أنواع الأشربة المعمولة من السكر أو الفواكه، والاهتمام بها وتقديمها بأواني خاصة قد تكون من البلور أو الذهب الصيني الفاخر[٢].

وأشهر من تولى هذه المهمة الأمير نجم الدولة أبو اليمن نجاح الشرابي، كان فــي الــبداية يخدم الخليفة الناصر وهو صغير، ومن شدة إخلاصه لمخدومه، أنه عــندما ســقط الناصر من على سطح كان يلعب عليه، رمى نجاح الشرابي نفسه وراءه، فسئل عن ذلك، فقال: "ما كنت أُوثر الحياة بعده"، فلما ولى الناصر الخلافة قــربه منه[٣]، حتى سمي"سليمان دار الخلافة". وكان ملازما للناصر لا يغيب عنه ساعة[٤]، فجعله الناصر بعد ذلك مقدم الجيوش العباسية[٥].

ولمــا توفي نجاح الشرابي حزن عليه الخليفة، وأمر أن لا يتخلف عن جنازته أحد، فصلى عليه الخليفة الناصر بنفسه تحت التاج[٦]، وكان بين يدي التابوت مائة بقــرة وألف شاه، ومائة قوصرة تمر، ومائة حمَّال على رؤوسهم الخبز، وعشرون

---

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ص ٥٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(٣) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٣٧٤.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٤، ق٢، ص٦٠٠.

(٥) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٣٧٤.

(٦) التاج: اسم لدار من دور الخلافة، وكان أول من أسسها وسماها بهذا الاسم الخليفة المعتضد، وتكامل بنائها في عهد الخليفة المكتفي. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥ ، ص٧١.

على رؤوسهم ماء الورد، وتصدق عنه الخليفة بعشرة آلاف دينار، وأعتق مماليكه، ثم دفن في تربة أم الخليفة الناصر لدين الله(١).

وكـان شرف الدين إقبال شرابي للخليفة المستنصر بالله. كان في بداية حياته مملـوكاً لـنجاح الشرابي، ثم انتقل إلى زوجته بعد وفاته، فلما أفضت الخلافة إلى الظاهر بأمر الله، حملته إليه فقبله، وأرسله إلى ولده المستنصر، فلما تولى الخلافة، قـربه وجعله شرابي له، ولما صارت الخلافة للمستعصم بالله زادت منزلته. وكان المستنصر قد أمره على جيوشه وعساكره(٢).

بـذل شرف الدين الشرابي جهودا كبيرة في البيعة للخليفة المستعصم بالله، فقد توفي الخليفة المستنصر ولم يعهد لأحد من بعده، فاستدعى الشرابي المستعصم من مسكنه سرا من باب يفضي إلى غرفة في ظهر داره، فسلم عليه بالخلافة، وأجلسه على السدة بعد أن شاهد والده مسجى، وكتم خوفه ولم يعلم به إلا بعض الخدم(٣).

ويـوم وفـاة إقبال الشرابي سنة (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م) كان الخليفة في طريقه لـزيارة مشهد الإمام علي بن أبي طالب- رض- فلما علم بذلك عاد إلى بغداد(٤). وقد قيل بعد وفاته"أنه قد اختلت الأحوال بعده"(٥).

ومن المماليك الذين كان لهم الحظوة عند الخلفاء الأمير علاء الدين الطبيرسي الظاهـري، الـذي اشـتراه الظاهر بأمر الله وقدمه وأدناه منه، فأرتفع قدره وشاع

---

(١) سـبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٦٠٠؛ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٣٧٤، الغساني، العسجد المسبوك، ص ٣٦٤.

(٢) مجهول، الحوادث، ص٣٠٩؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٢١.

(٣) مجهول، الحوادث، ص١٥٨؛ معروف، حياة إقبال، ص٣٨.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ص ٦١١.

(٥) مجهول، الحوادث، ص ٣٠٩.

ذكـــره، وزوجه بابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان العقد في دار الوزارة بحضـــور قاضـــي القضاة على صداق مقداره عشرون ألف دينار، وقد وهب له المستنصـــر بالله ليلة زفافه مائة ألف دينار، وكانت تدر عليه في السنة مائتي ألف. وكـــان كـــريما جـــوادا خلع على مماليكه وخدمه في عيد رمضان سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ألف وسبعمائة خلعة[١]، فلما توفي سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) رثاه الشعراء، ومنهم عز الدين أبي محمد بن عبد الحميد بن أبي الحديد بقوله:

بأبي علاء الدين فاضت نفسه ... لم تغنه الأنصار والأعوان
متجشع للموت قد غـــدرت به ... أيامـــه وزمانـــه الخـــوان
ذهب طـــلاوة وجـــهه فكأنـــه ... تـــرب وكان كأنه عقيان[٢]

كـــان منصـــب مقدم الجيش أو قائد الجيش من المناصب التي أسندت لهؤلاء الأمـــراء المماليك، فتولاه الأمير خالص الخادم. وكان الخليفة الناصر قد رعاه لأنه خدمـــه أيـــام إمارتـــه[٣]. رآه ابن جبير عندما زار بغداد سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) فوصـــفه قـــائلا[٤]: "ورونـــق هذا الملك - يقصد الخليفة الناصر- إنما هو الفتيان والأحباش والمجابيب، فمنهم فتى اسمه خالص، وهو قائد العسكرية، كلها أبصرناه خارجـــا أحـــد الأيام وبين يديه وخلفه الأمراء والأجناد من الأتراك والديلم، وحوله خمسين سيفا مسلولة ".

---

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٩١.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص ٧٩.

(٤) الرحلة، ص ١٨٢

وتولـــى الأمير مجاهد الدين أيبك المستنصري قيادة الجيش في عهد كل من الخليفة: المستنصر والمستعصم[١].

كمـــا أسندت إليهم بعض الأعمال الشريفة مثل إمرة الحج، وقد تكرر انتدابهم لهـــذا العمل في سنوات متتالية، بعد أن كان أمير الحج في العهود العباسية الأولى يُختار من الأمراء العباسيين، ثم من البارزين من العلويين[٢].

وشاركوا في الاحتفالات والخروج بالمواكب الرسمية في المناسبات والأعياد، فكانـــت مواكبهم تسبق موكب الخليفة استعداداً لاستقباله، حيث يكون خروجهم من وقت السحر. ففي عيد رمضان سنة (٦٤٤هـــ/١٢٤٦م) كان أول من خرج الأمير مجاهد الدين أيبك المستنصري، ركب من داره وقت السحر في الأضواء والشموع، ثم تلاه الأمير علاء الدين الطيبرسي، ثم سارت العساكر بعدهم إلى أن خرج موكب الخليفة في الأضواء إلى المصلى[٣].

كانت تظهر معالم الأبهة والمفاخرة على تلك المواكب، حيث الخيول العربية، والسروج الذهبية والمماليك. ونلاحظ ذلك في موكب عيد رمضان سنة (٦٤٥هـــ/١٢٤٧م) فقـــد خرج العسكر ومقدمه مجاهد الدين ايبك المستنصري، وكان ركوبه بعـــد طلـــوع الشـــمس في الأضواء والشموع، وكان بين يديه من الخيول العربية بالســـروج الـــذهب مائتا فرس على يد مائتي مملوك، ثم تبعه الأمير شجاع الدين الطبيرسي الظاهري، وكان بين يديه مثل ذلك، ثم عسكر شرف الدين إقبال الشرابي وفيه من التجمل والكثرة عددا ما يزيد على الجميع، وبعدها كان موكب الخليفة فيه

---

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٥٤.

(٢) فهد، تاريخ العراق، ص٢٦٠.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٤٣.

من المماليك الترك ومماليكهم ما يزيد على خمسة آلاف[١].

كانت رواتب هؤلاء الأمراء من أعلى الرواتب التي تمنح، تزيد على خمسة آلاف دينار سنويا، فكانت معيشة الأمير سلطان شاه عبد الرحمن بن محمود زنكي المعروف بابن صاحب سنجار الذي ورد بغداد شابا في أيام المستنصر، فأكرم مثواه، وجعلت معيشته خمسة آلاف دينار كل سنة[٢].

كما تمتعوا بالثروة الطائلة والواسعة، فالأمير علاء الدين الطبيرسي المعروف بالدويدار[٣] الكبير، أعطاه الخليفة المستنصر بالله يوم زواجه مائة ألف دينار، وأقطعه قوسان[٤]. وكان يحصل له منها أملاك استجدها حدود ثلاثمائة ألف دينار، وبنى دارا بشرق بغداد تشرف على دجلة لم يكن ببغداد مثلها، حتى أن الخليفة المستعصم قد استحسنها فطلبها منه[٥]. وكانت لعبد الغني بن فاخر كبير فراشي دار الخلافة (ت٦٤٨هـ/١٢٥٠م) دار تشبه دور الملوك، ونفقته في الشهر مائة وخمسين ديناراً[٦].

رغم المكانة العالية والقوة التي حصل عليها هؤلاء الأمراء إلا أن هذا لا يعني أنهم كانوا خارجين عن سيطرة الخلفاء، فهم وما يملكون رهن رضاء الخليفة أو

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٩٧،

(٣) الدويدار: عرفها القلقشندي بقوله موضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان (الخليفة)، وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم البريد. صبح الاعشى، ج٤، ص١٩.

(٤) قوسان: كورة كبيرة ونهر عليه مدن وقرى بين النعمانية وواسط . ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤١٣.

(٥) مجهول، الحوادث، ص٢٦٥

(٦) المصدر نفسه، ص٢٥٢؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٨٠

غضـــبه، فأي محاولة للخروج على طاعته كان مصيره القتل أو الحبس ومصادرة أمـــواله، كمـــا حدث للأمير مجير الدين طاشتكين، الذي تولى أمارة الحج أكثر من عشـــرين مرة[١]، وتمتع بالإقطاعيات الواسعة ولكن بعد اتهامه بالتآمر على الخلافة بمراسلته صلاح الدين الأيوبي سرا ودون علم الخليفة، ورغم أنه لم يثبت عليه شيئا مـــن ذلك ، إلا أن الناصر أمر بالقبض عليه، وعزله عن أمارة الحج، وحبسه بدار الخلافة[٢].

لكـــن هذه السيطرة على الأمراء لم تستمر في عهد الخليفة المستعصم فقد كان رجـــلا ضعيفا بعيدا عن الدهاء، ترك أمور دولته إلى حاشيته وأمرائه. في ظل هذا الفـــراغ السياســـي نجد التنافس بين الأمراء لشغله. ومثال ذلك ما حدث بين الأمير مجاهـــد الـــدين أيبك الدويدار الصغير من جهة، والأمير فلك الدين محمد بن علاء الـــدين الطبيرسي الدويدار الكبير، والوزير مؤيد الدين بن العلقمي من جهة أخرى، فقد اتهما الأمير مجاهد الدين بالتآمر على الخليفة، ونقل الخلافة لابنه الأكبر، لكنه أنكـــر ذلـــك وطلـــب مقابلته بمن اتهموه، فخاف مجاهد الدين على نفسه، وجمع عســـاكره، "وباتـــوا تحت السلاح" ورغم إرسال الرسل له من قبل الخليفة من اجل طمأنـــته إلا أنه أصرَّ على الجمع بينه وبين من اتهمه حتى وقعت فتنة عظيمة بين عوام سوق المدرسة النظامية ومشرعة الصباغين بسبب ذلك، فاشتد خوف الناس، ولكن استمر مجاهد الدين على عناده، حتى أن الخليفة أخذ يركب شبارته ويتجاوز بها بجوار دار الأمير وأرسل له مره أخرى الرسل إلا أنه طلب في النهاية أن يكتب

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٤١٥.

(٢) ســـبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٤١٥، أبو شامه، الذيل، ص٥٣، ابن كثير، البداية، ج١٢، ص٢٧٤، الذهبي، تاريخ الإسلام، ط٦٤، ص١١٣.

له أمان، يعلم فيه الناس ويقرأ على الجميع، وتم له ذلك، فعاد إلى طاعة الخليفة(١).

على الرغم من عدم وقوع صدام بين قوات الخليفة وقوات الأمير، إلا أن هذا الأمر كان سببا في أثاره الفتن داخل بغداد والتي قتل بسببها الكثير من الناس، كما أن هـذا يعكـس مدى نفوذ الأمراء وتحديهم لسلطة الخليفة. في الوقت الذي كانت تحـتاج إلـيه هـذه الفتـرة من عمر الخلافة إلى الوحدة والتكاتف والتضامن ضد المغول.

يضـاف إلى فئة الخاصة، الوزراء ونوابهم. لم يعد منصب الوزارة كما كان في العصور السابقة مقصورا على بيوتات معينة كالبرامكة وآل سهل وآل الفرات. بـل أصبحت الثقافة والعلم، إضافة إلى القدرات الإدارية هي العوامل المهمة لأجل الترقـي في وظائف الدولة كالوزارة. فبعضهم بدأ بوظيفة متواضعة كأحد الشهود العـدول(٢)، ثـم ترقى في سلك الوظيفة، فأثبت أهليته فرُقيَّ إلى منصب الوزراء، فجـلال الـدين أبو عبد الله أول وزراء الناصر لدين الله بعد ابن العطار، كان أحد الشـهود العدول، تقلبت به الأحوال حتى صار وزيراً(٣)، وكذلك ابن القصاب، كان أبوه يبيع اللحم على رأس درب البصريين ببغداد(٤).

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٢٩٤-٥.

(٢) الشـهود العـدول: من الوظائف الدينية التابعة للقضاء، و حقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم من حقوق محملا عند الأشهاد وأداء عند التنازع وكتـبا فـي السجلات تحفظ به حقوق الناس و أموالهم . الأنباري، منصب قاضي القضاة، ص٢٨٤.

(٣) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٣، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص٣١٣.

(٤) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٤.

ويتضح أن الوزراء العباسيين في هذه الفترة كانوا على درجه كبيرة من المعرفة والثقافة والاطلاع في الشؤون العلمية والأدبية، إضافة إلى اختصاصهم السياسي والإداري. فالوزير مؤيد الدين ابن القصاب نشأ مشتغلا بالعلم والأدب، وبرع في العلوم والحساب والمساحات[١]، وكذلك الوزير السيد نصير الدين بن ناصر بن مهدي العلوي، اشتغل بالأدب في حياته فحصل منه طرفا، ثم تبصر بأمور الدواوين[٢]. وبرع بعضهم بالشعر وحفظه، ورواية الطرائف من الأخبار كالوزير مؤيد الدين بن القمي[٣]. واشتغل الوزير مؤيد الدين بن أبي طالب بن العلقمي أيضاً بالأدب في صباه وكتب خطا مليحا[٤].

تجلى كما رأينا العلم والثقافة والخبرة في إدارة الدواوين، ثم الاستقامة في السلوك الاجتماعي في اختيار وزراء هذه الفترة. ولعل تقلص مساحة الدولة العباسية وتضاؤل مسؤولياتها، إضافة إلى الهدوء السياسي الداخلي نسبيا، وعدم وجود المؤامرات المستمرة بين الوزراء والقادة العسكريين، كان له تأثير في شروط اختيار الوزراء[٥].

لكن يجب أن نستثني من هذا الحكم فترة خلافة المستعصم، حيث لعب الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي دورا كبير في البيعة للمستعصم، فبعد وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة(٦٤٠هـ/١٢٤٢م) أخفى الحاشية وعلى رأسهم الأمير شرف الدين إقبال الشرابي والوزير ابن العلقمي خبر وفاته، وبايعا المستعصم بالله لليله

---

(١) المصدر نفسه و الصفحة.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٢٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٣٧.

(٥) فهد، تاريخ العراق، ص١٠٥-٦.

بـــدلا من أخ المستنصر[1]، وهكذا تحقق لهم ما أرادوا من تحكم في شؤون الدولة وتصريف أمورها.

كان من رسم الوزير في هذه الفترة أن تكون له داراً مستقلة في دار الخلافة[2] فلما عين الوزيـــر ابن القمي انتقل من داره إلى الدار التي يسكنها الوزراء قبله[3]. كمـــا له الحق في موكب خاص، فقد جرت العادة أن يصحبه قادة الجيوش والقضاة عـــند انتقاله إلى دار الوزارة، فلما ولى ابن يونس الوزارة "مشى أرباب الدولة في ركابه حتى قاضي القضاة"[4].

لـــم تقتصـــر مهـــام الـــوزراء على الشؤون الإدارية، بل شاركوا في الحياة العسكرية وقيادة الجيوش، فابن يونس قاد الجيش إلى همذان سنة (٥٨٤هـــ/١١٨٨ م) لقتال طغرل الثالث، ولما تلاقى الطرفان أنكسر الوزير وأخذ أسيرا، ومكث في الأســـر مـــدة، ثـــم أطلق سراحه، فوصل إلى بغداد متخفيا[5]. كما أنه عندما طلب طغرل الثالث الخطبة له ببغداد، سيَّر الخليفة الناصر وزيره ابن القصاب - بعد أن خلع عليه خلعة الوزارة- إلى خوزستان فملكها، ثم اتجه إلى همذان[6].

---

(١) السيوطي، تاريخ، ص٤٦٤-٥.

(٢) وفـــي فتـــرة التسلط البويهي زالت هذه الدار بزوال منصب الوزارة، ولما استعادت الوزارة مكانها، عاد الوزراء للجلوس في تلك الدار. الكروي، نظام الوزارة، ص٢٥١.

(٣) الذهبي، مختصر، ج١، ص٣٢ (استدراك) .

(٤) ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص١٤٢.

(٥) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ص١٧.

(٦) ابـــن الأثيـــر، الكامل، ج١٢، ص١٠٨، الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨١، الذهبي، العبر، ج٣، ص١٠٦؛ الغساني، العسجد، ص٢٣٠.

لكن لابد من الإشارة إلى أن الوزير في هذه الفترة لم تكن له الصلاحيات التي كانــت في العصر العباسي الأول، فكان تعيينه وعزله يتم بهدوء دون أي ضجة أو احــتجاج مــن مؤيد أو منافس. كما نجد أن الخلفاء حرصوا على مباشرة الأمور بأنفســهم، فقامــوا بمطالعة الرسائل، وكتابة التواقيع، وتصريف الأمور، ولم يكن للوزيــر إلا مهمة التنفيذ لما يريده الخليفة، وليس أدل على ذلك مما وصف به ابن جبيــر حــال الــوزارة فقال(١): "وليس له اليوم وزيرٌ، إنما له خديم يعرف بنائب الــوزارة، يحضــر الديــوان المحتوى على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الأمــور". وكذلك وصف الحموي صاحب التاريخ المنصوري حال الوزير نصير الدين بن المهدي العلوي" وفي كل الأحوال هو نائب وزارة لا مطلق الوزارة "(٢).

اخــتلفت الأســباب التــي كانت وراء عزل الوزراء ، فالناصر بعد أن تولى الخلافة بأسبوع قبض على ابن العطار وسجنه ثم أخرج ميتا. ولعل السبب في ذلك يعــود إلــى موقــف ابــن العطــار من البيعة بولاية العهد للناصر، فقد كان من المعارضــين لتوليــته الخلافة، وحثّ المستضيء على تولية ابنه الآخر أبو هاشم منصور، فلما ولي الخلافة، بقي حقده عليه، فنكبه(٣).

أمــا الوزيــر نصــير الدين بن مهدي العلوي فقد اختلف في أسباب عزله، فبعضــهم قــال: أنه كان ظالماً جبارا متكبرا قليل الرحمة، وبعضهم قال: أنه كان يــروم الخلافــة لنفســه(٤). وقال آخرون: أنه أتهم في قتل تنامش مملوك الخليفة

---

(١) الرحلة، ص١٨١؛ فاروق عمر، جهود الخلفاء، ص١٥٦.

(٢) الحموي، التاريخ المنصوري، ص٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٥؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٣.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٣٣.

الناصر[١]. ورغم الاختلاف في الأسباب التي علل بها المؤرخون عزل ابن مهدي عـن الـوزارة إلا أن عزله لم يحدث أي بلبلة أو اضطراب في بغداد أو خارجها خاصة إذا علمنا أنه شيعي.

وكـان قـد خصـص للوزير منذ العصر العباسي الأول راتب شهري حدده الصابئ بسبعة آلاف دينار[٢]. لكن هذه الرواتب أخذت تزداد على ما يبدو، خاصة في العصور المتأخرة حتى أصبحت عشرة أضعاف ذلك[٣]. فنجد أن بعض الوزراء كون ثروة طائلة بعد أن تولى الوزارة، فالوزير نصير الدين العلوي -الذي قدم إلى بغـداد هاربـا مـن أمام قوات علاء الدين تكش خوارزم شاه بعد أن استولى على الـري- أحصيت ثروته عند عزله سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) فزادت عن خمسمائة ألف دينار[٤]. ولما توفي نائب الوزارة نصير الدين أبي الأزهر أحمد بن الناقد سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وجـد فـي خزانته صندوقاً ورقعة مكتوبة بخطه: "هذا من فواضل أنعم مولانا وصدقاته، وهو من استحقاق بيت المال، نذكر أنه بلغ مائة ألف دينار[٥]".

كان من تقاليد الوزارة ضرب الطبل والبوق عند ركوبه للخروج إلى أعماله، فلمـا عـزل الوزيـر نصير الدين بن مهدي العلوي "حضر عنده ليلاً من شافهه بالعزل، وأغلق بابه وضرب له الطبل في تلك الليلة بالرحبة جرياً على عادته"[٦].

---

(١) أبو شامه، الذيل، ص٥٩؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٣٣.

(٢) الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص٣٧٨ .

(٣) الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص١٩.

(٤) ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص٦٢.

(٥) مجهول، الحوادث، ص٢٩٢.

(٦) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٠.

ظهر في هذا العصر تقليد جديد، فقد أكثر الخلفاء من استخدام نواب الوزراء[1]، فمن صلح حاله رُقيّ إلى منصب الوزارة، ومن عجز نُحيَّ عنها، وأصبحت لنائب الوزارة حجرة خاصة مقراً لعمله. يشير إلى ذلك صاحب الحوادث عند حديثه عن تولية أبي الأزهر بن الناقد وخروجه من دار الوزارة "وتقدم إلى الديوان جميع أرباب الدولة، فدخل إليه وجلس في الموضع الذي جرت عادة نواب الوزارة الجلوس فيه، وكتب الإنهاء وبرز الجواب فقرأه قائماً على الحاضرين" [2].

شغل منصب الوزارة في هذه الفترة خمسة عشر شخصاً، كان منهم في منصب الوزارة الكاملة خمسة: اثنان عُيِّنا وزراء منذ البداية، وهما: أبو المظفر عبد الله بن يونس، وأبو المعالي سعد بن حديدة، وثلاثة رقيا من منصب نائب الوزارة وأستاذية الدار، وهما: محمد بن علي بن القصاب، ونصير الدين بن مهدي العلوي[3]، ومؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم[4].

إن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الخلفاء أرادوا أن يجعلوا مقاليد الأمور في أيديهم وليس في أيدي الوزراء، حتى يتمكنوا من تحقيق مشروعهم في إحياء الخلافة وإعادة قوتها، حتى أن الخليفة الظاهر لم يستوزر أحداً بل أقّر أبا الحسن محمد بن القمي على نيابته حتى وفاته، وكذلك المستنصر فانه لم يستوزر، بل أقر بن القمي على نيابته إلى أن عزله سنة (٦٢٩هـ/١٢٣١م)، ونقل أبا

---

(١) القزاز، الحياة السياسية، ص١١١ .

(٢) ص٣٤؛ القزاز، الحياة السياسية، ص١١١.

(٣) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٣. وجميع هؤلاء تولوا منصب الوزارة في عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ).

(٤) ابن الطقطا، الفخري، ص ٣٣٧. وراجع القائمة بأسمائهم في أحلام النقيب، السياسة الداخلية للخليفة الناصر، ص٧٣.

الأزهــر أحمد بن الناقد من أستاذ الدار إلى نيابة الوزارة، وبقي على ذلك إلى آخر أيامه(١).

وكان أستاذ الدار(٢) باعتباره أحد كبار موظفي الدولة يتمتع بمكانة اجتماعية رفـيعة. وصف ابن جبير مهام أستاذ الدار ونفوذه(٣): "وله أمين على سائر الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه، وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية، يعرف بمجد الدين أستاذ الدار".

كان أستاذ الدار عندما تولى الناصر الخلافة من أقوى رجال الدولة نفوذا، فقد فـوض الناصر لأستاذ داره مجد الدين بن الصاحب جميع الأمور في الدولة، حتى أن الخطباء كانوا يدعون له بعد الدعاء للخليفة على منابر بغداد(٤).

ومما يدل على أهميته وقوته كركن من أركان الإدارة في الدولة العباسية، أنه كـان مسؤولا عن أخذ البيعة للخلفاء، فلما كانت البيعة للخليفة الناصر سنة (٥٧٥ هــ/١١٧٩م) تولى أخذها أستاذ الدار بن الصاحب(٥). وتولى أستاذ الدار أبو نصر المبارك بن الضحاك أخذ البيعة للمستنصر بالله بحضور نائب الوزارة ابن القمي(٦). كما تولى أستاذ الدار محمد بن العلقمي اخذ البيعة للخليفة المستعصم بالله(٧).

---

(١) الإربلي، خلاصة الذهب، ص ٢٨٩.

(٢) أسـتاذ الـدار: وظـيفة يتولـى صاحبها شؤون دار الخليفة ونفقاتها وأمور الأسرة العباسية المقصـورة في دار الخلافة كأخوات الخليفة وأعمامه وأبناء أعمامه. مقدمه مصطفى جواد، لكتاب الجامع المختصر، ج٩، ص يب.

(٣) الرحلة، ص ١٨١ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة .

(٥) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٠، الذهبي، مختصر، ج ١، ص ٣٠.

(٦) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٦ .

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٩٠ .

وكان لبعضهم أثر في إثارة الفتن بين السنة والشيعة، فكان ابن الصاحب شيعي أيد الشيعة في ممارسة عقائدهم واحتفالاتهم في الشوارع، مما ساهم في وقوع الفتن والاقتتال بين السنة والشيعة. وكانت هذه التصرفات التي مارسها ابن الصاحب هي التـــي دفعت الناصر إلى التخلص منه سنة (٥٨٣هـــ/١١٨٧م)[(١)]، ولما قبض عليه أخذت أمواله فكانت ألف ألف دينار[(٢)].

ويعـــد قاضـــي القضاة من كبار رجال الدولة العباسية أيضاً. ويمثل ركناً من أركان الإدارة فيها. وهذه الرتبة في القضاء تمثل أعلى درجة يصل إليها القاضي، فـــان قاضي القضاة غالبا ما كان يبدأ قاضيا في منطقة من مناطق العراق، أو في محله من محلات بغداد، ثم يرتب قاضي للقضاة[(٣)].

وكـــان لقاضـــي القضاة رسم خاص به وهو أن يحمل غاشية على الكتف في موكبه إذا سار[(٤)]. ولأهمية مركزه فانه لا يترك شاغرا لفترة طويلة، ولم يحدث إلا في حالات نادرة، كما في سنة (٥٩٨هـــ / ١٢٠١م) إلا أنه لم يدم إلا أياماً قليلة[(٥)].

وكانـــت علامة عزل قاضي القضاة رفع الطرحة. فقاضي القضاة فخر الدين أبي الحسن العباسي[(٦)] عزل من منصبه بسبب تزوير قام به[(١)]، فعقد له أستاذ الدار

---

(١) انظر ما سبق عند الحديث عن الشيعة .

(٢) الذهبي، العبر، ج٣، ص٨٧.

(٣) فهد، تاريخ العراق، ص ١٨٤ .

(٤) ابن الوردي تاريخ، ج٢، ص ١٤٢؛ فهد، تاريخ العراق، ص ١٨٧.

(٥) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٨٠ .

(٦) هو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن علي العباسي المكي الأصل البغدادي الدار، كان جده نقيباً للعباسيين بمكة، تولى القضاء إلى أن عزل، توفي ببغداد سنة ٥٩٥هـــ . ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ص ١٩-٨؛ المنذري، التكملة، ج٢، ص ٥ ٦-٧ .

ابـــن يـــونس مجلسا من الفقهاء والعلماء الذين اثبتوا عليه التهمة، وأوصوا بعزله، فرفعت طرحته[٢].

كان يضاف إلى قاضي القضاة من المهام ما يتناسب مع قدرته وعلمه، فأسندت إليه مهمة النظر في الوقوف، والنظر في المواريث[٣]، لما تحتاجه هذه الجوانب من معرفة بالأحكام الشرعية والفقه الإسلامي.

يشـــترط فـــيمن يتولى القضاء أن يكون شافعياً. أما منصب قاضي القضاة فقد كـــان حكـــراً على الشافعية والحنيفة. والمرة الوحيدة التي تولى فيها هذا المنصب حنبلي كانت في زمن الخليفة الظاهر بأمر الله، عندما اختار أبا صالح نصر بن أبي بكر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي[٤] لمنصب قاضي، القضاة وبقي في هذا المنصب إلى أن عزله سنة(٦٢٣هـ[٥]/١٢٢٦م). ولما عزل من القضاء قال أبياتا أولها:

حمدت الله عز وجل لما قضـــا لي بالخلاص من القضاء[٦]

---

(١) وكـــان قد اثبت أنه زوره كتابا باسم الحسن بن زركمل التاجر على امرأة تدعى فاطمة بنت محمـــد بـــن حديده، زوجة أبي المعالي بن حديده الذي كان وزيرا. ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص ١٩٧.

(٢) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص١٩٧.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٠؛ فهد، تاريخ العراق، ص١٨٨

(٤) فقـــيه حنبلي تفقه على أبيه وعلى الشيخ النوقاني الشافعي، ودرس بمدرسة جده بباب الأزج، والمدرسة الشاطئية بباب الشعير، بعد عزله تولى الرباط المستجد بدار الروم، وبقي على ذلك إلى أن توفي سنة ٦٣٣هـــ . مجهول، الحوادث، ص٨٦-٧ .

(٥) المصدر نفسه، ص١٨٧، القزاز، الحياة السياسية، ص ١٥٨-٩.

(٦) المصدر نفسه والصفحة.

يلاحـظ الـباحث في تولي المناصب في هذه الفترة عملية توارث المناصب واقتصـارها إلى حد معين على أبناء عائلات محدودة. فنجد منصب قاضي القضاة قـد احتكرته عائلات مثل عائلة الدامغاني. فقد تولى هذا المنصب منهم أربعة كان آخـرهم عمـاد الدين أبو القاسم عبد الله بن الدامغاني(١). ويمكن أن نوعز هذا إلى البيـئة العلمية التي ينشأ فيها أفرادها، فكثيرا ما يستعين الأب بابنه في أمور متعلقة بالقضاء، ثم يتدرج في وظائف القضاء، حتى إذا ما قضى عمراً في أعمال القضاء، وأصبح مشهوراً بعلمه وعدالته، رشح لشغل منصب القضاء(٢).

كان قاضي القضاة يشارك في البيعة للخليفة. فلما ولي الناصر لدين الله الحكم كان ممن بايعه البيعة الخاصة قاضي القضاة(٣). وشارك قاضي القضاة في مراسيم تعيين الوزراء، حيث يحضر مع كبار رجال الدولة إلى ديوان الخليفة عند مشافهة الخلـيفة للوزير بإسناد ذلك المنصب له، ثم يشارك في موكب الوزير بعد خروجه من حضرة الخليفة(٤). وفي حالة شغور منصب الوزارة استنيب في بعض الأحيان قاضي القضاة لهذه المهمة(٥).

هـناك مهمة أخرى أضيفت إلى صلاحيات قاضي القضاة، بعد أن كانت من مهـام الخليفة العباسي حتى وفاة الناصر، وهي مشافهة رأس مشيئة اليهود بالولاية علـى أبناء ملته، فبعد اختياره يرسله الوزير إلى قاضي القضاة لأجل إتمام مراسيم

---

(١) ابـن السـاعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٠١؛ الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٣؛ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ٢، ص ٧٧٦.

(٢) فهد، تاريخ العراق، ص ١٩٣.

(٣) أبو شامة، الذيل، ص ١٥. وهو أبو الحسن بن علي الدامغاني .

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ص٢٠٣.

(٥) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٣.

التولـــية، فيحضـــر إلى مجلس قاضي القضاة، فلما رتب دانيال بن شمويل بن أبي الـــربيع رأس مشيئة اليهود سنة (٦٤٥هـــ/١٢٤٧م) أرسله الوزير مؤيد الدين بن العلقمـــي إلى قاضي القضاة عبد الرحمن بن الدامغاني، فأجلسه بين يديه، وخاطبه قائلاً: "رتبتك زعيما على أهل ملتك، من أهل دينك المنسوخ، الذي نسخته الشريعة المحمدية، لتأخذهم بحدود دينهم، وتأمرهم بما أمروا به في شريعتهم، وتنهاهم عما نهوا عنه، وتفصل بينهم في وقائعهم وخصوماتهم بموجب شريعتهم والحمد لله على الإسلام(١) ".

ويعـــد الحجـــاب من أفراد فئة الخاصة. يرأسهم حاجب الحجاب، وهو همزة الوصل بين الخليفة والناس، يأذن لمن شاء بالدخول على الخليفة أو يمنعه.

تطور منصب الحاجب، فلم يعد عمله مقصورا على حجابة باب الخليفة، وإنما تولـــى أعمالا أخرى. وكان للحجاب درجات، أعلاهم درجة حاجب الحجاب، الذي أصبح مقدم الحجاب جميعاً(٢).

لم يقتصر عمل الحاجب على المهام الإدارية. بل لعب بعضهم دورا في الحياة السياسية، فأرسلوا رسلاً من ديوان الخليفة إلى ملوك الأطراف، وشارك في استقبال كـــبار الزائـــرين لبغداد. فقد أرسل الخليفة الناصر لدين الله حاجب حجابه علي بن المـــبارك بـــن محمـــد أبي الحسن البغدادي إلى صاحب سنجار(٣)، وخرج حاجب الحجـــاب عمر التبريزي في سنة (٦٠٦هـــ/١٢٠٩) لاستقبال رسول الملك العادل نجم الدين خليل(٤).

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٢١٨.

(٢) القزاز، الحياة السياسية، ص١١٨.

(٣) ابن أبي عذيبة، أنسان العيون، مخ، ورقة ١٧٥أ.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص٤٨٣-٤.

كــان لحاجــب الديوان لباس خاص يتميز به عن سائر الموظفين في الدولة. أشار إليه أبو المحاسن بن تغري بردى عند حديثه عن توليه أبي عبدالله الدامغاني الحاجب " فرمى الطيلسان وتزيا بزي الحجبة"(١).

إذا أبــدى حاجب الديوان كفاءة في عمله نقل إلى وظيفة أعلى، وهذا ما حدث لمحمــد ابــن عــبد الباقي الشهرياري، فبعد أن كان مجرد حاجب بالديوان، صار حاجب الحجاب، ثم تولى ديوان العرض، وأخيرا تــولى منصب نيابة الوزارة سنة (٥٨٠هـــ/١١٨٤م) بعــد لأن عزل أبو الفتح صدقة بن محمد عن نيابة الوزارة، وبقي فيها إلى أن عزل سنة (٥٨٥(٢)/ ١١٨٧م).

شارك الحجاب في مراسيم تنصيب كبار موظفي الدولة، فلما ولي ركن الدين عبد الله محمد بن الوزير نصير الدين بن مهدي العلوي صدرية المخزن، ركب في جمع كثير من حجاب الديوان(٣).

٢ - فئة العامة

يمثل العلماء الفئة المثقفة في المجتمع في الآداب والشريعة والعقائد الإسلامية. لقــد كانــوا قضاة وأئمة وفقهاء ومدرسين. واجبهم الأساسي المحافظة على معرفة التعاليم السماوية، ومد المجتمع بأسباب الحياة، ليبقى مجتمع إسلاميا. فضلا عن ذلك كانــوا نخبة إدارية واجتماعية ودينية معا. زد على ذلك أن العلماء لم يكونوا طبقة متميــزة، بــل فــئة من الأشخاص متداخلين مع فئات اجتماعية أخرى. لقد كانت اتصالاتهم متنوعة إلى درجة كبيرة؛ مكنتهم من لعب دور حاسم في العمليات التي

---

(١) النجوم، ج٥، ص ١٩٣.

(٢) ابن الدبيثي، ذيل، ج٢، ص ٧٥، فهد، تاريخ العراق، ص ١٦٨.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص١٤٣.

اســتطاعت بهــا الاتصـــالات الاجتماعية أن تستمر، وبالتالي في العمل على دمج المجتمع.

لا بــد أن نــؤكد على حقيقة غاية في الأهمية تتمثل في أنه من الصعب إيجاد حـــدود وشـــروط لتقســيم أفراد المجتمع بين فئة الخاصة والعامة، خاصة بالنسبة للعلمـــاء، لهــذا يمكن القول أن تقسيم العلماء إلى فئة الخاصة والعامة نوعزه إلى العلاقة مع السلطة، ومدى الامتيازات التي تمتعوا بها.

ثمة ظاهرة تستدعي الانتباه في هذه الفترة تتمثل في تغيير المذهب، والانتقال من مذهب إلى آخر. ولعل لهذا الانتقال أسبابه التي سنلاحظها في ما يلي: فقد انتقل أبـــو جعفر عمر بن أبي بكر بن عبيد الله الدباس من المذهب الحنبلي إلى الشافعي، وأقـــــام مشـــرفا بدر الكتب العتيقة بالمدرسة النظامية حتى توفى سنة (٦٠١هـــ/ ١٢٠٤م)[١]. وانـــتقل الشـــيخ علي بن معالي الحلي المعروف بابن الباقلاني[٢] من المـــذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي[٣]. وكذلك أنتقل الوجيه أبو بكر المبارك بن أبي الأزهر[٤] الواسطي الضرير النحوي من المذهب الحنبلي إلى الحنفي، ثم تحول إلى الشافعي، حتى قال فيه أبو البركات بن زيد التكريتي[٥]:

---

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٦٠.

(٢) كان شيخ وقته في علم الأدب والنحو قدم بغداد واستوطنها وبقي فيها إلى أن توفي سنة ٦٣٧هـــ. مجهول، الحوادث، ص١٣٧-٨.

(٣) المصدر نفسه والصفحات.

(٤) من أهل واسط، قدم بغداد مع أبيه في صباه فأقام بها إلى أن مات في شعبان سنة ٦١٢هـــ ودفن بالوردية. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٥، ص٢٢٦٣.

(٥) هو أبو بركات محمد بن أحمد بن سعيد التكريتي الملقب بالمؤيد الشاعر كان عنده أدب ويكتب بخطمليح، وينظم الشعر، توفى في رمضان سنة ٥٩٩هـــ. ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص١٠٧ -٩.

ألا مــبلغاً عني الوجيه رسالة وإن كان لا تجدي لديه الرسائل
تمــذهب للنعمان بعد ابن حنبل وذلــك لمــا أو عــزتة المآكل
ما اخترت رأي الشافعي تدينا ولكــنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قريب أنت لا شك صائر إلى مالك فافطن لما انت قائل[1]

يــرى الــباحث في مثل هذه القضية أن التحول كان يرتبط بمصلحة شخصية تتمثل بمنصب إداري أو مصلحة خاصة. ففي المثالين الأولين نجد ذلك واضحا، إذا علمنا أن المدرسة النظامية كانت مدرسه شافعية، موقفة على أتباع مذهب الشافعي، وشــرط الواقف لها أن لا يتولى التدريس بها أو أحد مناصبها الإدارية إلا شافعيا. لــذلك كــان من الطبيعي لمن أراد التدريس بها كالوجيه أن يتحول من مذهبه إلى المذهب الشافعي.

اهــتم الخلفاء بالشعر والأدب، حتى أن الخليفة الناصر لدين الله جعل للشعراء ديــوانا خاصا سمي "ديوان الشعراء"، وسُميَّ الشعراء المثبتة أسماؤهم فيه بشعراء الديــوان أي ديــوان الدولة العباسية[2]. ومن الشعراء الذين اشتهروا في هذه الفترة الشاعر أبو الفتح[3] سبط بن التعاويذي[4]. له ديوان شعر كبير ومن شعره قوله في مدح الناصر لدين الله يوم البيعة بالخلافة:

---

(١) ياقوت، معجم الأدباء؛ ج٥، ص٢٢٦٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص ١٥٤؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٥٨.

(٢) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب نساء الخلفاء، ص٩.

(٣) هو أبو الفتح محمد بن عبد الله بن عبد الله، كانت وفاته سنة ٥٨٣ هـــ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٤٦٦.

(٤) وعرف بالتعاويذي نسبة إلى جده الذي كان يعمل في كتابة التعاويذ. الذهبي، مختصر، ج١، ص٦٢. هامش(٢).

طـــاف يسعى بها على الجلاس قضـــيب الاراكـــة المـــياس
أمـــــناء الله الكـــــرام أهــــل الجود والحلم والتقى والباس
ولقـــد زيـــنت الخلافـــة منهم بإمـــام الهدى أبي العباس(١)

ومحمـــد بـــن صدقة بن سبتي أبو علي المعروف بالخفاف، وكان ممن ينشد المدائح في الناصر في الهناءات ومن ذلك قوله:

فما خسروا إلا وجأشك رابح ولا نقصوا إلا وجيشك زائد(٢)

وكـــان أبـــو الغنائم محمد بن علي بن فارس بن علي الواسطي (ت٥٩٢هـ/١١٩٥م) الملقـــب نجم الدين الشاعر رقيق الشعر، لطيف حاشية الطبع، يكاد شعره يذوب من رقته(٣).

حدد الديوان لكل من هؤلاء الشعراء راتبا شهريا، فقد كان لسبط بن التعاويذي راتـــبا من الديوان، فكتب إلى الديوان أن ينقل راتبه إلى ولديه، وطمع بأن يكون له راتب آخر، إذ قال(٤):

فاستأنفوا لي رسما أعود على ظـــنك معاشـــي فأتســـع

شارك العلمـــــاء في إدارة الدولة من خلال توليهم لبعض المناصب الإدارية. فقـــد ولـــي الشيخ يحيى بن سعيد بن هبة الله العلامة (ت٥٩٤هـ/١١٩٧م) حجبة الباب للخليفة الناصر، ثم تولى أستاذية الدار(٥). وتولى الشيخ رضي الدين عمر ابن

---

(١) ابن التعاويذي، الديوان، ص٢٣٦، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ص٩٧.
(٢) ابن الدبيثي، ذيل، ج١، ص٢٩١.
(٣) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٢، ص٣١٠.
(٤) سبط بن التعاويذي، الديوان، ص٢٧٣.
(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٤٤.

أبي القاسم التبريزي منصب حاجب الحجاب، وكان من قبل أحد علماء النظامية[١].

شارك العلماء في الحياة السياسية شأن غيرهم من أفراد المجتمع، فقاموا بسفارات إلى ملوك الأطراف، فقد أرسل الديوان الشيخ فخر الدين محمد بن الربيع مدرس النظامية إلى محمد خوارزم شاه سنة (٦٠١هـ[٢]/١٢٠٤م). كما أُرسل في نفس السنة رسولا إلى ملك الهند وغزنه شهاب الدين الغوري[٣]. وأُرسل أبو جعفر عمر بن إبراهيم بن عثمان التركستاني الواعظ سنة(٦٠٢هـ/١٢٠٨م) سفيرا من الديوان إلى ملك غزنة السابق[٤]، وكذلك أرسل الشيخ أبو محمد عبد الله رئيس الأصحاب[٥] ومدرس النظامية رسولا إلى دمشق ومصر سنة (٦٥٠هـ[٦]/ ١٢٠٥م).

هذا لا يعني أن جميع العلماء كانوا على علاقة طيبة مع السلطة، بل نجد أن بعضهم رفض عطايا الخلفاء. فقد أرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى أبي البركات عبد الرحمن بن محّمد الأنباري شيخ العراق، وصاحب التصانيف، خمسمائة دينار فردها، وكان يعتمد في معاشه على دار وحانوت، يؤجرها في كل شهر بدينار ونصف يعيش منهما.

---

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٩، ص١٤٣.

(٣) المصدر نفسه، ج٩، ص١٨٤.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ح٩، ص١٤٣.

(٥) الأصحاب: لقب أطلق على اتباع الإمام الشافعي ولهم رئيس يدعى رئيس الأصحاب. ابن الصابوني، تكملة، ص٢٣.

(٦) الغساني، العسجد المسبوك، ص١٨٦-٧ .

ولا بـــد عند الحديث عن العلماء من التطرق إلى وضعهم المادي والمعاشي. فنجد أن العلماء لم يتمتعوا بالمكانة والثروة التي كان يتمتع بها أمثالهم من موظفي الدولة، ويتضح ذلك من خلال مقارنة بين ثروتهم ورواتبهم، ورواتب بعض الأمراء والخـــدم. فعـــندما افتتحت المدرسة المستنصرية سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م) عين بها المدرســـون على المذاهب الأربعة. ولابد أنهم كانوا من أشهر علماء تلك المذاهب، وحدد لكل منهم راتب شهري مقداره أثني عشر ديناراً[١]. ونجد انه لا يقارن براتب بعـــض الأمـــراء، بـــل حتى أصغرهم، فقد كانت معيشة الأمير السلطان شاه عبد الـــرحمن بن الأمير محمود صاحب سنجار خمسة آلاف دينار في كل سنة ما عدا معاش أفراد خدمته[٢]، وكان شيخ فراشي دار الخلافة في عهد المستعصم عبد الغني بـــن فاخر يتشبه بالملوك، وكانت داره تشمل على عدة حجر، في كل حجرة جارية وخادم، لكل جارية عملا: فواحدة شرابية، وأخرى غسالة، وأخرى طباخة، إلى غير ذلك[٣].

لكن هذا لا يعني أن جميع العلماء لم يمتلكوا الثروة والأموال، بل نجد بعضهم مـــن الأغنـــياء. فكان الشيخ محمد بن أحمد بن الحسن بن جرادة، أحد الموسرين، ذوي الأمـــوال الكثيـــرة، بنى مساجداً، ووقف عليها وقوفاً جيدة[٤]. كما بلغت تركة فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) ثمانين ألف دينار[٥].

---

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٦٠ .

(٢) المصدر نفسه، ص٥٩٧ .

(٣) المصدر نفسه، ص٥٨٠.

(٤) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص٨٠.

(٥) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢١.

شــارك العلمــاء العامة في ممارسة المهن والأعمال على الرغم من مكانتهم العلمية، فبعضهم عمل بالتجارة والسفر لأجلها(١)، والعمل بتجارة البز(٢)، والخرز(٣) والخياطة(٤)، والدلالة(٥)، وغيرها من المهن.

كان أهل العراق في هذه الفترة يتمذهبون للشافعي(٦)، ولأبي حنيفة(٧) ولأحمد بـن حنبل(٨) ولجعفر الصادق(٩). أما الإمام مالك، فلم يكن يتمذهب له سوى بعض العلماء، خاصة الوافدين من مصر والمغرب(١٠).

يلحـق بفئة العامة التجار. ويبدو أن الصابئ حين عدّ التجار من فئة الخاصة الـذين عـددهم "الـوزراء والكـتاب والحواشـي والأصحاب والأمراء والقواد والأشـراف والقضاة والشهود والتناء والتجار وأولي المروءات الوافرات"(١١). أنه كـان يعني بهم كبار التجار الذين كانوا يتعاملون مع الخاصة، وما كانوا يكسبونه من تجارتهم مع هذه الفئة من أرباح طائلة انعكست على حياتهم المعاشية.

---

(١) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٤٨٤.
(٢) المصدر نفسه،ج٤، ق١، ص٢٨٥، ص٤٩٢.
(٣) ابن المستوفي، تاريخ إربل، ج١، ص٣٨٢.
(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٢٥.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٢٤
(٦) المصدر نفسه، ص٢٠٣، ص٢٢٥، ص٢٣٩.
(٧) المصدر نفسه، ص٣١٨.
(٨) ابن العماد، شذرات، ج٥، ص٤٩.
(٩) الغساني، العسجد المسبوك، ص٣١٨.
(١٠) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢١٠-٢١٢.
(١١) الصابئ ، رسوم، ص٢١.

وفي الفترات السابقة من التاريخ العباسي كان العدد الأعظم من التجار في العراق من اليهود، فلما نشطت حركة التجارة بسبب تنظيم الأسواق وازدياد الاهتمام بالصيرفة، حدثت تطورات اجتماعية كان منها ازدياد إقبال المسلمين على التجارة(1).

وكان التجار يقسمون في هذا العصر إلى ثلاث فئات(2):

أ. التاجر الخازن: وطريقته في العمل أن يشتري البضائع وقت رخصها وتوفرها في الأسواق وكثرة عرضها وقلة طلبها، ثم يخزنها انتظاراً لتغير ظروف الأسواق، وقلة هذه البضائع وانقطاع وصولها أو صعوبة نقلها من أماكنها الأصلية، وعند ذلك يعرضها للبيع لتكون أرباحه منها كبيرة.

ب. التاجر الركاض: ومهمته الرحلة والانتقال لجلب التجارة من البلدان الأخرى، وكان أول ما يقوم به معرفة نوع التجارة التي يجب جلبها ثم يلاحظ جملة أمور مثل سرعة ذهابه وإيابه، وسلامة الطريق إن كان سفره براً، وأنواع الأعاصير إن كان سفره بحراً، والحوادث المتوقعة في البلد الذي يقصده، ويكون ذلك قد أخذ بقول النجار "التبصر نصف عطية".

ج. التاجر المجهز: وطريقته في عمله أن يستقر في السوق ببلده، وأن يكون له وكلاء في بلدان مختلفة ممن لهم خبرة بالتجارة، وممن يثق بهم، بعد أن يتفق معهم على حصة معينة من الربح، فيرسل إليهم البضائع ليبيعها، ويترك لهم حرية النظر في بيعها، إذ قد لا تباع السلعة فتكسد لذلك يلجأ الوكيل لخزنها حتى يحين الوقت المناسب، ثم يشتري البضائع من ذلك البلد بعد أن يكون قد تخير أحسنها وأدّرها ربحاً.

---

(1) الكروي، طبقات، ص ٧٤.

(2) الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص٤٨-٥١.

وقد سافر هؤلاء التجار من أجل الكسب والتجارة إلى الشرق والغرب إلى دمشق، وخراسان، وما وراء النهر[1]، وبلاد الروم[2] والحجاز[3].

وكان كبار التجار (الخاصة)يتاجرون بأدوات الترف الغالية والثمينة كالمجوهرات والرياش والثياب الفاخرة والرقيق. وكان اعتمادهم في بيعها بالدرجة الأولى على الخلفاء وحاشيتهم من كبار رجال الدولة والأغنياء[4]. أما عامة التجار[5] فقد تاجروا بالتوابل والعطر والبخور[6] والدروع والسيوف والبغال والحمير[7] والأدوية[8] وغيرها من المواد.

ارتبط بعض التجار بخدمة أسرة الخليفة، فكان محمد بن علي بن أحمد الناقد التاجر (ت٦١٣هـ/١٢١٦ م) متولي وكالة الباب الشريف للجهة والدة الخليفة الناصر لدين الله، ثم أضيفت إليه وكالة الأمير الكبير ولد الناصر[9]. وكان على بن إبراهيم البزاز (ت٦٢٧ هـ/١٢٢٩م) من أعيان التجار ووجوه البزازين في بغداد، تولى نظر دار الاستعمال بدار الخلافة[10]. أما ابن العطار فقد كان تاجراً، فتولى

---

(١) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ص١٤٩ .

(٢) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٤٣٨ .

(٣) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص١٩٨ .

(٤) الدوري، تاريخ العراق، ص١١٤ .

(٥) الآلوسي، تجارة العراق البحرية، ص٢٠٥.

(٦) النويري، نهاية الإرب، ج١٢، ص٢٣ .

(٧) الكبيسي، أسواق بغداد، ص١٨٧ .

(٨) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥ ، ص١٠

(٩) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ص١٤

(١٠) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ص١٢٧.

منصب صاحب المخزن، ثم ولي الوزارة[1]. وابن القصاب كان والده يبيع اللحم على رأس درب البصريين ببغداد، ولكنه استطاع بما امتلكه من مقومات ثقافية وقدرات إدارية من الوصول إلى منصب الوزارة[2].

وأدى كبار التجار دورا في الرعاية الاجتماعية للفقراء بتقديم الطعام والأموال لهم، فكان علي بن جابر أبو الحسن التاجر (ت٦٤١ هـ/١٢٤٣م)، مسارعاً إلى قضاء حوائج الناس[3]. كما أن عز الدين أبو حامد علي بن داود كان من أصحاب الأموال[4] ومثلهم كان محمد بن جعفر بن دلف أحد التجار الموصوفين بالخير والصلح ومساعدة الغرباء ومواساة ذوي الحاجات[5].

وإلى جانب احترافهم لمهنة التجارة، اهتم بعضهم بالعلم والمعرفة، فأبو المحاسن محمد بن أحمد الأصبهاني التاجر (ت٥٩١ هـ/١١٩٤م) سمع الحديث، وحدث ببغداد[6]. وكان أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب الحراني (ت٥٩٦ هـ/١١٩٩م) من كبار التجار، اشتهر بإسناد الحديث عن جماعة من الشيوخ وانفرد بالرواية[7].

وفي فترة الأزمات السياسية كان بعض التجار، وخاصة أولئك الحريصون على مصالحهم وأموالهم يقفون إلى جانب القوي، حتى وإن كان ذلك القوى عدواً

---

(١) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص٨٦٢.

(٢) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٤.

(٣) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج٣، ص٢٣٥.

(٤) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٢٥٠.

(٥) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص١٩٩.

(٦) الغساني، العسجد المسبوك، ص٢٣٦.

(٧) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٦؛ ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٢٦.

لبلادهم، فنجد إن من التجار في أواخر هذه الفترة من تعاون مع المغول ووقف إلى جانـــبهم، ولمتانة علاقتهم بهم، نجد المغول قد رعوا لهم خدماتهم ، فعند اجتياحهم لــبغداد، جعلــوا بــيوت هــؤلاء التجار أمن لمن لاذ بها، بعد أن فشل الخليفة من المحافظـــة علـــى روحه وأرواح أبنائه. ومثال لهؤلاء التجار عز الدين بن مقلد بن صــفي الدين بن الخرداذي، الذي كـــان من عظماء التجار العراقيين، فيكفي دليلا على عظم ثروته مـــا دفعه سنة (٦٤٩هــ/١٢٥١م) صداقا لابنة عمه مقداره مائة ألـــف دينار، "وهذا ما لم يسمع مثله إلا عند الخلفاء والسلاطين"، هذا التاجر خرج مـــن بغـــداد إلى فارس واستوطنها، ومن هناك اتصل بأمراء المغول، وتحدث مع السلطان "كيك خان" في الصلح مع الخليفة. ومثال آخـــر ما جـــاء في حوادث سنة (٦٥٦هـــــ/١٢٥٨م) عـــن جماعـــة مـــن تجار بغداد كانوا يسافرون إلى خرسان وغيـــرها، وقد ارتبطوا ببعض أمراء المغول قبل حلول السنة المذكورة، وحصلوا علـــى فـــرامين حماية. فلما سقطت بغداد، خرجوا إلى الأمراء، وعادوا ومعهم من يحرس بيوتهم، والتجأ إليهم جماعة من جيرانهم، فسلموا من قتل المغول[(١)].

كانـــت الحكـــومة العباســـية تتدخل أحيانا لحماية مصالح التجار العراقيين في الخـــارج، فمـــن ذلك ما جاء عن تاجر بغدادي أنه توفي بإحدى الجزر ببحر عُمان وخلف ثلاثمائة ألف دينار ذهبا، فأخذها صاحب الجزيرة، فجاء الوارث بكتاب من قاضـــي بغـــداد وطالب بالميراث، ولكنه رفض إعطاءه المال، فعرض الرجل حاله علـــى الديوان، فاطلع الخليفة الناصر لدين الله عليه، فأمر زعيم البصرة بان يمنع الـــتجارة من الوصول إلى هذه الجزيرة، فضاق أهلها بذلك، مما اضطر أميرها أن يدفع الميراث لصاحبه[(٢)].

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٣٢٩؛ فهد، تاريخ العراق، ص٣٦٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص١٨٣، فهد، تاريخ العراق، ص٣٥٧.

كان للتجار والباعة أسواق خاصة بهم، انفرد كل منها بنوع معين من التجارة، وهذا التنظيم للأسواق وضع منذ تأسيس بغداد في القرن الثاني الهجري، ولما توسعت بغداد في القرون التالية انتشرت الأسواق في جانبيها الشرقي والغربي. وصف ابن جبير أسواق بغداد بقوله[1]: "والشرقية حفيلة الأسواق عظيمة الترتيب تشمل على بشر لا يحصيهم إلا الله"، وكانت أشهر أسواق الجانب الشرقي سوق الثلاثاء، وقد أصبحت في هذا العصر المركز التجاري الرئيس لبغداد[2]، ووصفها ابن بطوطة فقال[3]: "وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء، كل صناعة فيه على حده . وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية."

ويعتبر الرقيق من الفئات الدنيا التي شكلت مجتمع المدينة الإسلامية. كثر جلب الرقيق إلى قصور الخلفاء والحكام والأمراء، وراجت تجارة الرقيق مع زيادة الطلب عليها، وازدهرت أسواق الرقيق في بغداد حيث وجد بها سوق للنخاسة، وأطلق على أحد شوارعها اسم شارع الرقيق[4]، كما سمي موضع آخر باسم دار الرقيق[5].

كـــان يتم الحصول على الرقيق بعدة طرق أما عن طريق الحرب حيث كانت عـــاملا مهمـــا في جلبه إلى بغداد وبيعه في أسواقها، وخاصة في العصر العباسي الأول، ولكن بعد هذه الفترة قلّ جلب الرقيق لنضوب هذا المصدر أو ندرته.

---

(١) الرحلة، ص١٨٢-٣.

(٢)جواد و سوسة، دليل خارطة بغداد، ص١٧٤.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٢٤٣.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٩٠.

(٥) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص١٨٣.

وكـــان الشـــراء مصـــدرا آخر من مصادر توفير الرقيق، فبعد القرن الرابع الهجـــري كانـــت تجارة الرقيق تجارة رابحة(١). وكان التهادي بالجواري والرقيق مصدرا –وإن كان قليلا– لتوفير الرقيق فقد تسابق ملوك الأطراف في تقديم الهدايا للخلفـــاء مـــن الجواري، فقد أهدى السلطان صلاح الدين الأيوبي عام (٥٨٥هـــ/ ١١٨٩م) جماعـــة مـــن أســـرى الفرنج إلى الخليفة الناصر، فيهم شباب مُرد. قال الشاعر قوام الدين يحيى بن زبادة في وصفهم:

أبـــدى بدوراً على غصون	أســـرى يقادون في القيود
قد نُظموا في الحبال أسرى	نظـــم الجمـــان في العقود
إن ســـكنوا هـــؤلاء نـــاراً	فهـــي إذن جنة الخلود(٢)

وكـــان من جملة ما أهداه الملك الأفضل بعد وفاة والده السلطان صلاح الدين الأيوبـــي للخليفة الناصر "نساء بارعات في الحسن من السبي"(٣)، وأرسل السلطان العادل للخليفة الناصر سنة (٦٠٥هـــ/١٢٠٨م) جماعة من أسرى الفرنج(٤). وكان الديـــوان الخلافي يتولى شراء الرقيق، فيعين لهذه المهمة شخص يقوم بهذه المهمة، ويذهب من أجل ذلك إلى مختلف الأماكن(٥).

ويـــبدو أن هـــناك أسباب وظروف خاصة تحكمت في أسعار الرقيق والخدم، فكان ثمن العبيد البيض يزيد عن سعر العبيد السود، فالجارية الحسناء على جمالها

(١) الدوري، تاريخ العراق، ص٧٦.

(٢) الذهبي، تاريخ، ط٦٣، ص٤٢.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٨.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٦٠.

(٥) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٨٠

تشترى بألف دينار وأكثر[1]. واحتراف المهنة كان عاملاً في رفع أسعار الجواري، فقد اعترض رجل جارية ليشتريها، فقال لها: بيدك صنعة؟ فقالت: لا ولكن برجلي، تعني أنها رقاصة، فاشتراها[2].

واشـــترى الخليفة الناصر الخادم أقباش بن عبدالله، وكان عمره خمس عشرة سـنة بخمسة آلاف دينار[3]. وكانت عتب بنت عبدالله جارية للعباسية، ابتاعتها من أستاذ الدار ابن الصاحب بمبلغ عشرة آلاف دينار[4].

حرص الأغنياء على الإكثار من الجواري والخدم في بيوتهم، بعضهن للخدمة والـبعض الآخـر للفراش، وقد يصل عدد من كن للفراش إلى عشرين جارية، كل جارية قيمتها ألف دينار[5].

لم يقتصر تواجد الجواري في بيوت الأغنياء المترفين بل نجد منهن في بيوت العلماء[6].

اختلفت جنسيات الجواري باختلاف بلادهن، فمنهن: الحبشيات[7] والتركيات[8]، والصـقلبيات[9]، وهناك جواري يجلبن من الصين، وهن رخيصات الأسعار[1].

---

(١) متز، الحضارة الإسلامية، ح١، ص٢٩٨

(٢) ابن الجوزي، أخبار الظراف، ص٩٩ .

(٣) أبو شامة، الذيل، ص١٢٣؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق ٢، ص٦١١ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ط٦٤، ص٣٣.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٣٥.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٤، ق٢، ص٥١٥.

(٦) السيوطي، ذيل طبقات الحفاظ، ص٤٩٦.

(٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧، ص٣٧، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٨٢.

(٨) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١٢٤.

(٩) مصطفى، المدن الإسلامية، ج٢، ص٢٢.

وكانوا يحصلون على الرقيق الأسود من الحبشة والسودان عن طريق مصر. وأما الرقيق الأبيض، فكان أغلبه من الترك، ويجلب عن طريق خوارزم[٢].

كـــان النخاســـون الذين يتاجرون بالعبيد، ولأجل تحقيق الأرباح يلجئون إلى مخـــتلف وسائل الغش والتحايل في عرض وبيع الرقيق. ومن أشكال التحايل تغير ألوان العبيد، فالسمراء تصير ذهبية[٣]. ومنهم من يعمد إلى تطويل شعور الجواري بأن يصلوا في طرفه من جنسه، وأن يزيلوا روائح الأنف بالسعوط، ويجلوا الأسنان بالســـواك، وكانـــوا يزيلون الشعث في إطراف الأصابع بغسلها بالعسل والخلّ، كل ذلـــك حتى يحصل على أعلى سعر[٤]. يقول أحد النخاسين: "ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة"[٥].

كانـــت بعـــض الجـــواري اللاهيات تكتب أبياتاً من الشعر على ثيابها، تتعلق بالحـــب والعشق والحنين للمحبوب، وقد كان الوجيه النحوي المعروف بابن الدهان ملازما لبيت الوزير عضد الدين أبي الفرج بن رئيس الرؤساء، وكان يبيت ويصبح يقرئ أهله، فطلبت أحدهن منه أن يعمل لها أبياتا تكتبها على قميص أصفر، فعمل أبيات منها:

أنظر إلى لابسي وانظر إلى وكن ... مـــن مثل ما حل بي منه على خطر

هذا اصفراري يراه الناظرون وما ... في القلب من حبه يخفي على البصر

أمـــوت فـــي خلعة بالليل لي كمدا ... ولا انـــتظار وهـــاد منه في السحر

---

(١) ابن الأزرق، بدائع السلك، ج١، ص٤٠٤.

(٢) الدوري، تاريخ العراق، ص ٦ ٧-٧.

(٣) ابن بطلان، رسالة في شري الرقيق، ج٤، ص١٧٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٨١-٢.

(٥) متز، الحضارة الإسلامية، ج١، ص٣٠٣.

وقد رضي الوزير عن ذلك بعد أن رآها[1].

والناس يشترون الرقيق والخدم لأغراض مختلفة حسب حاجتهم إليهم، فبعضهم اشتراهم من أجل مساعدته في تجارته، فياقوت الحموي[2] الذي أسر في بلاده صغيرا، وابتاعه ببغداد رجل تاجر يعرف بعسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي، أرسله إلى الكتاب لينتفع به في تجارته، خاصة أن مولاه كان لا يحسن القراءة والكتابة، ولا يعلم سوى التجارة، ولما كبر شغله بتجارته، فكان يتردد إلى عُمّان والشام وغيرها من البلاد[3]. وكان عنبر خادم الوزير أبي المعالي سعيد ابن حديدة خادما جلدا ذكيا، يتاجر لسيده قبل توليه الوزارة[4].

واستخدمت الجواري من أجل الخدمة في البيوت[5]. واشترى الأغنياء الرقيق من أجل العمل في الحقول والمزارع التي يملكونها[6]، واستخدموا للخدمة في قصور الخلفاء. يبدو أن أعداد هؤلاء الأرقاء والعبيد الذين يشتغلون في خدمة دار

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٥، ص٢٢٦٨.

(٢) هو أبو عبدالله ياقوت بن عبد الله الدرمي البغدادي الحموي وقد اعتقه مولاه سنة ٥٩٦هـ، وأعطاه شيئا من المال، ولكنه أنصرف إلى الاشتغال بالعلم فتوجه إلى دمشق وناظر بعض من يتعصب للإمام علي، فذكر كلام لا يليق بالإمام علي، فثار عليه الناس حتى كادوا يقتلونه، فانهزم إلى حلب ثم إلى الموصل، وبعدها عاد إلى حلب ومات سنة ٦٢٦هـ. من أشهر مؤلفاته: معجم البلدان، معجم الأدباء والمشترك وضعاً والمختلف صقعاً. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٦، ص١٢٧-٣٨؛ ابن المستوفي، تاريخ إربل، ج١، ص ص٣١٩-٢٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص١٢١-٢.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح٦، ص١٢٧.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٤٢.

(٥) ابن النجار، ذيل، ج٢، ص١٢٢.

(٦) الدوري، تاريخ العراق، ص٦٦.

الخلافـــة كانت كبيرة، ولكن لم نصل إلى إحصائية لهم في هذه الفترة، فقد اشترى الخليفة الناصر لابنه أبي الحسن على من المماليك الترك عدداً كبيراً[1]، "وكان عند الخليفة الناصر من المماليك ما لم يملكه خليفة "[2].

وكـــان الخلـــيفة المستعصم مغرما بالجواري الحسان، كان يقضي بعض وقته معهـــن، ففـــي أحد الأيام كان جالسا في رواقه ومعه جارية، صغيرة من مولدات العرب تسمى "عرفة" وكانت مدللة عنده، فأصابها سهم دخل من الشبابيك فقتلها[3]. ولمـــا دخل هولاكو بغداد حضر الخليفة المستعصم بين يديه، فطلب من الخليفة أن يفـــرز النســـاء التـــي باشرهن هو وبنوه عن غيرهن، ففعل، فكن سبعمائة امرأة، فأخرجهن ومعهن ثلاثمائة خادم خصي[4].

كانـــت الجـــواري مـــن المجالات التي قال فيها الشعراء أجمل أبيات الغزل بوصـــف جمـــالهن ورقتهن، فهذا الشاعر سبط بن التعاويذي يصف جاريه سمراء بقوله:

بات بها الأسمر من سُمّار　　　مطرز الخدين بالعـــــذار[5]

وقال الشاعر نجم الدين يعقوب بن صابر[6] في وصف جارية :

وجارية عبـــــرت للطـــواف　　　وعبرتـــها جـــــذراً تـــدمــــعِ

---

(١) ابن النجار، ذيل، ج٢، ص٤٧.

(٢) الكتبي، فوات، ج١، ص٦٧.

(٣) مجهول، الحوادث، ص٣٢٥.

(٤) ابن العبري، مختصر، ص٢٧١.

(٥) ديوانه، ص٢٢٦.

(٦) هو نجم الدين يعقوب بن صابر البغدادي المنجنيقي، عاش اثنين وسبعين سنة، وصنف كتاب عمدة المسالك في سياسة الممالك، توفي سنة ٦٢٦هـ. الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٤٠.

فقلت أدخلي البيت لا تجزعي ففيه الآمـــان لمن يجـــــــزع
ســنته لــبني شيــــبـــــــة فقالت: ومــن شيبة أفـــــزع[1]

يمكــن القول أن المجتمع الإسلامي قد ألف وجود الجواري في البيوت على مســتويات اجتماعية مختلفة، لذلك أصبح الاقتران بالجواري غير معيب، فإذا أولد الـــرجل جاريـــته، نراه يعتز بأولادها، ولا يرى في الاعتراف بهم أي بأس[2]. فلو أُمعن النظر في جنسيات أمهات الخلفاء في هذه الفترة، نجد أنها لم تختلف عنها في العصـــر العباســـي الأول، فجميع الخلفاء من أبناء الجواري، فالناصر لدين الله ابن جاريه تركية مملوكة جلبها الجلابون من بلاد الترك إلى دار الخلافة، وكانت جارية للخلـــيفة المستضـــيء بأمر الله، وله جارية أخرى أسمها بنفشة، فأعتقهما فصارتا زوجتـــين ولقـــبت أم الناصـــر زمرد خاتون[3]. وأم الظاهر جارية تدعى قشوة[4]. والمستنصر بالله ابن جارية اسمها شيرين[5]. أما المستعصم بالله فأمه جارية هندية تسمى هاجر[6].

نالـــت بعـــض الجواري اللواتي يخدمن بدار الخلافة الرعاية والعناية من قبل الخلفـــاء، فكانت ست شمائل واسمها شجرة الدر التركية حظية عند الناصر مقربة إليه، وكانت تكتب خطاً جيداً، وتقرأ له المطالعات الواردة عليه عندما تغير نظره،

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧، ص٣٨.

(٢) فهد، العامة، ص٣٣.

(٣) ابـــن الساعي، نساء الخلفاء، ص١١١؛ ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٤٠ ؛ مصطفى جواد، سيدات البلاط، ص١٧٣.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ص٤١٢، ويذكر الإربلي أن أسمها كبقجة، ص٢٨٤.

(٥) الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٢٠.

(٦) المصدر نفسه، ص٥١٠.

ويملي عليها الأجوبة[1]، وكان عمر بن جلدك المطالعاتي من فراشي دار الخلافة، ويقوم بنقل مطالعات الخليفة إلى الوزير[2].

هناك ظروف خاصة تدفع إلى عتق الرقيق، ولعل على رأسها عامل الدين والعقيدة، وذلك لما للدين من تأثير في المجتمع الإسلامي، فالخليفة الظاهر بأمر الله والموصوف بالتقوى عندمـــا تولى الخلافة تقدم إلى وكيله أبي المظفر هبة الله الموسوي[3] في عتق خمسين جارية، فأعتقهن وأخرجهن بما كن يملكن، وجعل لكل واحدة في السنة مائة دينار[4]. وأعتق الأمير سليمان بن نظام الملك جميع مماليكه سنة (٦٣٦هـ/١٢٣٨م) بعد أن حضر مجلساً من مجالس ابن الجوزي بباب بدر[5].

يمكن القول أن الرقيق، وخاصة الجواري، ورغم أنهن يمثلون أدنى فئة العامة في السلم الاجتماعي، إلا أن بعضهن، قد أدى دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية وبالذات جواري الخلفاء صاحبات الحظوة.

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٩٧. ويذكرها القفطي "بست نسيم " .

(٢) مجهول، الحوادث، ص٣٠٠.

(٣) هــو فخر الدين أبو المظفر هبة الله بن علي الموسوي، صدر المخزن، ولي الوكالة للخليفة الناصــر، ثم ولي صدرية المخزن سنة ٦٢٠هــ، وأقره الظاهر، وبعده أقره المستنصر ثم عزله، توفي سنة ٦٣٣ هـ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٣، ص ٤٣٤.

(٤) ابن الكازروني، مختصر، ص٢٥٦.

(٥) مجهول، الحوادث، ص١٢٤.

الفصل الثانـــــي

التنظيمات الاجتماعيــة

أولاً- نقابات الأشــراف

ثانياً- الطرق الصوفيــة

ثالثاً- الفتـــوة

رابعاً-الأصنــاف

أولاً : نقابات الأشراف

الأشراف هم الذين ينتسبون إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم. ويطلق عليهم [أهل البيت][1]. وترجع هذه العبارة إلى الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[2]. ولكن منذ القرن الرابع الهجري حدد هذا اللقب بالطالبيين (العلويين)، والعباسيين (الهاشميين)[3]. ومن أجل رعايتهم وحماية مصالحهم، جعلت لهم الدولة نقابة خاصة. عرفها الماوردي بقوله[4]: "وهي موضوعة على صيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب، ولا يساويهم في الشرف، ليكون عليهم أحبى وأمره فيهم أمضى".

كان الفرعان من أهل البيت: العباسيون والطالبيون، يخضعون لنقيب واحد حتى القرن الرابع الهجري، وفي نهاية هذا القرن صار لكل فريق منهم نقيب. والسبب في ذلك يعود إلى أن أمر العباسيين بدأ بالضعف، وبدأ أمر العلويين بالقوة. ويكمن السبب في ذلك سيطرت البويهيون على بغداد (٣٣٤هـ/٩٤٦م) وهؤلاء شيعة زيدية. حتى أن معز الدولة بن بويه أراد نقل الخلافة إلى أبي الحس محمد بن يحيى الزيدي، فحذّره خواصه من سخط الناس ومخالفتهم، لأن عامة الناس في الأقطار قد اعتادوا الدعوة العباسية، ودانوا بدولتهم، وأطاعوهم طاعة الله ورسوله،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة شريف.

(٢) الأحزاب، الآيه٣٣.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة شريف.

(٤) الأحكام السلطانية، ص٤١٥. وقد قسمها إلى نوعين: خاصة وعامة، ففي الأولى ليس له إلا رعاية الأشراف دون تجاوز على ذلك. أما العامة، فبالإضافة إلى حقوق الولاية الخاصة، فله الحكـم بينهم، والولاية على أيتامهم، وإقامة الحدود، وتزويج الأيامى، وإيقاع الحجر على من سفه. ص١٥٤-٥.

ورأوهم أولي الأمر، فلم يقبل العلويون بالإشراف عليهم من قبل العباسيين[١].

لعدم وجود اختلاف بين النقابتين من حيث الشروط الواجب توفرها في النقيب، أو مهامه، سيكون الحديث عنهما شاملا، ولا نفصل بينهما إلا في حالة وجود اختلاف.

والنقيب هو الزعيم لأحد الأسرتين العلوية أو العباسية. ولقد كان هنالك شروط يجب أن تتوفر في المرشح للمنصب، منها: أن يكون عالما من أهل الاجتهاد والتقوى والصلاح، ومعرفة بمسائل الشرع، وإحاطة بأخبار العرب وأنسابهم وأصولهم، "فهو مرجع السادة وحافظ أنسابهم"[٢].

كان للنقابة جهاز إداري يتكون من النقيب، ونائب النقابة[٣]، ينوب عن النقيب في حالة غيابه أو سفره أو مرضه، فيتولى صلاحيات النقيب الكاملة. فقد ناب الشريف محمد بن طلحه أبو المظفر ابن نقيب النقباء المتوفى (٦١٠هـ/١٢١٣م) في ديوان النقابة للعباسيين بعد أخيه أبي الحسن، إلى أن تولاها أخوه أبو القاسم قثم[٤]. ومن الموظفين الكاتب، يكتب ما يمليه عليه النقيب من تثبيت أو إسقاط لأسماء، وكتابة كل ما يتعلق بالنقابة[٥]. وهناك العامل الذي يعمل على نظافة ديوان النقابة، وخدمة جهازها الإداري[٦].

---

(١) الدوري، دراسات في العصور العباسية، ص٢٤٨ .

(٢) ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص١٤٥؛ الدروبي، البغداديون، ص٢٨٢.

(٣) ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص١٤٦؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٥.

(٤) الذهبي، مختصر، ج١، ص٢٩٩.

(٥) الحسيني، غاية الاختصار، ص١٢٥.

(٦) ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص١٤٦.

للنقيب جملة من الواجبات التي من أجلها وضعت النقابة وهي: التحقق ممن يدعي النسب الشريف، فإذا أثبت ذلك ثبته في السجل، وإن لم يثبت أسقطه، ومن مات منهم أسقط أسمه، ومن وُلِدَ له ولدٌ أثبت أسمه في جريدة الديوان(١). كما عليه أن يسعى في حاجتهم، ويشيع جنازتهم كواحد منهم(٢).

كان جميع النقباء في العراق ومعظم الشرق الإسلامي يتبعون لنقيب النقباء، الذي يكون مقره بغداد، ويعين من قبل الخليفة، ويكتب مرسوم تعيينه الوزير(٣). هناك مراسيم خاصة يتم بها تقليد نقيب النقباء الطالبي أو العباسي. فبعد أن تتم موافقة الخليفة بإسناد المنصب لأحد الأشراف، يُستدعى النقيب الجديد إلى دار الوزارة، وبحضور كبار رجال الدولة كقاضي القضاة، وأستاذ الدار، وحاجب الباب، والمحتسب، يعلمه الوزير بإسناد المنصب إليه، ويقرأ عهده، ثم يخلع عليه خلعة النقابة.

وتشمل الخلعة "قميصاً أسود أطلس بطراز ذهب عريض سعة كمه ثلاثة أشبار، وعمامة وثوب بطراز ذهب، وطيلسان، ويقلد سيفا وسطانيا، ويقدم له حصان عربي أشقر بركب ذهب وسيف ركأبي، ويقرأ عهده ثم يركب متوجها إلى داره"(٤).

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٢٩٦ .

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ق١، ص٥٦٦؛ مجهول، الحوادث، ص٣٨؛ الذهبي، مختصر، ج٢، ص٢٢٣. ويتضح أن الخلعة كانت تشمل العمامة السوداء شعار العباسين، وكانت تخلع على نقيب الطالبيين شأنه شأن نقيب العباسين، باعتباره اللون هو الزي الرسمي للدولة .

وفي بعض الأوقات كان يتم تشريف النقباء بأن يسير إليه الموكب في جمع من الحجاب، وعلى رأسهم أحد كبار رجال الدولة لإبلاغه بالتعيين والتقليد. فلما عين الخليفة الناصر أبو علي الحسن بن أبي تميم معد في منصب النقابة (٦١٨هـ/١٣٢٠م) سار الموكب إليه وبصدره عارض الجيش سعيد بن عسكر الأنباري إلى داره بالمقتدية بعد موت والده بثلاثة أيام، وأعلمه أن الخليفة الناصر قلدّه منصب والده[١]. وعند حضور النقيب المعين إلى دار الوزارة للخلع عليه، ومشافهته بالنقابة، يأتي معه كبار الأشراف وعامتهم للاحتفال بهذه المناسبة، فينتظرونه خارج دار الوزارة، فإذا خرج وعليه الخلعة، عادوا معه إلى منزله[٢].

لم يكن شرطا الخلع على النقيب في نفس يوم التعيين في منصبه الجديد، بل نجد أنه ولظروف طارئة كان يتأخر إلى وقت آخر. فعندما عين الشريف محمد بن عبد الله بن علي بن المعمر في سنة (٥٨١هـ/١١٨٥م) لم يخلع عليه في نفس الوقت، ولا كتب عهده، وبقي على ذلك شهرين حتى خلع عليه في يوم عيد الفطر[٣]

أما المرسوم الذي كان يصدر عند توليه النقيب، فقد أورد ابن الساعي واحداً منها. وكان هذا المرسوم يتعلق بنقيب العلويين أبي الحسن فخر الدين محمد بن المختار الكوفي. وقد كُتب هذا العهد في السابع عشر من ربيع الأول سنه (٦٠٣هـ/١٢٠٦م) بخط أبي الحسن محمد بن محمد بن عبد الكريم القمي كاتب الإنشاء حينئذ، ومن إنشائه. بدأ العهد بالبسملة، ثم ذكر أنه صادر من الخليفة الناصر إلى النقيب المذكور آنفا، "بعد أن وجده مرضي الأخلاق، متمسكا بالديانة،

---

(١) مجهول، الحوادث، ص١١٩ .

(٢) ابن الدبيثي، ذيل، ج٢؛ ص٢٧ .

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦- ٧.

وأنه قلده نقابة الأسرة العلوية بمدينة السلام، وسائر بلاد الإسلام شرقاً وغرباً وبعداً وقربا ً".

ثم أورد السياسة التي رسمها الخليفة الناصر للنقيب الجديد في عمله من خلال المرسوم، فقد[1]:

١ . أمره بتقوى الله ومراقبته في السر والعلن.

٢ . أمره أن يتأمل أحوال من فوض أمره من أهل بيته إليه، فمن كان منهم رشيد المنهج، متلحيا من الدين والعلم بما يناسب نسبه، ويلائم محتده أن يكرمه ويخصه بالأنعام والتودد والاحترام، وأما من بدر منه بادرة أو عثرة أقالها، ومن وجده ذاهبا في مجال الجهالة، وسادراً في مهاوي الضلال واجهه بالتقريع وزجره بالإخافة والوعيد .

٣ . أن يتكفل أمر اليتامى وينفق عليهم بالمعروف، فإذا بلغ الرشد سلم إليه ماله.

٤ . النظر في أمر الأيامى، وتزويجهن من الأكفاء .

٥ . وأمره بصون النسب الكريم، فمن انتحل النسب، عليه أن يتأكد من نسبه، ويتثبت من ذلك باستشارة الشيوخ، فأن وجده ماكرًا وجب تأديبه وردعه .

كان نقيب الأشراف شأن غيره من موظفي الدولة العباسية يشغل أحياناً وظيفة أخرى إلى جانب وظيفته الرئيسية كالإشراف على المخزن. فالنقيب أبو الحسن علي بن أبي تميم معد، كان قد ناب عن والده في الإشراف على المخزن في أيام الخليفة الناصر لدين الله، فلما توفي والده سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م) وليّ النقابة للطالبيين مع وظيفته الأخرى إلى سنة(٦٢٣هـ/١٢٢٦م) فعزله الخليفة الظاهر من إشراف المخزن، ثم عزله عن النقابة في العام التالي، ثم أعيد إلى إشراف

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ١٩٤.

المخزن في أيام الخليفة المستنصر سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) وعزل عنه مرة أخرى سنة (٦٢٩هـ/١٢٣١م) ولم يستخدم بعدها[١].

كان منصب أمير الحاج في العصور العباسية الأولى يسند إلى نقيب الطالبيين ببغداد، أو أحد كبار الأشراف العلويين، واستمر على ذلك حتى القرن الخامس الهجري. ولكن مع نهاية هذا القرن أصبح أمراء الحج يختارون من بين الأمراء الأتراك المماليك[٢]. و يمكن أن نرجع هذا إلى أنه سياسة السلاجقة في محاربة التشيع بعد قضائهم على البويهيين الشيعة، حاولوا الحد من نفوذ الشيعة في العراق؛ لذا أبعدوهم عن المناصب في الدولة ومنها منصب أمير الحج.

لم يكن شرطاً فيمن يتولى نقابة النقباء في بغداد أن يكون من أشرافها، بل يمكن أن يتولاها من هم من مدن العراق الأخرى، أو الأقاليم المجاورة، فلما ملك خوارزم شاه علاء الدين تكش الري، قتل نقيبها، فهرب ولده المهدي بن حمزة[٣] ومعه نائب والده في النقابة نصير الدين بن مهدي العلوي، قاصدا بغداد، ومستجيرا بالخليفة الناصر لدين الله مما حل بهم من بطش خوارزم شاه، فتلقاه الخليفة بالترحاب، ثم ولّاه نقابة الطالبيين بالرّي، وبعد أن خلع عليه عاد إلى الري[٤] بعد أن عادت إلى أملاك الخلافة من جديد. أما نصير الدين بن مهدي العلوي، وكان من عقلاء الرجال، قربه الخليفة الناصر، فرآه عاقلاً لبيباً سديداً، وصار يستشيره سراً فيما يتعلق بملوك الأطراف، فوجد عنده خبرة ودراية بسلاطين العجم، فرتبه

(١) مجهول، الحوادث، ص١١٩-٢٠؛ الحسيني، غاية الاختصار، ص٨١ .

(٢) فهد، تاريخ العراق، ص٢٦٠ .

(٣) ابن الطقطقا ا ، الفخري، ص٣٢٥ .

(٤) الحسيني، غاية الاختصار، ص١١٩ .

نقيباً للطالبيين في بغداد[1]. كذلك علم الدين أبو محمد الحسن بن أبي الحسن الأقساسي العلوي، كان نقيب العلويين بالكوفة حتى سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م) ثم قدم إلى بغداد، وولي نقابة الطالبيين، وبقي فيها حتى عزل سنه (٥٩٣هـ/١١٩٦م)[2].

استغل بعض النقباء – شأن غيرهم من كبار الموظفين– مناصبهم وقربهم من الخلفاء في الكيد لكبار رجال الدولة. فلما وليَّ نصير الدين بن مهدي النقابة، أخذ بالكيد والدّس ضد الوزير ابن حديده، ويحرض الخليفة عليه حتى عزله من منصبه، ولما ولّي ابن مهدي الوزارة سنة (٦٠٢هـ/١٢٠٥م) اعتقل ابن حديدة بداره، وهمّ بتعذيبه مما دفع ابن حديدة إلى الهرب، وأقام بمراغة[3] حتى عزل ابن مهدي سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) فعاد إلى بغداد[4]. كما أساء السلوك مع كبار مماليك الخليفة الناصر لدين الله أمثال الأمير مظفر الدين المعروف بوجه السبع[5]، والأمير قشتمر[6]، حتى اعتبر ذلك من أسباب عزله من الوزارة[7].

كان لعلو مكانة نقيب الأشراف أن انتدبه الخليفة لاستقبال الرسل وكبار الزوار القادمين من ملوك الأطراف إلى بغداد. فقد أوعز الخليفة المستنصر بالله إلى نقيب العلويين الشريف الحسين الأقساسي بالخروج على رأس موكب الديوان للقاء الأمير

---

(١) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٥؛ الحسيني، غاية الاختصار، ص٣٦٢.

(٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٥٧٧ .

(٣) مراغه: أعظم بلاد أذربيجان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٩٣ .

(٤) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٥؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٣٢١؛ الحسيني، غاية الاختصار، ص٣٦٢ .

(٥) الذهبي، العبر، ج٣، ص٤٩ .

(٦) ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص٦١ .

(٧) المصدر نفسه والصفحة .

ناصر الدين داود بن الملك المعظم عيسى بن الكامل أبي بكر بن أيوب[١]. وكذلك خرج النقيب نفسه في سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) إلى لقاء الأمير ركن الدين إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل[٢].

حرص الخلفاء على الإنعام على النقباء، ليكونوا تحت تصرفهم، بعيدين عن معاداتهم، فأرسلو لهم الهدايا والأموال. فقد أنعم الخليفة المستنصر بالله على النقيب مجد الدين أبي القاسم هبة الله بن المنصوري سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) بدار في دار الخلافة ليسكنها، وأنعم عليه أيضا بخمسمائة دينار[٣].

كان بعض الذين أُسندت إليهم النقابة زاهداً متصوفاً، مصاحباً للفقراء. يقول صاحب الحوادث[٤] في وصف حال النقيب أبي القاسم بن هبة الله: "كان من أعيان عدول مدينه السلام، وأفضل أرباب الطريقة المتكلمين بلسان أهل الحقيقة، كان يصحب الفقراء دائما، ويأخذ نفسه بالرياضة والسياحة والصوم الدائم والتخشن والتباعد عن العالم، فلما أُسند إليه منصب نقابة العباسيين سنه (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) كان ذلك موضع انتقاد من قبل تلاميذه ومريديه، فعمل بعضهم أبياتاً طويلة في انتقاده منها:

ناديت شيخي من شدة الحرِّ   وشيخنا في الحريـر والذهب
في دسـته جـالسا ببسملة   بين يـديـه إن قـام في أدب
وركبة منه كـنـت أعهده   يـذم أربـابـهـا على الرتب

---

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٧٠ .

(٢) مجهول، الحوادث، ص٧٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٨؛ الغساني،العسجد المسبوك، ص٤٥٢.

(٤) ص ٣٨.

إلى أن يقول:

قد كنت ذاك الذي تظن به لــو لــم تكن مسرعــاً إلى الرتب
شيخي أين الذي يعلمنا الز هــد ويــعــتــده مــن الــقــرب
أين الذي لم يزل يعرفنا فــضــل التعري بــالجوع والتعب
أين الذي لم يزل يرغبنا في الصوف لبساً له وفي الجشب(١)

شارك النقباء في السياسة الخارجية للدولة العباسية، كرسل من الديوان الخلافي إلى ملوك الأطراف، فعندما طلب السلطان صلاح الدين الأيوبي المساعدة والعون من أمراء وسلاطين الإسلام، أرسل يطلبه من الخليفة العباسي الناصر لدين الله، لمواجهة الصليبيين أثناء حصارهم لمدينة عكا سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) فأرسل الخليفة النقيب الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن(٢) ببغداد ومعه حملان من النفط، وتوقيع بعشرين ألف دينار تقترض من بعض التجار على حساب الديوان، وخمسة من الزرافين المتقنين صناعة الإحراق بالنار(٣)، فقبل صلاح الدين الأيوبي النفط ورد التوقيع قائلاً: "كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد للجهاد، لكانت محمولة إلى الديوان". ثم أركب السلطان صلاح الدين النقيب رسول الخليفة معه مراراً ليشاهد المعارك، حتى يشهد بما رآه إذا عاد إلى بغداد(٤).

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٣٨-٩ .

(٢) باب التبن: محلة كبيرة في بغداد على الخندق بإزاء قطعيه أم جعفر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٠٦ .

(٣) العمــاد، الفــتح القسي، ص٣٦٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٣١٤؛ ابن الفرات، تاريخ، ج١ص٢١١ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة .

لم تقتصر نقابات الأشراف على بغداد، بل كان لهم نقابات في مختلف أمصار العالم الإسلامي التي يتواجد بها الأشراف، فكان لهم نقابة: بمصر، وبلاد الشام[١]، والعراق[٢]، وأذربيجان، والري[٣] وغيرها من المدن.

وفي العراق كان لهم نقابات بمختلف المدن. فكان للطالبيين نقابات في كل من البصرة[٤]، وكربلاء[٥]، والموصل[٦]، والمدائن[٧]، وواسط[٨]، وفي المشاهد والمحلات التي يكثر بها الشيعة كالكرخ[٩]، ومشهد موسى بن جعفر[١٠]، ومشهد مقابـــــر قريش[١١]، ومشهد الحسين بن علي في كربلاء كما ذكرنا.

---

(١) وكانت النقابة بمصر وبلاد الشام تابعه للأيوبيين، ويتم تعينهم من قبل السلطان الأيوبي

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٨١ .

(٣) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٥ .

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٨١ .

(٥) فهد، تاريخ العراق، ص٢٠٤ .

(٦) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٦٦ .

(٧) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٢٣٨ .

(٨) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٦٧ .

(٩) ابـــن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص٤٧، ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٢٣٨

(١٠) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٨٥.

(١١) الحسيني، غاية الاختصار، ص٩١. مقابر قريش: تقع بالجانب الغربي من بغداد وأول من دفـــن فـــيها موسى بن الخليفة المنصور. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص١٢١؛ مجهول، مناقب، ص٢٨ .

أما العباسيون، فقد كان لهم نقابات منتشرة في المدن التي يكثروا بها، فكان لهم نقابات في: مصر والحجاز(١). وفي العراق، فلهم نقابات، في: البصرة(٢)، وواسط. وممن تولى نقابة واسط أبو طالب محمد بن عبد الله الرشيدي، مضافا إليه الخطابة والصلاة على عادة أسلافه (٣).

كان نقيب النقباء ببغداد هو المسؤول عن ترشيح نقباء المدن والمشاهد، داخل العراق وخارجه. فلما قدم محمد بن إسماعيل بن محمد العلوي الموسوي من مرو(٤) رسولا من ملك غزنة شهاب الدين أبي المظفر الغوري سنه (٥٩٧هـ/١٢٠٠م) أكرم مثواه، و لما قرر العودة، عين بمشورة نقيب النقباء نقيبا للطالبيين بمرو وما يليها، وخلع عليه خلعة النقابة(٥). كما أنه لما دخل خوارزم شاه علاء الدين تكش الري، قتل نقيبها، فهرب ولده إلى بغداد، فأقام بها مده ، ثم خلع عليه خلعة النقابة وعاد إلى الري(٦).

يظهر أن النقابة مثل الكثير من الوظائف الأخرى التي يتوارثها أبناء أسره معينة لفترة طويلة. ومن العائلات التي اشتهرت بتولي النقابة: عائلة الزينبي(٧) العباسية، وعائلة الأقساسي(٨) العلوية.

---

(١) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ص٢٦ .

(٢) فهد، تاريخ العراق، ص٢٣١ .

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٦١؛ فهد، تاريخ العراق، ص٢٣٢ .

(٤) مرو: أعظم المدن خراسان وهي قصبتها. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١١٢ .

(٥) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص١٧١ .

(٦) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٥ .

(٧) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٥، ص١٨٥.

(٨) الذهبي، مختصر، ج١، ص١٢٨.

أوردت المصادر أسماء الذين تولوا نقابة النقباء في بغداد من الطالبيين والعباسيين. فممن تولى نقابة الطالبيين: محمد بن عبد الله بن أحمد بن المعمر بن أبي الغنائم. تولاها بعد أبيه في سنة (٥٨١هـ[١]/١١٨٥م) وبقي فيها إلى أن عزل في ذي القعدة سنة (٥٨٨هـ[٢]/١١٩٢م). وعلم الدين أبو محمد الحسن ابن أبي الحسن علي بن حمزة الأقساسي الكوفي[٣]، الذي كان نقيباً بالكوفة حتى سنة (٥٦٨ هـ[٤]/١١٧٢م)، ثم ولّي نقابة النقباء ببغداد وبقي فيها إلى أن عزل سنة (٥٩٣ هـ[٥]/١١٩٦م). وكان شاعرا، امتدح الخلفاء والوزراء، منهم الخليفة المقتفي بالله، والمستنجد والمستضيء والناصر لدين الله، فولاه الخليفة الناصر النقابة، "وكان شيخاً مصيباً جاوز الثمانين"[٦]. وتولى النقابة أيضا محمد بن عدنان بن عبد الله بن عمر، ويعرف بابن المختار، قدم بغداد وصاهر أبا القاسم علي بن طراد الزينبي، ولي النقابة سنة (٦٠٣هـ[٧]/١٢٠٦م) وبقي فيها إلى أن توفي سنة (٦١٢هـ[٨]/ ١٢١٥م).

وممن تولاها أيضاً قوام الدين أبو علي الحسن بن معد الموسوي، ثم عزله الخليفة المستنصر بالله، وقلد بعده قطب الدين أبا الحسين بن الأقساسي، وبقي حتى

---

(١) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ص٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦؛ الذهبي، مختصر، ج٢، ص٣١١.

(٣) أبو شامة، الذيل، ص١١؛ ابن الفوطي، تلخيص، ج٤، ق١، ص٦٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ق١، ص٥٧٧.

(٥) المصدر نفسه والصفحة؛ ابن كثير، البداية، ج١٣، ص١٨.

(٦) المصدر نفسه والصفحة.

(٧) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٩٣؛ الذهبي، مختصر، ج١، ص١٢٨.

(٨) المصدر نفسه، ج١، ص١٢٨.

آخر أيام المستنصر بالله[1]. وفي سنة (٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م) قلّد الخليفة المستعصم بالله نقابة الطالبيين أبا علي تاج الدين الحسن بن المختار، وخلع عليه بدار الوزارة[2]، وتولاها إسماعيل بن الحسن بن المختار عوضا عن والده، ثم تولاها أخوه أبو علي الحسن بن المختار (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م).

أما الذين تولوا نقابة العباسيين، فهم: أبو العباس أحمد بن يوسف المعروف بابن الزوال، تولاها مضافة إلى خطابة جامع القصر، إلى أن عزله المستضيء سنة (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) ثم أعاده الناصر لدين الله في يوم توليته الخلافة سنة (٥٧٥ هـ/ ١١٧٩م)، وبقي فيها إلى أن عزل سنة (٥٨٣هـ[3]/ ١١٨٧م). وتولى النقابة العباسية أيضاً قثم بن طلحة الزينبي، وقد تولاها مرتين: الأولى في أيام المستضيء سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) وعزل عنها سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م). والثانية في صفر سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م). وولي بعدها حجبة باب النوبي[4]، وأبو طالب الحسن بن أحمد بن علي بن أحمد المهتدي بالله. تولى الخطابة بجامع القصر بعد وفاة والده، ثم فوض إليه النظر في ديوان النقابة العباسية، وبقي فيها إلى أن توفي سنة (٦٤٢ هـ/١٢٤٤م) وتقلدها في عام (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) شمس الدين علي النسابة[5] ولما دخلت جيوش المغول إلى بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، كان في جملة من قتل نقيبا العباسيين الشريف الشمس أبو الحسن علي وكان عمره نحو ثلاثين سنة، والطالبيين الشريف أبو علي بن المختار[6].

---

(١) مجهول، الحوادث، ص١٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٣ ؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٥٠.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٥، ص٢٢٣٢؛ الذهبي، مختصر، ج٣، ص١٦١.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٣١.

(٥) المصدر نفسه، ص٦٠٤.

(٦) المصدر نفسه، ص٦٣٧-٨.

ثانيا : الطرق الصوفية

ظهرت حركة الزهد في أول أمرها قريبة من الإسلام، ثم أخذت تكبر وتتسع. وقد برزت طائفة من الزهاد قام زهدها على الخوف والبكاء بسبب إحساسها العميق بالخوف من الذنوب والآثام، والرعب من سخط الله في الآخرة، وسمي هؤلاء بالزهاد البكائين. ثم ظهر تيار التصـــوف امتدادا لحركة الزهد القريبة من الدين الإسلامي، حتى أصبح مذهبا منظما في الجزء الأخير من القرن الثالث الهجري. ثم تأثر هذا التيار بمعتقدات مسيحية وهنديـــة وفلسفية، فغدا التصوف يعني الإنقطاع إلى العبادة، وترك الكسب وهجرة الحياة الاجتماعية[١].

وقف أهل السنة من التصوف الجديد موقفاً يدل على ضرب من المعارضة والاستنكار، حتى جاء الإمام الغزالي في النصف الأول من القرن السادس الهجري، فاستطاع أن يوفق بين مذهب أهل السنة وبين موقف الصوفية[٢].

هناك أسباب ساعدت على انتشار الحركات الصوفية، منها: تعاظم الأخطار على العالم الإسلامي كالخطر الصليبي والمغولي، وازدياد وطأة المظالم السياسية والاقتصادية على الناس، وتفشي الأوبئة والكوارث وشيوع الجهل، وما كان يقوم به الوعاظ في هذا العصر من ذم الدنيا، وتحذير الناس منها، ورسم صورة مخيفة لمشاهد يوم القيامة، وتهويل عقاب الله وعذابه بحيث ألقوا الرعب والفزع في النفوس، وتركوا الناس يعّضون أصابعهم ندماً. ذكر ابن جبير وصفا لما كان يتركه الواعظ ابن الجوزي في نفوس مستمعيه، حين حضر أحد مجالسه، فقال: "وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته

---

(١) العبود، الشعر العربي في العراق، ص٢٥٧- ٨

(٢) نيكلس، في التصوف الإسلامي، ص٨٤. الرحلة، ص١٧٧.

بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعياً له.

سبب آخر ساهم في شيوع التصوف تمثل بدعم الحكومة لهذا الاتجاه السلبي في الحياة السياسية. فهدف الصوفية كان العزلة والاعتكاف، للقيام بعبادة الله سبحانه وتعالى، حتى لا يشغلهم عن ذلك شاغل، وتأثيرهم على العامة من أفراد المجتمع الذين ينظرون إليهم نظرة قدسية، سرعان ما يتحركون استجابة لأي نداء من كبارهم. فأرادت الحكومة من العناية بالصوفية، محاولة تسخير هذه القوة لمصلحتها. فبنت لهم الربط[1]، وأنفقت عليهم الموارد الكثيرة، حتى غدت الأربطة مناخاً للبطالة، وملاجئ يأوي إليها الفقراء والمعوزون واليتامى والعاطلون يحصلون فيها على المسكن والطعام[2].

كما عطت آراء بعض كبار الصوفية (رخصة) لطالبي البطالة والكسل، فحين يتحدث الشيخ السهروردي عن فكرة الاتكال على الله، يبالغ فيه، لقعود الصوفي عن العمل والكسب، بحجة اتكاله على ما يبعثه الله إليه من الرزق، لأنه منقطع للعبادة. هذه المبالغة توحي للناس بترك العمل والكسب، والدعوى إلى البطالة انتظاراً لما يبعثه الله[3].

رغم موقف الخلافة الداعم والمؤيد لحركة التصوف، إلا أننا نجد صدا لروح معارضة سلبية في أقوال وأفعال بعضهم. فالشيخ الرفاعي كان يقول: "تجارتي

---

(١) الربط: جمع رباط وهو دار يسكنها أهل طريق الله، والرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطا، ثم تطور مفهوم الرباط إلى جهاد للنفس واصبح بيت يقيم فيه الصوفية، المقريزي، الخطط المقريزية، ص ٢٩٢.

(٢) العبود، الشعر العربي في العراق، ص٦٢ .

(٣) عوارف المعارف، ص١٥٤.

خدمة النساء والأرامل، وأحب أن أشهد في خدمتهم". ومن أقوله أيضاً: "لا تتواضع للأغنياء ولأبناء الدنيا، ولا تنهض لهم ولا تقرب أبوابهم، وإن دعوك... إن أبناء الدنيا إن أكرمتهم أهانوك، وإن أحببتهم أبغضوك". وقال: "لا تخالط أهل الكبرياء ولا تقرب السلطان، ودعاة الباطل" [1]. كما كان الشيخ عبد القادر الجيلي لا يقوم لأحد من أعيان الدولة، ولم يزّر باب وزير ولا أمير، ويرى الجلوس على بساط الملوك ومن داناهم ضرباً من العقوبات[2]. يتضح لنا مما تقدم أن التصوف في هذا العصر لم يكن اتجاهاً دينياً فحسب، بل كان يحمل مضموناً سياسياً واجتماعياً.

فالمضمون السياسي يظهر في روح المعارضة السلبية التي مارسها كثير من المتصوفة مع الحكام وأصحاب الثراء، وفي دعوتهم إلى الابتعاد عن أصحاب السلطان ودعاة الباطل. أما المضمون الاجتماعي، فيظهر في تحول الربط إلى أماكن تأوي كثير من العاطلين. ويظهر كذلك في اتجاه بعض الطرق الصوفية اتجاهاً شعبياً يحنوا على البائسين واليتامى والأرامل والمعوزين كما هو واضح في الطريقة الرفاعية.

حرص الخلفاء على إنشاء الأربطة في أماكن مختلفة من بغداد، ووقفها على المتصوفة، فالخليفة الناصر لدين الله أمر بإنشاء مجموعة من الربط منها: رباط الأخلاطية[3] بمشرعة الكرخ مجاور مشهد عون ومعين[1]، وأنشأ إلى جانبه تربة،

---

(١) عزام، أقطاب التصوف، ص٣٣.

(٢) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج١، ص١٢٨- ١٢٩.

(٣) ويسمى رباط الخلاطية، بناه الخليفة الناصر لزوجته سلجوقة خاتون سنة٥٨٤هـ، وبجواره بنى تربة لها، ويقع هذا الرباط على شاطئ دجلة بمشرعة الكرخ من الجانب الغربي من بغداد. ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٢٦؛ الإربلي، خلاصة الذهب، ص ٢٨٢، جواد، الربط البغدادية، ص٢٣٤.

ورباط الحريم الطاهري[٢]، ورباط المرزبانية[٣].

علل بعض المؤرخين إنشاء الخليفة الناصر لهذا الرباط، بأنه عزم على (أن ينقطع فيه ويترك الخلافة زاهدا بالدنيا) وكتب في ذلك كُتباً بليغة لتقرأ على الناس، ولكنه تراجع عن هذه الخطوة[٤] ولم يُعلم السبب في ذلك.

ولكثرة المتصوفات من النساء في بغداد، أنشأ الخليفة الناصر رباطاً خاصاً لهن، وسماه رباط دار الفلك[٥]، ورتب فيه ابنة السيد العلوي[٦] شيخة له، ويُقال له بيت الخدور[٧]. ولما استولى هولاكو على بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨) صدر من وزيره أمرٌ إلى الجاثليق بالاستيلاء على دار الفلك مع غيرها من الدور المجاورة[٨].

---

(١) يقـول ابن جبير في وصف هذا المشهد: "وفي الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيل البنيان داخله قبر متسع السنام، عليه مكتوب: هذا قبر عون ومعين، من أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. الرحلة، ص١٨٠-١.

(٢) أنشـأه سنة ٥٨٩ هـ، في محلة الحريم الطاهري وأسكنه الصوفية وخصص لهم الجرايات من الطعام. سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٤٢٢؛ الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٢؛ جواد، الربط البغدادية، ص٢٤٢ .

(٣) يقع الرباط على نهر عيسى بالجانب الغربي من بغداد. مجهول، الحوادث، ص٧٤ .

(٤) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٢؛ الذهبي، تاريخ، ط٦٣، ص٨٦ .

(٥) يقـع هذا الرباط بالجانب الشرقي على نهر دجلة مجاوراً لدار الأمير علاء الدين الطبيرسي الظاهري. مجهول، الحوادث، ص٢٦٥ .

(٦) هـو السيد علي بن المرتضي بن علي العلوي الحسني، مدرس جامع السلطان وكان رئيس الحنفية في زمانه. جواد، الربط البغدادية، ص٢٤٤ .

(٧) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٤٠٨ ؛ جواد، "المعاهد النسوية"، في التراث العربي، ج١، ص١٠٩ .

(٨) مجهول، الحوادث، ص٣٣٤ .

وقد بلغ من تقرب الناصر من الصوفية أنه عمل ثيابا كزي أهل التصوف كان يلبسها ويتردد بها عليهم في الرباط الذي أنشأه لهم، بل إنه اتخذ له دارا مجاورة للرباط(١).

وأنشأ الخليفة المستنصر بالله رباط دار الروم بالجانب الشرقي من بغداد(٢). وتم افتتاحه سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) وأسكنه جماعة من الصوفية، وجعل المشيخة للشيخ أبي صالح نصر بن عبد الرزاق الجيلي(٣).

وشيّد الخليفة المستعصم بالله رباطاً نسوياً سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) بدار الشط(٤)، وأسكنه النساء المتصوفات، وجعل مشيختة للشريفة العباسية التي يرجع نسبها إلى الخليفة المكتفي(٥).

لم يقتصر إنشاء الربط على الخلفاء، بل شاركهم فيها أفراد الأسرة العباسية والأمراء، فأنشأت أم الناصر لدين الله زمرد خاتون رباط المأمونية(٦).

---

(١) الذهبي، تاريخ، ط٦٣، ص٨٦. وأشار ابن الساعي إلى أن الناصر همّ بترك الخلافة والانقطاع للتعبد، وكتب بذلك توقيعاً قُرئ على الأعيان. وقد وجد بشار عواد هذا التوقيع في كتاب ابن الساعي أخبار الزهاد لموجود في دار الكتب المصرية، ونشر بحثاً بعنوان "العثور على أثر مفقود لابن الساعي"، مجلة المورد، بغداد، عدد٣، مجلد، ١٩٩٤، ص ٢٩٩- ٣٠٧.

(٢) محلة دار الروم: بيعة كبيرة، للنسطورية خاصة ببغداد بالجانب الشرقي. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥١١ .

(٢) ابن الكازروني، مختصر، ص٢٦١.

(٣) دار الشط: هي دار الأمير علاء الدين الطبيرسي المعروف بالدويدار الكبير، وتقع بالجانب الشرقي على شاطئ دجلة. جواد، الربط البغدادية، ص٢٤٣.

(٥) مجهول، الحوادث، ص٢٧٤، جواد، الربط البغدادية، ص٢٤٣ .

(٦) نسبة إلى محلة المأمونية تم افتتاحه سنة ٥٩٠ هـ. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٠٣

ونظراً لكثرة الربط، وكثرة المشايخ الذين كانوا يرتبون بأمر الخليفة، ويعزلون بأمر منه أيضاً، فقد استحدث منصب "شيخ الشيوخ". وممن تولى هذا المنصب صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل (ت ٦٠٠هـ[١]/١٢٠٣م). وأبو البركات إسماعيل[٢]، وشمس الدين عبد الرحمن[٣]، وعماد الدين محمد ابن شهاب الدين السهروردي[٤].

كان الرباط مسكناً الصوفية، وفيه ينزل الغرباء منهم، وكان محلاً للدراسة، يقرأ فيه القرآن الكريم[٥]. كما كانت تقام فيه (أعراس) الصوفية أي الاحتفال بوفاة أحدهم، حيث أنهم كانوا إذا مات رجل منهم، عملوا وليمة كبيرة، يدعون عليها كبار رجال الدولة[٦]. وعملوا بالربط حفلات الذكر والسماع كما يسمونه، حيث يغني مغنيهم (ويسمى القوال) ويرقص راقصهم على طريقتهم، فيطرب الصوفية. وكثيراً ما كان يقوم أحد الجالسين للسماع فيصرخ متواجداً ثم يسقط ميتاً[٧].

ولما كانت الربط تقدم الطعام من أوقافها الخاصة، نجد أن كثيراً من الكسالى يأوون إليها. ومن هنا نجد السهروردي يحاول أن يفرق بين الكسالى وغيرهم، فيقول: أن المفروض بمن يسكن الرباط، ويأكل مما يقدم فيه أن يكون من الصادقين الصالحين، الذين شغلوا بذكر الله، والعبادة عن العمل والكسب[٨]. إلا أن واقع الحال

---

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١١٧ .

(٢) الذهبي، المختصر المحتاج إليه،ج١، ص٢١٨.

(٣) مجهول، الحوادث، ص١٤.

(٤) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج ٤، ق٢، ص٨٣٩.

(٥) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٥٧.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٣٧.

(٧) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١١٧.

(٨) السهروردي، عوارف المعارف، ص١١٥.

لا بد أن يكون غير ذلك، إذ إن من الصعب التمييز بين هؤلاء الصادقين وبين من يأوي من الكسالى لأجل الطعام.

ومن جوانب اهتمام الخلفاء بالمتصوفة تقريبهم لهم، وجعل بعضهم من حاشيتهم ومعاونيهم، ورسلهم إلى ملوك الأطراف فكان شيخ الشيوخ شهاب الدين السهروردي رسولاً بين الخليفة الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين بالشام. فلما طلب صاحب الموصل سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م) مساعدة الخليفة بالتدخل لمنع صلاح الدين من الاستمرار بحصار الموصل، أرسله الخليفة في وساطة لتحقيق الصلح[١]. ولما مات ابن السهروردي، أمر الخليفة الناصر أن يسير إلى رباطه[٢] جميع أرباب الدولة[٣]. ولمكانته عند الخليفة الناصر فوّض إليه مشيخة رباط المرزبانية الذي أنشأه (لينقطع فيه). وبنى له إلى جواره داراً واسعة وحماماً وبستاناً ليسكنها أهله، وأرسله سفيراً إلى عدة جهات[٤]. وكان الملوك يبالغون في احترامه وتعظيمه اعتقاداً فيه وتبركاً[٥]. ألّف السهروردي كتاب" عوارف المعارف "في ضبط قواعد التصوف، وبقي على هذه المكانة والاحترام حتى توفي سنة (٦٣٢

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٣٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٥٥؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص١٩٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٨٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٩٧ .

(٢) ينسب هذا الرباط لأبي سعد الصوفي (ت ٤٧٧هـ) ويقع بمحلة نهر المعلى .

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٣٢ .

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٦٦- ٧؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٦٧٩؛ الذهبي، مختصر، ج٢، ص١٠٨-٩، مجهول، الحوادث، ص٧٤، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص١٥٣-٤.

(٥) مجهول، الحوادث، ص٧٤ .

هـ[1]/١٢٣٤).

ومن مظاهر الاهتمام بالصوفية تكريم شيوخهم، فإذا قدم أحدهم إلى بغداد أو عاد من سفر خرج موكب الديوان للقائه، فلما عاد عبد الواحد بن عبد الوهاب المعروف بابن سكينة، خرج موكب الديوان للقائـــه، وبعدها أُرسل من قبل الديوان رسولاً إلى كيش[2]، فتوفي في الطريق سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م)[3].

وكان للشيخ عبد العزيز بن دلف بن الخازن المعروف بالناسخ (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) شيخ رباط الحريم الطاهري الحظوة عند الخليفة المستنصر بالله، وكان يقضي حوائج الناس عنده وعند غيره[4].

ولماّ تولى الخليفة المستعصم الخلافة سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) حرص على تفقد الصوفية والأولياء، فقصد مشاهدهم وربطهم ووزع عليهم الأموال والهدايا[5].

وكان الشيخ شمس الدين أبو المظفر علي بن النيار الفقيه الصوفي مختصاً بخدمة الخلفاء منذ صغره، وهو الذي تولى تأديب المستعصم، فلما أفضت الخلافة إليه عرض عليه منصب الوزارة بعد أن شغر بوفاة الوزير أحمد بن الناقد، فأبى ذلك وقال: "إني عاهدت الله أن لا أغير لبس المتصوفين، ولا أنزع عني ما تعودته". ففوض إلية مشيخة الشيوخ ببغداد، وسلم إليه رباطاً، ثم أضيف له مشيخة

---

(١) ابن النجار، ذيل تاريخ العراق، ج ١، ص٥٦.

(٢) وهـــي جزيرة في البحر من أعمال عمّان، وتعد من أعمال فارس لان أهلها فرس . ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٩٧.

(٣) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص٥٦-٧٠.

(٤) مجهول، الحوادث، ص١٣٤ .

(٥) المصدر نفسه، ص١٧٠ .

رباط المرزبانية[1].

لم يقتصر التصوف على الفقراء في هذه الفترة، بل نجد أن أبناء الأمراء والأعيان يتوجهون إلى الربط للانقطاع والتصوف، أمثال: أحمد بن على بن بختيار ابن عبد الله الذي انقطع في رباط والده[2]، وكان والده يقيم بباب الجعفرية حتى توفي فيه سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) ودفن في نفس الرباط[3].

شمل التصوف أيضاً التجار والعسكر. فقد جاء عن محمد بن علي بن الحسن بن الرأس الصوفي أنه كان ابنا لتاجر، ثم صحب الصوفية حتى وفاته سنة (٦٠٩ هـ[4]/ ١٢١٢م). وكان أبو الحسن ورام بن أبي فراس الحلّي (ت٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨م) زاهداً متعبداً، وكان أولاً جندياً، عكف على عمل الخير والعبادة وعلى قراءة القرآن، ومداومة الصيام، حتى عظم في أعين الناس، وصار يقصده -كما أشرنا سابقاً- أكابرهم وعامتهم للتبرك[5].

في ظل الجو السياسي القلق، لجأ العوام إلى الزهاد والمتصوفة، وآمنوا بهم وبمعتقداتهم، واعتبروهم أولياء الله، تحل بركاتهم عليهم، فأكثروا من زيارتهم والتبرك بهم، حتى لو خرقوا الشريعة، وخرجوا عن حدودها[6]. وكان بعض العوام

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٨٤ - ٦ .

(٢) أنشأه علي بن بختيار بن عبد الله ابن الحسن الكاتب المتوفى سنة ٥٩٠ هـ، بمحلة الجعفرية بالجانب الشرقي من بغداد. ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، مخ، ورقه ٢١٩؛ الرحيم، الخدمات العامة، ص١٤٧.

(٣) ابن الدمياطي، المستفاد، ص١٥٠ – ١.

(٤) الذهبي، مختصر، ج١، ص٩٩ .

(٥) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٧٢.

(٦) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص٤٧٠ .

إذا غُسل أحد المتصوفة بعد موته، أخذوا الماء يغسلون به عمائمهم، وإذا حمل نعشه مزقوا كفنه للتبرك به[1]. وقصدوهم في المساجد والربط لهذه الغاية، فقد كان الشيخ عبد الله الرومي (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) منقطعاً في سقاية الخليفة الراضي[2] بجامع المنصور يقصده الناس للتبرك[3]. وكذلك أبو عبد الله محمد البلخي الزاهد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) يحاول الناس التبرك به وهو ينفر منهم[4]. ولما توفي الشيخ عرفه بن علي بن الحسن (ت٦٠٢هـ/١٢٠٥م) نودي للصلاة عليه فاجتمع الناس بالمدرسة النظامية، وجيء بتابوته مشدوداً بالحبال وحوله خلق عظيم من العوام، يتبركون به ويلقون عمائمهم وميازرهم، وحملوه على رؤوسهم، وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً [5].

نتيجة لهذا الاتجاه، نجد أن العوام قد اعتقدوا بولاية المجانين، أمثال رجل يدعى حميد الزيزي، الذي كان يتجول في الشوارع والأسواق مكشوف العورة، أشنع ما يكون منظراً، ومع ذلك كان العوام يعتقدون به على أنه ولي من أولياء الله، فلما توفي سنة (٥٩٥ هـ/١١٩٨م) شُدّ تابوته بالحبل من شدة الزحام، وبقي الناس يزورونه لعدة أيام وينذرون له النذور[6].

وفي وقت الكوارث والأزمات قصد العامة الأضرحة وقبور الأولياء، معتقدين بهم وبقدراتهم في درء الأزمات. فلما هبت رياح شديدة سنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م)

---

(١) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٠ .

(٢) حول سقاية الراضي انظر الفصل الرابع " توفير المياه لمدينة بغداد" .

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٨٩ .

(٤) المصدر نفسه، ص٥٤ – ٥ .

(٥) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ص٢٥٠ – ١ .

(٦) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١١٥.

قصد الناس المشهد الكاظمي ومقبرة الإمام أحمد بن حنبل، وازدحموا بباب الأول، وركب بعضهم بعضاً، فاختنق من ذلك الزحام سبعة عشر رجلا وامرأتان، وبعد أن هدأت الرياح عصر ذلك اليوم، تفقد الناس القتلى، فمن عرف أحداً من الهالكين أخذه ودفنه، وبقي منهم جماعة لم يعرفوا فدفنهم الناس، وقد غرق في تلك الليلة عدة سفن في دجلة بما تحمله من أشخاص(١).

ورغم ما سبق من حديث عن ميل العامة الشديد للمتصوفة إلا أن هذا لا يعني أن الجميع كان راض عن تصرفاتهم البعيدة عن الدين ومبادئ التصوف. وكان أكثر العلماء وطأة على الممارسات الشاذة من قبل دعاة التصوف هو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، الذي ألف كتابا سماه "تلبيس إبليس"، محاولا من خلاله كشف ابتداعات الصوفية وطرق تحايلهم على الناس.

كما نجد أن فئة كبيرة لم تكن راضية على هذا الاتجاه السلبي في التصوف، حتى قيل في ذمهم الشعر، فقال أحدهم:

لا تثق بالسكون من كل صوفي   واجتنب مكرهم وكن في صروف
افقروا العالمين أكـلا ورقصاً   وادعـــوا أنـــه لـــرب رؤوف
أترى ربهم يقول ارقصوا لـــي   واتركوا ما فرضت من معروف(٢)

وللشاعر يعقوب بن صابر المنجنيقي(٣) في الصوفية:

---

(١) المصدر نفسه، ج٩، ص١٤٦.

(٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص٩٢١.

(٣) و يعقوب بن صابر الحراني الأصل، كان شيخا مقدماً على أهل صناعته وعنده أدب ويقول الشـــعر، عاش اثنين وسبعين سنة، وصنف كتاب عمدة المسالك في سياسة الممالك توفي في صفر سنة ٦٢٦هـــ. الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٤٠.

قـــد لبس الصوف لترك الصفا مشايـــخ العصر للبس القصير
الرقص والشاهد من شـــأنـــهـــم شـــرّ طويل تحت ذيل قصير(١)

وقال ظهير الدين أبو إسحاق بن عسكر(٢) في ذم الصوفية وسماعهم الغناء:

متى سمع الناس في دينهم بـــأن الـــغـــنـــا ســـنـــة تتبع
ويـــأكـــل المرء أكـــل البعير ويرقص في الجمع حتى يقع
ولو كـــان طاوي الحشا جائعاً لما دار من طـــرب واستمع(٣)

ولعَ الصوفية بالسفر والسياحة(٤)، واعتبروهما نوعاً من العبادة، بل هما ركن من أركانها، والقصد منه: "رؤية الآثار، وتسريح النظر في مسارح الفكر، ومطالعة أجزاء الأرض، واستماع التسبيح من ذوات الجمادات"(٥). وباعتباره نوعاً من العبادة فعلى من أراد السفر، أن يرضي خصومه، ويستأذن والديه، وأن لا يكون غرضه من السفر غرض دنيوي، بل يكون للطاعة والعبادة(٦). يوصي الشيخ عبد القادر الجيلاني من أراد السفر بأن لا يصحب معه الأحداث المردان "لأنهم أقرب إلى مصافاة الشيطان". ويجب عليه السفر وهو على طهارة(٧).

---

(١) ابن الشعار، عقود الجمان، ج١، ورقة ٧٦.

(٢) هو ظهير الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نصر بن عسكر، قاضي السلامية فقيهاً تفقه بالنظامية، وسمع وحدّث، وغلب عليه نظم الشعر. الإسنوي، طبقات الشافعية، ج٢، ص٦١.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) ابـــن الجوزي، تلبيس، ص٣٦٣؛ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج ٤، ق١، ص٣٨٦، ص ٤٣٨، ص٥٦٥؛ ج٤، ق٢، ص٩٢٨.

(٥) السهروردي، عوارف المعارف، ص١٢٢.

(٦) الجيلاني، الغنية، ج٣، ص١٣١٥، السهروردي، عوارف، ص١٣٤.

(٧) الجيلاني، الغنية، ج٣، ص١٣١٦.

إذا عاد الصوفي من سفرة، فأول شيء يقوم به الدخول إلى الرباط الذي يقيم فيه قبل سفره، وقبل أن يسلم على أحد من ساكني الرباط يتوضأ ويصلي ركعتين، ثم يسلم على الشيخ وعلى الجماعة، وبعدها يحتفلون به بذبح شاة[1].

وممن اشتهر بالسياحة والسفر أبو محمد الدراجي الصوفي، وهو من الصوفية الذين جالوا في الآفاق وتغربوا في بلاد الشام والعراق[2]، وشيخ الشيوخ ضياء الدين أبو أحمد بن سكينة البغدادي، كان شيخ العراق في الحديث، وكان كثير الحج والزيارة توفي في سنة (٦٠٧هـ[3]/ ١٢١٠م).

ومهما قيل في المتصوفة وسلوكهم، فإن كيانهم ظل ينمو ويتسع حتى كاد أن يطغي على الحياة الدينية بأسرها في هذا العصر بسبب كونه صدى لواقع أليم، دفع الناس إلى أن ينظروا إلى الحياة نظرة استخفاف واحتقار، وألجأهم إلى البحث عن الأمن والاستقرار والراحة، في عالم الروح والخيال، بعد أن افتقدوها في عالم الواقع[4].

ومن أثر اهتمام المجتمع بالزهاد والصوفية، أن كثيراً من مُدعي التصوف كانوا يدعون بأمور خارقة، كمعرفة الباطن، وأنهم يكشفوا عن أبصارهم فيرون أموراً محجوبة عن غيرهم، حتى وإن لم يكن عندهم شيء من علوم الشريعة[5]. وأصبح لبسهم للشاذ من الملابس علامة يدلون بها على أنفسهم. لذا نجد أن ابن أبي الحديد يتعرض لهؤلاء وقد عاصرهم وعايشهم، فوضع عنهم فصلاً في كتاب شرح

---

(١) ابن الجوزي، تلبيس، ص ٣٨٦-٧.

(٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٣٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ق١، ص٣٨.

(٤) العبود، الشعر، ص٢٦٩.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٢.

نهج البلاغة عنوانه "فصل في ذكر الآيات والأخبار الواردة في ذّم الرياء والشهرة[1] ".

والباحث في تيار التصوف في هذا العصر ، يمكنه أن يميز فريقين من المتصوفة: فريق اتخذ من التصوف وسيلة للعيش الهادي في وقت ضعفت فيه وسائل الإنتاج، وعزّت فيه لقمة العيش. وكان هذا الفريق يقيم في الربط آمناً، يأتيه رزقه، ولا عمل له سوى التدين وانتظار الصدقات. وقد يكون التصوف لهؤلاء طريقاً يوصلهم إلى الشهرة. والفريق الآخر من المتصوفة، مالوا إلى التصوف وانغمسوا في تياره تدينا أو هربًا من واقع أليم ناشئ عن إخفاق في الحياة، أو زهداً في حياة مليئة بالمظالم والفتن، فصدّوا عن مباهج الحياة ولذتها، وسرّعوا في مجاهدة النفس المتمددة وخنقها بالعزلة والتقشف[2].

ومن هذا الاتجاه نجد طريقتين اشتهرتا في العراق، ومن ثم انتشرتا في معظم أقاليم العالم الإسلامي وهما: القادرية والرفاعية.

تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست[3] ابن أبي عبدالله بن يحيي بن محمد بن داوود بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله المحض بن الحسن بن علي بن أبي طالب[4].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٧٨.

(٢) العبود، الشعر، ص٦٢.

(٣) جنكي دوست: لفظ أعجمي معناه المحب للقتال. التادفي، قلائد الجواهر، ص ٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج١، ص٣٢٣؛ الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص٨٨، الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٦، الشعراني، الطبقات الكبرى، ج١، ص١٢٦ .

أصله من جيلان[1] واليها ينسب الجيلاني أو الجيلي، وبهذا تعرف الطريقة أيضا بالطريقة الجيلانية. ولـد الشيخ عبد القادر "بنيف"، قصبة إقليم جيلان سنة (٤٧٠هـ[2]/١٠١٦م). توفي والده فنشأ يتيماً، فرعته أمه وجده لوالدته عبد الله الصومعي الزاهد[3]. وأمه هي فاطمة بنت عبدالله الحسيني[4]، فربي تربية دينية[5]. وبحسب المصادر فهو ينتسب إلى البيت النبوي، حسني من جهة الأب، وحسيني من جهة الأم، وقد صرّح الشيخ عبد القادر بهذا النسب فقال:[6]

محمد رسـول الخلق رحـمـة وجـاهـد كـفـارهـم بالقواضب
أتاني مراراً قبل عهدي وقـال أنـا جدك افخر بي فخرت بخاطب

حصل عبد القادر على دراسته الأولية في الكتّاب بجيلان، وظل يواصل دراسته على جده حتى بلوغه الثامنة عشرة، فاستأذن والدته بالسفر إلى بغداد فأذنت له، وجهزته[7]. ولما وصل إلى بغداد تقرب من أبي سعيد المخرمي[8]، وأخذ العلم

---

(١) جـيلان: أسم لبلاد كثيرة من وراء طبرستان، وليس بها مدن كبيرة، وإنما قرى بين الجبال. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٠١.

(٢) ابـن الجـوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢١٩؛ ابن الوردي، تاريخ، ج١، ص٥٩؛ الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص٨٨؛ الشعراني، الطبقات الكبرى، ج١، ص١٢٦.

(٣) التادفي، قلائد الجواهر، ص٣.

(٤) المصدر نفسه والصفحة؛ الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص٨٨.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٧١.

(٦) الجيلاني، فتوح الغيب، ص٢٢٤؛ سهيل، عبد القادر الجيلاني، ص ١٤.

(٧) التادفي، قلائد الجواهر، ص ٩.

(٨) أبو سعيد المبارك المخرمي، ولد سنة ٤٤٦هـ، سمع الحديث من أبى الحسين بن المهتدي، وأفتـى ودرس، وجمـع كتباً وناب في قضاء بغداد. بنى مدرسته بباب الأزج شرقي بغداد. توفي سنة ٥١٣هـ. ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص٢١٥؛ الدروبي، المختصر، ص٣٩ .

عنه، ثم لبس منه خرقة التصوف[١].

لم يكن الشيخ عبد القادر متزوجاً قبل دخوله بغداد، وإنما تم زواجه فيها بعد أن مضى على تواجده بضع سنين، ولم يكن زواجه بواحدة بل بأربع زوجات، أنجبن منه تسعةً وأربعين ولداً، منهم سبعة وعشرون ذكراً والباقي إناثاً [٢].

اتخذ الشيخ عبد القادر رباطاً متصلاً بسور بغداد للتزهد والعبادة والوعظ، وانشأ من الهدايا الكثيرة التي كانت ترده من الآفاق التي ذاع فيها اسمه "المضيف" وكان مفتوحاً لتلاميذه وطلاب العلم[٣]. يذكر اليافعي[٤] أن كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني قد قربت من التواتر[٥].

كانت وفاة الشيخ عبد القادر في بغداد سنة (٥٦١هـ/١١٦٥م) ودفن بمدرسته بباب الأزج[٦]، وكان دفنه ليلا لكثرة الزحام، فأنه لم يبق أحد إلا جاء حتى امتلأت الشوارع والأسواق[٧].

ألف الشيخ عبد القادر مجموعة من الكتب منها: "الغنية" وهو كتاب في العقيدة والتصوف، وجعله على خمسة أقسام. الأول والرابع في الفقه مثل الصلاة والصيام

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٩ .

(٢) التادفي، قلائد الجواهر، ص ٤١ .

(٣) الدروبي، المختصر، ص٢٨؛ وما زال البيت موجوداً إلى اليوم في الحضرة الجيلانية، زاره الباحث، ويسمى بيت الخير .

(٤) اليافعي، نشر المحاسن، ص ٢٩٥؛ النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج٢، ص٢٠٤ .

(٥) التادفي، قلائد الجواهر، ص ١٣٤؛ مجهول، مختصر، ص١٠٢؛ الشعراني، الطبقات الكبرى، ج١، ص١٦٨.

(٦) باب الأزج: من محال الجانب الشرقي من بغداد. ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص١٦٨.

(٧) التادفي، قلائد الجواهر، ص١٣٤.

والاعتكاف والحج... الخ، والثاني في العقائد والفرق الإسلامية كالشيعة، والزبدية، والرافضة....الخ. وأما القسم الثالث من الكتاب فجعله للمجالس وهي أربعة عشر مجلساً، تدور حول مواضيع منها فضائل الصيام، وعيد الفطر، والأضحى، وعرفة، وعاشوراء...الخ. والخامس في التصوف وقواعده، واجبات كل من الشيخ والمريد، وعلاقتهما معاً، ثم القواعد التي تقوم عليها الطريقة القادرية. والكتاب الآخر هو "فتوح الغيب"، ويشمل على سبعين موعظة مختلفة، قام بجمعها ولده عبد الرزاق، وفيها معلومات نقلها عن أبيه وهو على فراش الموت[١].

و"الفتح الرباني والفيض الرحماني"، كتاب آخر للشيخ عبد القادر، يحتوي على مجموعة مجالس الشيخ، وكل مجلس له يشير إلى تاريخه ومكان انعقاده، يوجه فيه خطابه إلى المريدين، ويشمل الكتاب على أثنين وستين مجلسا، وآخرها كان في مدرسته في سنة (٥٤٦هـ/ ١١٥١م).

كانت الطريقة القادرية واحدة من أهم الطرق الصوفية وأوسعها انتشارا، خاصة أن هناك عوامل عديدة تظافرت لتؤدي في النهاية إلى قيام هذه الطريقة واستمرارها قوية بعد وفاة مؤسسها، ومن هذه العوامل:

١. اهتم الشيخ عبد القادر بإرساء قواعد طريقته الواضحة في الكتاب والسنة[٢]، مما جنب أرائه الوقوع في مزالق التأويلات والخوض في الفرعيات، فظلت طريقته واضحة المعالم بعد وفاته.
٢. ترك الشيخ عبد القادر ذرية كثيرة[٣]، فخلفه في مشيخة الطريقة وتربية

---

(١) الدروبي، المختصر، ص٢٨.

(٢) الجيلاني، الغنية، ج٣، ص١٢٧٧؛ زيدان، الطريق الصوفي، ص١٧٦.

(٣) التادفي، قلائد الجواهر، ص٤١.

المريدين أبناؤه وأحفاده[1]، ومن أشهرهم: الشيخ عبد الوهاب، والشيخ عبد الرزاق.

٣. تلقى العديد من الصوفية الوافدين من أقطار العالم الإسلامي الطريقة والخرقة على يد الشيخ الجيلاني، وقد عمل هؤلاء على نشر الطريقة بأقطارهم[2].

أما الانتساب للطريقة القادرية فتحكمه ضوابط وشروط، على من أراد الدخول فيها تحقيقها. فعلى السالك لها أن يعتقد بها أولاً. واعتقاده يجب أن يكون بإرادة صادقه وإيمان ثابت، لا أثر فيه لأي عامل خارجي عن إرادة المريد. فالذي يجب على المريد[3] المبتدئ في هذه الطريقة الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس، فيكون على عقيدة السلف الصالح وأهل السنة، سنة الأنبياء والمرسلين[4].

فإذا توفرت بالمريد هذه الشروط، يبدأ الطريق في سلم المتصوفة بحضوره إلى الشيخ وأخذ العهد منه، حيث يطلب الشيخ من المريد الاستغفار ويكون ذلك الاستغفار بالصيغة التالية: "قل أستغفر الله العظيم، الذي لا اله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه وأشهد الله، وملائكته، ورسله، وأنبيائه بأني تائب لله منيب ...ورضيت بحضرة شيخنا المشار إليه، شيخاً لي، وطريقته لي، والله على ما أقول وكيل "[5].

---

(١) D.S. margoliouth, “Qadiriyya”, E.I²

(٢) الشطنوفي؛ بهجة الأسرار، ص١٣١ ؛ اليافعي، مرآة الجنان، ص٢٩٦؛ زيدان، الطريق الصوفي، ص١٧٧.

(٣) المريد: هو من ترك ما عليه العادة، والبحث عن حظوظ الدنيا، وتجددت إرادته فهو مقبلاً على الله عز وجل، يسمع من ربه فيعمل بما في الكتاب والسنة، ويبتعد عما سواه. عبد القادر الجيلاني، الغنية، ج٣ ، ص١٢٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص١٢٧٧؛ سهيل، عبد القادر الجيلاني، ص١٢٧.

(٥) الجيلاني، الفيوضات الربانية، ص٢٩- ٣٠.

وبعد أن يقبل المريد هذه الوصايا، تكون المبايعة والقبول بين الطرفين الشيخ، والمريد ، فيقول الشيخ للمريد: "وأنا قبلتك أيضاً ولداً وبايعتك على هذا القول"(١). وبعد هذه المراسيم، تنتهي المبايعة فتنفصل الأيدي المتشابكة وتبتعد الركب المتلاصقة، ثم تأتي مرحلة الدعاء مختومة بشرب كأس الشيخ (٢).

بعد وفاة الشيخ عبد القادر سنة (٥٦١هـ/١١٦٥م) خلفه في المشيخة ابنه عبد الوهاب، وقام بالتدريس بمدرسة والده، وأسند إليه الخليفة الناصر لدين الله النظر في ديوان المظالم(٣). وتولى أخوه عبد الرزاق المشيخة بعد وفاته سنة (٥٩٣هـ(٤)/ ١١٩٦م) وكان هذا أشهر أبناء الشيخ عبد القادر بالحديث، وكانت له أحوال صوفية باهرة وبقي في مشيخة الطريقة حتى وفاته سنة (٦٠٣هـ(٥)/١٢٠٦م).

وفي عهد عبد الرزاق نبش قبر والده سنة (٥٩٣هـ /١١٩٦م) بأمر من الوزير عبدالله بن يونس "ورمى عظامه بالنهر". بحجة أن المدرسة وقف لا يحل أن يدفن بها أحد(٦). أشار أبو شامة إلى أن السبب وراء هذه الخطوة يعود إلى العداوة السابقة بين أبناء الشيخ وابن يونس. فقد كان الأخير جارهم بباب الأزج وكانوا يؤذونه، حتى إنهم لقبوا كلباً لهم "بجليل"، وهو لقب ابن يونس "جلال الدين". فلما

---

(١) سهيل، عبد القادر الجيلاني، ص١٣١.

(٢) المرجع نفسه، ص١٣١.

(٣) التادفي، قلائد الجواهر، ص٥٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص٣١٤.

(٤) التادفي، قلائد الجواهر، ص٥٣.

(٥) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢١٤؛ الذهبي، مختصر، ج٢، ص٦٢؛ المنذري، التكملة، ج٢، ص١٨٠

(٦) أبو شامة، الذيل، ص١٢؛ مجهول، مختصر، ص١٠٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج

٦، ص١٤٢، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص٣١٤.

ولي الوزارة[1] استفتى فقهاء الحنابلة في إزالة القبر، فأفتوه[2].

وقام ابن يونس بالانتقام أيضا من الشيخ عبد السلام بن عبد الوهاب، وكان قد تفقه على جده ووالده، ودّرس وأفتى، وتولى عدة ولايات، وكان عارفاً بالمنطق والفلسفة والتنجيم، وكانت محنته في عهد الوزير فقد أتهم بالإلحاد والكفر، فكُبست داره وأحرقت جميع كتبه على مرأى من الناس[3]، ثم قام الوزير بتحريض الخليفة الناصر والعلماء على الركن عبد السلام.

لم يكتف ابن يونس بذلك، بل شتت أبناء الشيخ عبد القادر وأحفاده، وأخرجهم من بغداد إلى الطوامير بواسط[4]. ولكن بعد أن أُبعد عبد الله بن يونس عن الوزارة، حاولت السلطة وكجزء من سياستها العامة بالتقريب بين المذاهب من جهة، ولما لأولاد الشيخ من تأثير بين أتباعهم من جهة أخرى، فقامت بالإفراج عن الشيخ عبد السلام الجيلي[5]، وعاد إلى بغداد ليتولى أمر المشيخة والمدرسة من جديد.

ويؤيد ما ذهبنا إليه من تأثير أبناء الجيلي على العامة، أنه لما وقعت الفتنة بين أهل باب الأزج ومحلة المأمونية[6] سنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م) وبعد محاولات فاشلة

---

(١) أبو شامة، الذيل، ص٥٦ ؛ مجهول، مختصر، ص١٠٢.

(٢) ابن أبي عذيبة، أنسان العيون، مخ، ورقة ٢٥١.

(٣) أبو شامة، الذيل، ص٥٦ ؛ ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٥١ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٩٢.

(٤) مجهول، مختصر، ص١٠٢.

(٥) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ١٤٧ .

(٦) المأمونية: من محلات بغداد، تنسب إلى الخليفة المأمون تقع بين محلة نهر المعلى ومحلة باب الأزج. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤٤

من قبل السلطة لإخماد هذه الفتنة، لم تجد أفضل من عبد السلام للتدخل في حلها، خاصة أنه من أهل باب الأزج، ومن أبناء الشيخ عبد القادر الذي يحترمه الناس ويطيعونه، فذهب واجتمع مع الشهاب يوسف العقاب زعيم أهل باب الأزج ومقدم الفتيان بها، واتفق معه على كف أهل باب الأزج ومنعهم، وأحضروا رؤوس الفتنة وأجبروهم على ذلك بعد أن توعدوهم(1).

وتولى أبو صالح نصر بن أبي بكر بن عبد الرزاق الجيلاني منصب قاضي القضاة في عهد الخليفة الظاهر(2). ولم يتول هذا المنصب خلال هذه الفترة حنبلياً سواه. ولما تكامل بناء الرباط المستجد بدار الروم، جعله المستنصر شيخاً على من فيه من الصوفية، وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي سنة (٦٣٣هـ(3)/١٢٣٥م). وأسند الخليفة الناصر إلى الشيخ عبد السلام بن عبد الوهاب مهمة النظر في أوقاف المارستان العضدي (4)، ثم ولاه مسؤولية كسوة الكعبة(5). وتولى أبو نصر محمد بن نصر الجيلاني القضاء والحكم بحريم دار الخلافة في عهد الخليفة المستعصم، وتوفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ودفن بجوار جده في المدرسة (6).

مما سبق يتضح للباحث أن الطريقة القادرية، لم تكن بالطريقة المتطرفة، التي تهدف إلى تحقيق مطالب سياسية، بل نجد أنها حركة مرنة تتأقلم مع الظروف، مع المحافظة على مبادئها. كما نجد أن مشايخ الطريقة لم يبتعدوا كثيراً عن مسرح

---

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤٨.

(٢) مجهول، الحوادث، ص٨٦ – ٧؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٧٣.

(٣) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج٢، ص١٨٩.

(٤) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، مخ، ج٣، ورقه ٥٩ ب.

(٥) المصدر نفسه والصفحة .

(٦) التادفي، قلائد الجواهر، ص٥٩ .

الأحداث الداخلية، بل شاركوا فيها من خلال إسناد بعض الوظائف لهم.

أما الطريقة الرفاعية، فتنسب إلى الشيخ أحمد الرفاعي. أورد ابن خلكان نسبه كالآتي "أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي أحمد يحيى بن أبي حازم ثابت بن أبي الفوارس على الخارم بن أبي علي أحمد المرتضى بن أبي الفضائل علي بن أبي محمد رفاعة الحسن الأصغر المكي بن أبي رفاعة المهدي بن أبي القاسم محمد بن أبي موسى... ينتهي نسبه بالحسين بن علي بن أبي طالب[١]. فنسبه من جهة الأب ينتهي بالحسين بن علي، ومن جهة الأم بالصحابي أبي أيوب بن زيد الأنصاري[٢].

ولد السيد أحمد في المحرم سنة (٥١٢ هـ/١١١٨م) بأم عبيدة[٣]. ويعرف بالرفاعي[٤] والبطائحي[٥].

أورد المؤرخون أخبار زواجه، ومعاملة زوجته له. "فيُذكر أنه تزوج امرأة بذيئة اللسان كانت تؤذيه، فدخل عليه يوماً أحد مريديه فرآها، وفي يدها محراك التنور تضربه به على أكتافه، فاسود ثوبة، وهو ساكت. فانزعج الرجل، وخرج من عنده، وقال لمجموعة من أصحابه: يا قوم يجري على الشيخ من هذه المرأة هذا،

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٧٢؛ مجهول، مختصر، ص١١٢.

(٢) مجهول، مختصر، ص١١٣ .

(٣) أم عبيده؛ قربة من قوي ناحية واسط. مجهول، مختصر، ص١١٧ .

(٤) وتفسر كلمة الرفاعي بأنها نسبة إلى أحد أسلافه، ويدعى رفاعة هاجر من مكة إلى إشبيلية سنة ٣١٧ هـ، ومنها هاجر جدّه أحمد إلى البصرة سنة ٤٥٠ هـ. دائرة المعارف الإسلامية مادة رفاعية

(٥) البطائحي: نسبة إلى البطائح، وهي عدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط والبصرة. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص٢٦٠ .

وانتم سكوت؟! فقال بعضهم: مهرها خمسمائة دينار، وهو فقير. فمضى الرجل وجمع خمسمائة دينار، وجاء بها إلى الشيخ، فقال: ما هذا؟ قال: مهر هذه المرأة السفيهة التي فعلت بك كذا وكذا، فابتسم، وقال: لولا صبري على ضربها، ولسانها ما رأيتني في مقعد صدق"[1].

حج الشيخ أحمد سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م). ويورد مؤلف مختصر أخبار الخلفاء رواية بعيدة عن الواقع، بل خارجة عن الدين، بأن الرفاعي لما وصل إلى الروضة الشريفة، وقف أمام القبر الشريف، فسلّم على الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فرد عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) السلام والناس يستمعون، فأنشد يقول[2]:

في حالة روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عيني وهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فظهرت له يد النبي وقبلها والناس ينظرون .

كان ملوك الأطراف والخلفاء يعتقدون فيه؛ ويتخذون كتبه التي ترد إليهم منه أحرزا، ويتبركون بمن يرد عليهم من اتباعه[3]. ونُسب إلى أتباعه الكرامات الكثيرة، فكان قد أنضم إليه خلق عظيم من الفقراء وأحسنوا الاعتقاد به[4] وقد بلغ عددهم في حياته أكثر من مائة وثمانين ألفا، ولم يكن في بلاد المسلمين في مشارق

---

(١) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص٢٦٠ – ١؛ النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج١، ص٤١٤-٥.

(٢) مجهول، مختصر، ص٩٧ .

(٣) المصدر نفسه، ص٩٨ .

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٧١.

الأرض ومغاربها مكان يخلو من مريديه[1].

توفي الشيخ أحمد الرفاعي يــوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأول سنة (٥٧٦هــ / ١١٨٢ م) في أم عبيده[2]. وكان آخر كلامه "لا اله إلا الله محمد رسول الله". وقد بلغ عدد من صلى عليه خلق كثير[3].

يرى الرفاعي أن مهمة الشيخ بالنسبة للمريد، أن يلزمه بالكتاب والسنة، ويبعده عن البدع "فهو ظاهره وباطنه"[4]. وكان يدعو أتباعه إلى عدم الاعتقاد بعظمة المشايخ، بحيث يعتمد عليهم فيما بينهم وبين الله، "فان الله غيور لا يحب أن يدخل في ما آل إلى ذاته بينه وبين عبده"[5] فهم أدلاء على الله، ووسائل إلى طريقه، يؤخذ عنهم حال رسول الله (صلى اله عليه وسلم) ويطلب من مريديه أيضاً طاعة الشيخ واحترامه. "من تمشّيخ عليك، تتلمذ له، ومن مدّ لك بيده لتقبلها فقبلّ رجله"[6].

وقامت الطريقة الرفاعية على عدة أسس منها:

١. تعظيم كتاب الله بالأخذ بأحكامه الكريمة، والالتزام بها[7].
٢. صحة الاعتقاد، وهو أن يعتقد المرء أن الله واحد لا شريك له، فرد لا مثيل له، وهو الأول والأخر، والظاهر والباطن[8].

---

(١) مجهول، مختصر، ص١١٦ .

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ج٨، ق١، ص٣٧١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ١٧٢؛ ابن كثير، البداية، ج١٢، ص٣٣٣ .

(٣) مجهول، مختصر، ص١١٧ .

(٤) الرفاعي، الحكم الرفاعية ، ص١٠.

(٥) المصدر نفسه، ص١٩ .

(٦) المصدر نفسه، ص٢٢ .

(٧) المصدر نفسه، ص٩ .

(٨) الشويخي، بوارق الحقائق، ص٤٢٠.

٣. العمل بأوامر الله، والتجرد في العمل من طلب غير الله[١].
٤. الاشتغال بذكر الله عز وجل لأن ذكر الله جلاء للقلوب ونور للسر، وهيبة للوجه، وهو الحبل الموصل إلى الله، والطريق الدال عليه[٢].
٥. المحبة للرسول (صلى الله عليه وسلم) وكثرة الصلاة عليه، لأن باب الله وسيلة الخلق إليه، ودليل الكل عليه، والشفيع بين يدي الله[٣].

لم يكن للشيخ أحمد الرفاعي عقب من الذكور، وإنما العقب لأخيه وأولاده يتوارثون المشيخة والولاية. فقد خلفه في مشيخة الطريقة ابن أخته وزوج ابنته السيد ممهد الدولة علي بن سيف الدين عثمان الرفاعي[٤]. وخلفه أخوه السيد أبو الرجال عبد الرحيم بن سيف الدين عثمان المتوفى سنة(٦٠٤هـ[٥]/ ١٢٠٧م) ثم خلفه السيد إبراهيم الأعزب المتوفى سنة (٦١٠هـ[٦]/١٢١٣م). وتولى مشيخة الطريقة السيد قطب الدين أبو الحسن علي بن عبد الرحيم المتوفي سنة (٦٣٦ هـ[٧]/ ١٢٤٧م).

أما الخلفاء العباسيون، فقد أجمعوا على تفويض أمر الإشراف على ولاية واسط لآل الرفاعي، فكانوا يتوارثون الولاية عليها، فيرسل الخليفة الوالي إلى واسط، ويشترط عليه أن يكون تحت نظر شيخ الطريقة الرفاعية في أم عبيده[٨].

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٢٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٢٤؛ السامرائي، أحمد الرفاعي، ص٤١.
(٣) الشويخي، بوارق الحقائق، ص٤٢٤.
(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٧٢.
(٥) مجهول، مختصر، ص١١٨ .
(٦) المصدر نفسه، ص١١٨.
(٧) المصدر نفسه، ص١١٩.
(٨) المصدر نفسه، والصفحة .

كما أن الدولة خلعت عليهم الألقاب التشريفية، فقد لقب الخليفة الناصر السيد علي بن عثمان "بمهذب الدولة"، والسيد عبد الرحيم" ممهد الدولة "والسيد إبراهيم الأعزب" نظام الدولة"، والسيد شمس الدين "سعد الدولة". وتابع الخليفة المستنصر ومن بعده المستعصم هذه السياسة في رعاية آل الرفاعي، فخلع المستنصر بالله على السيد أبي الحسن علي بن عبد الرحيم لقب"شرف الدولة "(١).

ثالثاً: تنظيم الفتــوة

مثلت الفتوة أحد أهم التنظيمات الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي الأخير. والفتوة(٢) في الاصطلاح الإسلامي هي مجموعة الصفات التي يتحلى بها الفتى من الشجاعة، والسخاء، والإيثار، والعصبية الدينية، والصدق، والوفاء، والحياء، واتباع الحق، ونصر صاحب الحق والمطالب به، وإخلاص العبادة، وإغاثة المضطر، ورعاية النساء واليتامى(٣).

قال ابن المعمار في تعريفه للفتوة (٤): "أعلم أن الفتوة اسم موضوع. يقال على أنحاء: أحدها في اصطلاح العرف عبارة عن صفات محمودة اتسم بها الشخص على وجه مخصوص، وامتاز بها عن أبناء جنسه، فأوجبت له اسم فتى. ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾(٥).

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) الفــتوة لغــة : هــي الاسم من فتو يفتو. فتاء، أو فتى يفتي فتى، فهو فتي السن، والفتيان: الشباب، والفتى والفتاة: الشاب والشابة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص ١٤٥

(٣) جواد، "الفتوة وأطوارها، ص ٤٦.

(٤) ابن المعمار، الفتوة ، ص ١٣٠-١

(٥) الكهف، آية ١٣.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾(١).وأما السنة، فقد ورد في الفتـــوة أخبار المخـــتار منها، ما رواه جعفر الصادق - عليه السلام- عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لفتيان أمتي عشر علامات. قيل يا رسول الله، وهل لأمتك فتيان؟ قال -عليه السلام -: نعم وأين الفتوة الأولى من فتوة أمتي؟ قيل: وما تلك العلامات يا رسول الله ؟ قال - عليه السلام : صـــدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الكذب، والرحمة لليتيم، وإعطاء السائل، وبذل المنائل، وإكثار الصنائع، وقري الضيف، ورأسهن الحياء".

لا نستطيع أن نورد كل ما قيل في الفتوة(٢)، وإنما نذكر أن الفتوة من حيث هي مذهب إسلامي ديني اجتماعي، تطورت كسائر المذاهب. فالمتصوفة يعتقدون أن فتوتهم في ربطهم وخانقاتهم هي الصحيحة، والشجعان الأسخياء يظنون أن فتوتهم هي الفتوة العملية الصحيحة. وإن التطور المادي العملي أسرع من التطور الروحاني النظري، فلذلك تغيرت الفتوة إلى غناء وشرب عند الراغبين في الدنيا، واللهو والمتعة والحرية والتسلط، وانقلبت الشجاعة إلى شطارة وعيارة، وصارت فتوة مزيفة، وأصبح الفتيان بالأمة صفة متميزة كل التميز حتى في الملابس والكلام(٣).

---

(١) الكهف، آية ١٠.

(٢) هـــناك عـــدة دراسات حول الموضوع، ومن أهم تلك الدراسات: مصطفى جواد، في تقديمه لكتاب الفتوة لأبن المعمار؛ الديوه جي، الفتوة في الإسلام، ودراسة عمر الدسوقي، الفتوة عند العـــرب، ورســـالة ماجســـتير بعنوان، الفتوة في بغداد في العصر العباسي الأخير (٥٧٥-٦٥٦هـــ) قدمت للجامعة الأردنية ١٩٩٢؛ ومقال Taeschner, Futuwwa , E.I[2]

(٣) جواد، الفتوة وأطوارها، ص ٤٨.

لذلك يمكن أن تقسم الفتوة إلى تيارين: فتوة العيارين والشطار، وهي فتوة عملية عنيفة، وفتوة العارفين والصوفية، وبينما صار شعار العيارين لبس السراويل، صار شعار الصوفية المرقعة(١).

بعد أن تولى الخليفة الناصر الحكم بثلاث سنين أي سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م) انتظم في منظمة الفتوة التي كان يرأسها الشيخ عبد الجبار بن يوسف بن صالح البغدادي(٢). ندرت المعلومات حول الشيخ عبد الجبار في مصادرنا، رغم أهميته في هذا التطور، فلم نجد سوى انه كان مشهورا بالشجاعة، لدرجة أن الرجال كانت تخافه، ثم انقطع بعد ذلك للعبادة بموضع اتخذه لنفسه، فاشتهر لذلك(٣).

أصبح عبد الجبار شيخا للفتوّة وحاملاً للوائها، وانفرد بشرف النفس والأبوة(٤)، له اتباع كثيرون(٥). أمر الخليفة الناصر بأن تعمر له صومعة، فعمرت وانتقل إليها عبد الجبار، وصار الخليفة يكثر من التردد عليه، والحديث معه في الفتوة ومعرفة الفتيان(٦). واستمر الأمر على ذلك حتى توفي الشيخ سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) وهو في طريقه إلى الحج(٧).

---

(١) الدوري، نشوء الأصناف، ص١٦٢ .

(٢) ابـن أبي الدم الحموي، التاريخ المظفري، ورقة ٢١٢. نقلا عن جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص٥٢؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص ٨٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص ٢٧٥.

(٣) الذهبي، سير، ج٢٢، ص٢٠٤، عبد الهادي، الفتوة، ص١١٥.

(٤) الذهبي، العبر، ج٣، ص ٨٥.

(٥) ابن أبي الدم، التاريخ المظفري، نقلا عن جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص ٥٢.

(٦) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٧٧.

(٧) الذهبي، العبر، ج٣، ص٨٥.

وضح النقاش وضع الفتوة واختلافها إلى بيوت وأحزاب، ثم بين دور الخليفة الناصر في تنظيمها قائلا[١]: "وبعد فإن أحزاب الفتوة كانوا تائهين، وعن الحق زائغين...، تأولوا الفتن والابتداع... تجلت عليهم الشقاوة، وتحكمت في بواطنهم الضلالة... إلى أن شرّف الله تعالى الفتوة وكرمها، وأعلى منارها وعظمها بسيدنا ومولانا الشجرة الإمامية". وهو بهذا يعكس النقد الموجه إلى تصرفاتهم وأوضاعهم، ليبرز دور الناصر في توحيدهم وفي وضع أسس أمتن لحركتهم[٢].

تم انضمام الناصر إلى هذه المنظمة في بستان التاج، حيث حضر الشيخ عبد الجبار ومعه ابنه علي وصهره يوسف العقاب، كما حضر ندماء الخليفة المقربين منه هذه المراسيم، فقام الشيخ عبد الجبار بإلباس الناصر سراويل الفتوة ثم شرب الخليفة شراب الفتوة، المكون من الملح والماء[٣]، وبعدها أخبر الشيخ عبد الجبار الخليفة الناصر سنده في الفتوة إلى الإمام علي بن أبي طالب. وبعد أن تمت مراسيم الفتوة، أعطى الخليفة للشيخ عبد الجبار خمسمائة دينار، كما أنعم على ولد الشيخ بخلعة سنية[٤].

كان لانضمام الخليفة الناصر إلى الفتوة أثره البالغ في انتشار الحركة في بغداد، ثم في أطراف العالم الإسلامي، خاصة وأنه خليفة المسلمين وزعيمهم الروحي، فدخلها العلماء والفقهاء والأعيان والأجناد وعامة الناس، أشار إلى ذلك ابن المعمار عند حديثه عن السبب الذي دفعه إلى وضع كتاب الفتوة قائلاً[٥]: "اعلم

---

(١) النقاش، فتوة النقاش، نقلا عن جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص٥٤.

(٢) الدوري، نشوء الأصناف، ص ١٦٣.

(٣) ابن أبي الدم، التاريخ المظفري، ورقه ١١٢. نقلا عن جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص ٥٣.

(٤) جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص٥٨.

(٥) الفتوة، ص١٢٣.

أيها الناظر أن الباعث على إصدار هذا الكتاب أني رأيت جملة الناس وجمهورهم وأفاضلهم وصدورهم قد أولعوا بذكر الفتوة والهجوا بها راغبين في فضائلها، راجين نيل طاعتها، خصوصا حين أحيا سننها ومعالمها سيدنا ومولانا أبو العباس أحمد الناصر لدين الله".

استمرت الفتوة على تلك الحالة من الأهمية والاشتهار والانتشار لاتصال الخليفة الناصر بها، إلا أن الفتيان لاختلاف بيوتهم[1]، وفروعهم وأحزابهم[2]، ومذاهبهم الدينية، كانوا يحدثون شغباً في المجتمع. ويؤدي بهم النزاع إلى الاقتتال وارتكاب المحرمات في الشرع من النهب والهتك[3].

وكانت معظم أسباب الفتن في بغداد ناجمة عن صيد السباع، تلك الرياضة التي شجعها الخليفة، واعتبرها من علامات تفوق الفتى على أقرانه. لذلك وبسبب التنافس بين الفتيان نجد أن الفتن تكررت، منها ما حدث سنة (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) حيث اجتمعت جماعة من عوام محله باب الأزج ببغداد، وخرجوا لصيد السباع فقتلوا حيواناً، وعادوا إلى محلتهم، وعزموا أن يطوفوا به في المحلات، ويجتازوا في محلة المأمونية، فتسامع فتيان المأمونية بذلك، فتوعدوهم، وأرسلوا بأنهم سيمنعونهم من الاجتياز في محلتهم أن هم أقدموا على ذلك، فجمع أهل باب الأزج خلقاً من العوام، وشاع الخبر فخاف الناس، ونشبت الفتنة بينهم، وتقاتلوا بالسيوف[4]، وتراموا بالنشاب. ولم تهدأ الفتنة إلا بعد أن تدخل بها الركن عبد

---

(١) البيت من تنظيمات الفتوة، وهو اسم لطائفة تميزت بصفة تخصها، ورأي تفردت به، كما قيل بيت الرهاص، وبيت الشحينية. ابن المعمار، الفتوة ، ص١٩١.

(٢) اسم يطلق على الأشخاص المنسوبين إلى شخص واحد . ابن المعمار، الفتوة، ص١٩١.

(٣) مصطفى جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص٥٨ .

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ١٤٦-٧.

السلام الجيلاني، ومقدم الفتيان يوسف العقاب، فسكن الناس وانقطعت الفتنة[1].

وبعد أيام وقعت فتنة أخرى بين أهل قطفتا[2] والقرية[3]، حيث أراد أهل قطفتا أن يطوفوا بسبع اصطادوه، فمنعهم أهل القرية من اجتياز محلتهم فاقتتلوا، ولم يكف عن الاقتتال ألا بعد تدخل العسكر[4]. وفي سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) حدث أن الفاخر العلوي، وكان في نظام الفتوة رفيقاً[5] للوزير ابن مهدي العلوي، وكان له رفقاء من الفتيان، فاختصم أحد رفقائه مع رفيق لعز الدين نجاح الشرابي، مقدم الجيوش العباسية، وحدثت بذلك فتنة عظيمة في محلة قطفتا حتى تقاتلوا بالسيوف[6].

هذه الفتن كما رأينا كانت تشير إلى نوع من العصبية أخذت تظهر بين الفتيان ببغداد بحيث أصبح فتيان كل محلة يشكلون جماعة واحدة، ويتعصبون لمحلتهم. هذا عدا أن الفتوة أصلاً لم تكن جماعة واحدة، فقد كانت جماعات متعددة، وأشار إلى ذلك صراحة ابن المعمار بعد ذكر سند الفتوة " ولم تزل الفتوة تنتقل هلمّ جرّا إلى عصرنا هذا، حتى تفرعت وصارت بيوتاً وأحزابا وقبائل: كالرهاصية، والشحنية، والخليلية، والمولدية، والبنوية"[7]. فأدى هذا الاختلاف في جماعات الفتوة إلى

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٧-٨.

(٢) وهـي مجلـة كبيـرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد، ومجاورة لقبر الشيخ معروف الكوفي، على بعد ميل من دجلة. يا قوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٧٤.

(٣) وهـي مجلـة كبيـرة جـداً بالجانب الغربي مقابل مشرعة سوق المدرسة النظامية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٤٠.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩ ، ص١٤٨.

(٦) الـرفيق: هـو اسم يطلق على جميع المسلمين إلى الذين ينتسبون لبيت واحد. ابن المعمار، الفتوة، ص١٩٣.

(٦) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٢؛ جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص٦٣ .

(٧) الفتوة، ص١٤٥- ٦ .

ظهور الفتن فيما بينها، والتي كانت تؤدي إلى مقتل العديد من الناس، وكان للعوام أثر كبير فيها[1].

نعود إلى الفتنة سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) فلما علم الخليفة أنكر ذلك، وأمر الوزير نصير الدين بن مهدي العلوي بجمع رؤوس أحزاب الفتيان، وأن يكتب لهم منشوراً يؤمرون به بالمعروف والألفة وينهون عن التضاغن، ويقرأ هذا العهد بمحضر منهم، ويشهد عليهم بما يتضمنه، ومن خالفه أخذت منه سراويل الفتوة، وأبطلت فتوته، وعوقب بما يرى من العقوبة[2]. وأُحضر الفاخر العلوي إلى مجلس الوزير، فقال الوزير ابن مهدي للحاضرين: " أشهدوا أني قد نزلت عنه وأخرج من الفتيان"[3].

رأى الناصر أن الفتوة لا تزال تتعرض للجرائر والاضطراب، فقام بإهدار الفتوة القديمة، وأمر أن تجدد فتوة الفتيان الذين لم يأخذوا التفتي عنه، وصار بذلك المرجع لجميع الفتيان، والقبلة الجديدة في التفتية التي تستوجب التجديد، والتي هي انتماء جديد.

رافق تجديد الفتوة إصدار المنشور على رؤوس الفتيان، من إنشاء مكين الدين أبي الحسن محمد بن محمد المقدادي القمي كاتب ديوان الإنشاء يومئذ، وقد حدد المنشور أحكام الفتوة العامة وآدابها[4]، وورد نص المنشور كاملاً عند البصري[5]

---

(١) عبد الهادي، الفتوة، ص١٢٥ .

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٢ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢١؛ جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص٦٣.

(٥) البصري، المناقب العباسية، ورقه ١٣٨ .

وابن الساعي[1]، وفي هذا المنشور تظهر عدة ملاحظات:

١. ابتدأ بالحديث عن علي بن أبي طالب، وأنه هو أصل الفتوة في الإسلام، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها، واليه دون غيره تنتسب الأحزاب، وكون الأمام علي هو أصل الفتوة فإن ذلك يرضي كلاً من السنة والشيعة، لأن شخصية الإمام محبوبة ومقبولة عند الطرفين، ولذلك فقد أنتظم في فتوة الناصر فتيان السنة والشيعة[2].

٢. يذكر المنشور بعد ذلك الأوامر والتعليمات التي يريد الخليفة الناصر أن يوصلها لرؤساء أحزاب الفتوة. وتتلخص هذه التعليمات بالتشديد والتهديد والوعيد لكل من يرتكب جريمة القتل بحق رفقائه من الفتيان، وأن من يقتل رفيقاً له يعتبر خارقاً بذلك دائرة الفتوة، وساقطاً من عداد الرفقة[3].

وبعد أن كتب المنشور، وقرئ على مسامع رؤساء الفتيان، سلم إلى كل واحد منهم نسخة منه عليه شهادة ثلاثين من عدول بغداد، ثم كتب تحت كل نسخة من المرسوم ما نصه: "قابل العبد ما تضمنه هذا المرسوم المطاع، قابله بما يجب عليه من الانقياد والاتباع والامتثال، وهو الذى يجب العمل به فتوة وشرعاً، وهذا المعروف من سيرة الفتيان المحقق نقلا، وقد ألزمت نفسي إجراء الأمـر على ما تضمنه هذا المرسوم الشريف، فمتى جرى ما ينافى المأمور به المحدود فيه، كان الدرك لازما لي، والمؤاخذة مستحقة على ما يراه صاحب الحزب، ثبت الله دولته، أعلى كلمته، وكتب فلان بن فلان في تاريخه"[4].

---

(١) الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٣- ٥ .

(٢) عبد الهادي، الفتوة، ص١٢٧ .

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٤.

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

لم يكتف الخليفة الناصر بعد أن وحد تنظيمات الفتوة في تنظيم واحد، وجعل نفسه قبلة أهل الفتوة، وربط جميع الفتيان بشخصه، بل أراد أن ينشر الفتوة خارج بغداد، لدى ملوك الأطراف والأقاليم الإسلامية(١). ولعله كان يريد من ذلك تدعيم مركزه الديني لدى ملوك الأطراف. وكان قد اتخذ هذه الخطوة بعد ثلاث سنوات من إهدار الفتوة القديمة أي سنة (٦٠٧ هـ/ ١٢١٠ م) فأرسل إلى ملوك الأطراف طالبا منهم أن يلبسوا له سراويل الفتوة، وينتموا إليه في رمي البندق، وأنفذ إليهم من يفتيهم نيابة عنه بالوكالة، فشربوا له كأس الفتوة ولبسوا سراويلها(٢). كما أمرهم أن يُلبسوا رعيتهم السراويل، ويسقونهم كأس الفتوة، فقبلوا دعوته، وامتثلوا أمره. وأحضر كل ملك قضاة مملكة وأمرائها وأكابرها، وألبس كل منهم له وسقاه كأس الفتوة(٣).

وكان ممن لبس سراويل الفتوة للخليفة الناصر لدين الله، السلطان شهاب الدين الغوري سلطان الهند وغزنه (ت٦٠٢هـ/١٢٠٥م) وأتابك سعد صاحب شيراز، كما لبسها صاحب جزيرة كيش، والملك الظاهر صاحب حلب(٤). وأرسل الناصر

---

(١) كان الناصر قد أرسل سراويل الفتوة إلى السلطان العادل الأيوبي سنة ٥٩٩هـ، وكان بذلك أول من ارتبط بفتوة الناصر من ملوك الأطراف. انظر: أبو شامة، الذيل، ص ٣٣؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٥١٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٣، ص ٣٨ .

(٢) الديوجي، الفتوة، ص ٤٨.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٠٦؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٢٧٢؛ ابن الوردي، تاريخ، ج٣، ص١٨٣؛ ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص١١٣؛ الديوه جي، الفتوة، ص٤٨.

(٤) الذهبي، تاريخ، ط٦٣، ص ٧٦- ٧

لباس الفتوة إلى عز الدين أبي المظفر كيكاوس السلجوقي، والى الملك الأشراف[1] أبو الفتح موسى بن الملك العادل صاحب دمشق[2].

تركزت نشاطات الناصر في الفترة (٥٧٨-٥٩٩هـ/١١٨٢-١٢٠١م) على الرياضات التي يجب أن يمارسها الفتى ويتقنها ، ليدخل منظمة الفتوة، وعلى رأسها رياضة الرمي بالبندق[3]. كان الهدف من هذه الرياضة صيد طيور الواجب[4] أو الطير الجليل. ووضعت لصيدها قواعد وأحكام وشروط، وصدرت في أمورها فتاوى تشبه الفتاوى الفقهية، وألفت كتب في ذلك منها كتاب "المقترح في المصطلح في علم البندق وطرائقه ومعرفة أصوله ومذاهبه" للشيخ محمد بن إسماعيل بن ودعه المعروف بابن البقال (ت٥٨٨هـ[5]/١١٩٢).

وكما كان الخليفة رئيساً لجميع الفتيان في مذهب الفتوة، كذلك رئيسهم في الرمي بحسب أحكام الفتوة، فكان جميع الرماة من هذه الفئة يرمون باسمه،

(١) هـو الملك الأشرف مظفر الدين أبو الفتح موسى بن الملك العادل الأيوبي، صاحب دمشق، مـن ملوك الدولة الأيوبية، ملك الرها وحران وسنجار، توفي سنة ٦٣٥هـ. الذهبي، سير، ج٢٢، ص ١٢٢- ٧.

(٢) مجهول، الحوادث، ص ١٠٦.

(٣) البـندق: عـبارة عن كرات تصنع من الطين بعد أن يعجن جيدا، وترمى بواسطة الأقواس والنـبال. النويـري، نهايـة الإرب، ج١٠، ص ٣٢٤-٥؛ زيـدان، تـاريخ التمدن، ج٥، ص ١٥٣- ٤.

(٤) وقـد حـددت طيور الواجب بأربعة عشر نوعا هي: التم، والمرزم، والكركي، والغرنوق، واللغلغ، والضوع، والإوز، والبجع، والانيسة، والحبرج، والنسر، والعقاب. القلقشندي، صبح الاعشي، ج٢، ص٦٩ -٧٠؛ جواد، طيور الفتوة، ص ٢١٩ .

(٥) الذهبي، تاريخ، ط٦٤، ص٣٠٨، هامش(١).

ويعترفون برئاسته[1].

شجع الخليفة الناصر رياضة صيد السباع[2]، كما شجع رياضة السعي لمسافات طويلة، فقد أنعم على شخص يدعى بركة بن محمود الساعي، وجعله مقدم رجال باب القرية، بعد أن ركض من واسط إلى بغداد في يوم وليلة، ومن تكريت إلى بغداد في يوم واحد[3].

اهتم الخليفة الناصر بالحمام الرسولي (الزاجل) الذي كان يستخدم في نقل الرسائل والمكاتبات من منطقة إلى أخرى[4]. ويعود سبب الاهتمام بهذا النوع من الحمام إلى أمرين[5]:

الأول: أنها تستطيع الطيران إلى مسافة بعيدة. فقد تمكن أحد الطيور من الطيران من القسطنطينية إلى البصرة.

الثاني: هو أنها تستطيع أن تعود إلى موطنها الأصلي دون أن تضل الطريق.

ورغم ما جلبته هذه الاهتمامات من النقد للخليفة الناصر من قبل بعض المؤرخين[6]، إلا أنه كان يهدف من خلالها إلى جملة من الأمور: فهي رياضات جمعت بين التسلية والمتعة، والانبساط، وتربية الأجسام تربية رياضية. كما استخدم هذه الرياضات لتحقيق سياسته التي يمارسها، فرياضة السعي توفر له سعاة قادرين

(١) جواد، طيور الفتوة، ج١ ط٦٤، ص٣٠٨، هامش(١). جواد، طيور الفتوة، ج١، ص ٢٢٠ .
(٢) مجهول، الحوادث، ص١٧٥ .
(٣) المصدر نفسه، ص٢٥ – ٦ .
(٤) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٤، ص٤٣٤ .
(٥) عبد الهادي، الفتوة، ص١١٩ .
(٦) ابن خلدون، تاريخ، ج٣، ص٦٤٩ .

على نقل الأخبار والمعلومات والبريد بسرعة خاصة إذا علمنا انه كان مهتماً بجمع الأخبار وله من أجل ذلك أصحاب أخبار منتشرين في داخل بغداد وخارجها[١].

أمام اندفاع الخليفة الناصر لدين الله في الاهتمام بالفتـــوة وتنظيم حركتها يُطرح سؤال: لماذا اهتم الناصر بالفتوة؟.

اعتبر ابن خلدون اهتمام الناصر بالفتوة دليلاً على هرم الدولة العباسية وضعفها "وكان الناصر كثيراً ما يشتغل برمي البندق، واللعب بالحمام المناسيب، ويلبس سراويل الفتوة، شأن العيارين من أهل بغداد... وكان كله دليلاً على هرم الدولة وذهاب الملك من أهلها بذهاب ملكها منهم"[٢].

إن ما قاله ابن خلدون في وصف فتوة الناصر لا تؤيده الروايات التاريخية عن شخصية الناصر، ومحاولته الطموحة إلى إعادة أمجاد الخلافة العباسية، ومن كان هذا همه، فإن كل سياسة يتبعها تكون لتحقيق غاية والوصول إلى هدف[٣] فما هي تلك الغاية التي كان الناصر يسعى إليها؟.

حاول مجموعة من الباحثين الإجابة على هذا السؤال. وأول من تصدى لهذه المهمة المستشرق "بـــول فتك" "P.Wittek" فقال[٤]: "أن الناصر حرص على إقامة خط دفاعي يقي البلاد من الزحف الصليبي على المسلمين، وأنه أراد أن يوحد جميع المجاهدين الجدد تحت لوائه، وأن يربطهم بشخصه برباط جديد".

---

(١) عبد الهادي، الفتوة، ص١٢١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٦٤٩ .

(٣) عبد الهادي، الفتوة، ص ١٣٣ .

(٤) تشنز، الفتوة والخليفة الناصر، ص٢٠٠.

أما سالنجر "G.Salinger"، فيرى إن غرض الناصر كان مراقبة النقابات الشاذة التي أثارت في بغداد قبل حكمه فتنا وقلاقل استمرت سنين وأرهبت الناس[١].

ونلمس من رأيه انه يرد على ابن خلدون. فيرى إن هدف الناصر من الفتوة وربطها في شخصه، ونشرها بين الأمراء في العالم الإسلامي، إنما فعل ذلك لنقصان القوى العسكرية لديه، ثم ليخلق بواسطة هذه التبعية القوية بين أفراد الفتوة من الأمراء قوة يستطيع عند الحاجة إليهم تنفيذ رغباته[٢].

ومن الباحثين العرب الذين حاولوا تقديم إجابة على ذلك الدكتور مصطفى جواد حيث قال[٣]: "رأى الناصر أن العالم الإسلامي في خطر، فالقسم الشامي ما بين مستعمر ومهدد من الفرنج، ومصر مطمع أنظار الغزاة، وشمال أفريقيا بأيدي بني عبد المؤمن وهم يدعون الخلافة، والأندلس في قرارة الأخطار، والعراق مقر الخلافة مستهدف لمطامع الدولة السلجوقية الكبرى بغربي إيران، فأراد أن يجدّد شباب الأمة الإسلامية ويوحدها في الداخل والخارج، ويجعل بغداد المركز العالمي للسياسة ولجميع بلاد الإسلام كما كانت في بعض العصور الماضية".

أمام هذه التعليلات التي قدمها نخبة من الباحثين، لا بد من توضيح جملة من الحقائق التي كانت وراء فتوة الناصر.

حرص الناصر على إضفاء الشرعية على فتوته بإسنادها إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن طريق علي بن أبي طالب – رغم أن هذا السند لا يصمد أمام

---

(١) سالنجر، الفتوة هل هي الفروسية، ص٢٢٧؛ تشنر، الفتوة، ص٢٠٠.

(٢) الفتوة والخليفة الناصر، ص١٩٣. ويؤيدة في ذلك المنجد في كتابه الحركات التقدمية .

(٣) مقدمة كتاب الفتوة، ص٥٥– ٦.

الدراسة والنقد- إلا أن له دلالاته:

أولاً: فهو يعطي الناصر السند والسلطة الأدبية والروحية، زيادة إلى سلطة الخلافة، وذلك لأنه رئيس تنظيم يرجع في أصوله إلى الإمام علي بن أبي طالب. ومن هنا حرص الناصر على إدخال ملوك الأطراف في فتوته وربطهم به شخصياً لتأكيد هذه السلطة.

ثانياً: أن إسناد الفتوة إلى الإمام علي فيه تقرب من الشيعة، وذلك لأن شخصية الإمام علي مقبولة لدى السنة والشيعة، وهذا فيه دلالة على أن فتوة الناصر ليست لمذهب دون آخر، وإنما هي وسيلة لجميع المسلمين: سنة وشيعة تحت قيادة واحدة، وبذلك يتغلب على أكبر عقبة تواجهه ألا وهي العصبية المذهبية(١).

كما أن فتوة الناصر كحركة تربوية للأمة يتربى فيها الفرد تربية متكاملة، فقد بنى الناصر فتوته على أساس خلقي ينبع من أوامر الشرع وان نظرة سريعة إلى الفصل التاسع من كتاب الفتوة لابن المعمار ترينا ما هي الخصال التي يجب على الفتى فعلها، وما هي الخصال التي يؤمر باجتنابها.

بالإضافة إلى ذلك، فأن فتوة الناصر اهتمت بالتربية من الناحيتين الروحية والبدنية. أما من الناحية الروحية، فأننا لاحظنا الجانب الصوفي فيها فقد أخذ الناصر الفتوة عن الشيخ عبد الجبار وهو شيخ من مشايخ الصوفية، ولذلك كان الناصر شديد الاهتمام بالصوفية والمتصوفة، ويتردد عليهم ويلبس زيهم(٢). أما من الناحية البدنية فنلاحظ ذلك من خلال الاهتمام الكبير الذي أولاه للرياضة وبناء

---

(١) عبد الهادي، الفتوة، ص١٣٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٥٦.

الأجسام، من ممارسة رياضة الصيد والسعي وغيرها من الرياضات[1].

إذاً فإن الاهتمام الكبير الذي أولاه الناصر للفتوة كان بسبب رغبته بتحقيق أهداف وغايات كثيرة تؤدي إلى توحيد الأمة وتربيتها تربية متكاملة، وجمع جهودها لتحقيق نهضة شاملة ليعيد من خلالها للخلافة بعض أمجادها، وقوتها التي فقدتها منذ قرون.

بعد وفاة الناصر سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) اتبع الخلفاء الذين جاءوا بعده أثره في العناية والقيام برسومها ورعاية الفتيان في البلاد الإسلامية، فابنه الظاهر لم يبق في الخلافة زمنا طويلا نستطيع أن نتبين به مقدار عنايته بالفتوة، فانه توفي في سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) ولم تدم خلافته سوى سبعة أشهر.

حاول الخليفة المستنصر بالله (٢٣-٦٤٠هـ/ ١٢٢٦- ١٢٤٢م) أن يرتفع في سند الفتوة إلى سند عال، فحسّن له جلال الدين بن المختار العلوي[2]، بأن يلبس سراويل الفتوة من علي بن أبي طالب وأفتى بجواز ذلك، فتوجه الخليفة إلى مشهد علي بالنجف، ولبس السراويل عند الضريح[3].

استمرت سراويل الفتوة في عهد المستنصر عنوانا للولاء والطاعة من ملوك وأمراء الأطراف، حيث كان كل أمير أو ملك يريد أن يعلن الطاعة والولاء

---

(١) المرجع نفسه، ص١٣٩.

(٢) هو جلال الدين عبدالله بن المختار الكوفي، أديبا، حفظ القرآن الكريم في نيف وخمسين يوما، وكان يحضر عند الناصر في رمي البندق، وكان مولده سنة ٥٧٧هـ، وتوفي سنة ٦٤٩هـ. مجهول، الحوادث، ص٢٥٦؛ تشنز، الفتوة، ص١٩٨.

(٣) مجهول، الحوادث، ص ٢٥٧؛ جواد، الفتوة وأطورها، ص٧١.

للخلافة، يرسل إلى الخليفة طالبا منه أن يمنحه سراويل الفتوة[١]. ففي سنة(٦٢٦ هـ/١٢٢٨م) طلب جلال الدين منكبرتي شاه سراويل الفتوة من الخليفة المستنصر، فأرسل الخليفة من ينوب عنه بطريق الوكالة ليقوم بإلباس سـراويل الفتوة لجلال الدين[٢]. وفي سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) قدم نور الدين أرسلان شاه بن عماد الدين بن زنكي صاحب شهرزور إلى بغداد، فحضر عند شرف الدين إقبال الشرابي مقدم الجيوش العباسية فشرفه بلباس الفتوة نيابة ووكالة عن المستنصر[٣]. وفي السنة نفسها شرف الخليفة المستنصر الشيخ عبدالله الشرمساحي مدرس المالكية بالمدرسة المستنصرية بلباس الفتوة[٤].

وقد برز في عهد المستنصر بعض رجال الدولة ككبراء في الفتوة، وكان على رأس هؤلاء شرف الدين إقبال الشرابي، كان الخليفة ينيبه في منح سراويل الفتوة، ويعطيه وكالة بذلك[٥].

بعد وفاة المستنصر بالله سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) استمر الخليفة المستعصم بالاهتمام بالفتوة ، ولكن ليس بنفس درجة اهتمام والده، فقد سار على طريق والده في منح سراويل الفتوة للذين يقصدون بغداد من الأمراء والرسل، فعندما جاء القاضي عبد العزيز بن أبي البركات رسولا من الملك الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر، منحه المستعصم سراويل الفتوة وسقاه شربة الفتوة[٦]. ومما يدل على

(١) مجهول، الحوادث، ص ٤.

(٢) مجهول، الحوادث، ص٥؛ جواد، الفتوة وأطوارها، ص٧١.

(٣) مجهول، الحوادث، ص ٨٨-٩٠؛ جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص٨٢.

(٤) مجهول، الحوادث، ص ٩٠-١.

(٥) المصدر نفسه، ص٨٩.

(٦) ابن الفوطي، تلخيص، ج٤، ق٤، ص٢١٥؛ عبد الهادي، الفتوة، ص٢١٥.

اهتمامه بالفتوة أيضا تشجيعه للألعاب الرياضية، ونشرها بشكل كبير، وخاصة رياضة السعي[1]، واهتم بالحمام الرسولي فأضاف إليه أربعة أنواع جديدة[2].

ومما سبق نلاحظ أن الفتوة بعد الناصر لدين الله أخذت تتراجع عن الأهداف التي من أجلها سعى الناصر لتبني الفتوة، وبلغ هذا التراجع أوجه في عهد المستعصم، حيث غلب على الفتوه في زمنه الاهتمام بالنواحي الترفيهية واللعب، أكثر من الاهتمام بالنواحي التربوية التي حرص على تحقيقها حيث ظهرت الفتن[3] من جديد بين أهل المحال، وكان سببها صيد السباع. ثم ظهور ظاهرة العيارين والشطار من جديد، بعد أن توارى ذكرهم طيلة حكم الناصر والظاهر والمستنصر[4].

رابعاً: الأصنـــاف

ارتبط تطور المدينة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بتطور حياتها الاقتصادية. فكان تنظيم الأصناف وأصحاب الحرف هو المسؤول عن الحياة الاقتصادية في المدينة. لم يقتصر دور الأسواق على الحياة الاقتصادية، بل تعداه إلى النواحي الفكرية والاجتماعية والسياسية. فلما بنيت بغداد وجهت عناية خاصة إلى الأسواق بما فيها من تجار وباعة وصناع. فهناك أسواق رئيسة، وأخرى فرعية، حتى كان لكل محلة

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٢٣٤، ص٢٩١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٧.

(٣) حول هذه الفتن انظر: مجهول، الحوادث، ص٣١٤، ص ٣٠٢؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٦٢١.

(٤) مجهول، الحوادث، ص ٢٧٨؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص ٦١١.

سوقها[1].

أدى التحول الاقتصادي الذي شهده العصر العباسي إلى ظهور فئة تمتلك الثروات الهائلة، تضم كبار التجار، وكبار الموظفين وأصحاب المعامل. زاد من قوتها وتوسيع فعاليته، ظهور فئة من أصحاب المصارف الذين هم تجار في الأصل أخذوا يتاجرون بالنقود. صاحب توسع المعامل وتكثيف الزراعة تجمع العمال وتكتلهم في محل واحد أو رقعه واحدة ، هذا قوى الشعور بالمصلحة المشتركة . ولاشك أن تكتل الصناع في أسواق خاصة قوى تماسكهم وجعلهم يزيدون في تنظيمهم[2].

ونجد أهل الحرف يشار إليهم بالأصناف، وأصحاب المهن وأهل الصنايع. ولقد قويت الرابطة بين أهل الصناعة وصار كل يشعر بالارتباط الوثيق بزملائه، وصار من أقوالهم المأثورة: "الصناعة نسب". ويتصل بالتماسك الحرفي، الشعور بالكيان لدى أهل الصنايع، انتشار الانتساب إلى المهنة مثل: الزيات و الجراح و الزجاج وغيرها. وهذا الاتجاه يدل على تحسن النظرة إلى الحرفة اليدوية[3].

كانت الحكومة تنظر إلى أصحاب المهن والحرف كمنظمات اجتماعية متضامنة في المسؤولية، فمثلا عندما قتل شخصاً من الأنبار شخص آخر، ألزم تاج الدين العلوي ناظر نهر عيسى يومئذ أهل الأنبار ديته، وطالبهم بمال فقسم المبلغ على خمسة أنفار، على كل نفر خمسة آلاف دينار، ثم ألزم الضعفاء ألف دينار، وعلى الخليفة خمسة وعلى (الصفارين) خمس مائة. فاعتبر صنف (الصفارين)

---

(١) الدوري، الأصناف، ص١٣٧.

(٢)عثمان، المدينة الإسلامية، ص٣٦١.

(٣) الدوري، الأصناف، ص١٤١-٢.

مسؤولا بالتضامن[1]. ولما أقدم معلم يعرف بيحيى ابن أبي سعيد البصري على ارتكاب الفاحشة مع فتى كان يعلمه الخط، أحضر جميع المعلمين بمدينه السلام وجُب ذكره بمشهد من الجميع[2].

فرضت الدولة على الأسواق في هذه الفترة ضرائب، وأحيانا كانت هذه الضرائب تلغى من قبل الخليفة، فقد أمر الخليفة الناصر لدين الله سنه (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) بإعفاء الأسواق من الضرائب المفروضة على السلع و أنواع المبيعات، وكان مبلغ ما يجبى منها في كل سنه مائتي ألف دينار، وسمح الخليفة بإلغائها تحقيقا لمصالح الناس ورغبه في الثواب[3].

وفي خلافة الظاهر (٦٢٢هـ-٦٢٣هـ/١٢٢٥م-١٢٢٦م) توجهت جهود الدولة لتوحيد الأوزان في الصنجات[4] المستعملة، وهي صنجة المخزن مع صنجة البلد، وكان المخزن يقبض الضرائب من الناس بصنجة تزيد على صنجة البلد بنصف قيراط، ويدفع إليهم المال بصنجة البلد، وقد بلغ المجموع السنوي لما يحصله المخزن من هذا التعامل المزدوج بالصنجات خمسه وثلاثين ألف دينار[5].

يظهر أن أفراد الصنَعَة يتفاهمون على الأسعار حماية لأنفسهم من المنافسة، ولا تتدخل الحكومة في الأسعار إلا فيما يخص أسعار المواد الغذائية من حنطة ودقيق عند حصول غلاء أو مجاعة. فبأمر من الخليفة المستنصر بالله اتخذت

---

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٩؛ الدوري، الأصناف، ص١٤٦.

(٢) ابن الساعي، الجامع لمختصر، ج ٩، ص١٢١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٢٧٨؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ص٢٢٧.

(٤) الصـــنج عبارة عن عيار على هيئة الدرهم أو الدينار، وتشبها بالكتابة و النقوش، قد اتخذت من الزجاج لأنه لا يتأثر بالحرارة والبرد. معروف، العملة والنقود البغدادية، ص٧.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ح١٢، ص٤٤٢

الدولة سنه (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) خطوة أخرى من أجل استقرار الأسعار حينما حددت قيمه الدينار بعشرة دراهم،ومنعت من التعامل بالقراضة لإنقاذ الرعية من التعامل بالربا، وكان ذلك بحضور الخليفة والولاة وأرباب الدولة في دار الوزارة، وقد منح الصيارفة مبالغ من هذه الدراهم الجديدة للتعامل بها مع الناس ببغداد، كما فرقت مبالغ أخرى في أنحاء البلاد كافة[١].

وفي حالات نادرة نجد الدولة تتدخل لتخفيض الأسعار، من خلال توفير المواد الغذائية من مخازنها مثل ما قام به الخليفة الناصر لدين الله في نفس السنة التي تولى فيها الحكم سنه (٥٧٥هـ/١١٧٩م). أعادت الدولة ما كانت قد جربته من فوائد تيسير الغذاء عن طريق بيع الغلات المتوفرة في المخازن، أو توزيعه على الجند عوضا عن رواتبهم، فرخصت الأسعار وكثرت الخيرات[٢]. وعلى هذا النمط من السياسة قام الخليفة الظاهر سنة(٦٢٢هـ/١٢٢٥م) ببيع ما لديه من الطعام في خزانته الخاصة فرخصت الأسعار[٣].

كانت الأصناف والأسواق تحت أشراف المحتسب، ويبين الشيزري (ت٥٨٩ هـ/١١٣٩م) في مطلع كتابه الحسبة "ونبهت فيه على غش المتعيشين في المبيعات وتدليس أرباب الصناعات[٤]". ويقول "وينبغي للمحتسب أن يحدد النظر في المكاييل"[٥]. عليه أن يتفقد عيار الصنج والحباب والموازين، وأن يختمها بختم

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٧٠-١، الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٦٥؛ الدوري، الأصناف، ص١٥١- ٢، الغساني، العسجد المسبوك، ص٢٥٧ .

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٦١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٤٤٣.

(٤) يعرف الماوردي الحسبة بقوله: هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله. ص٣٦٢.

(٥) الشيزري، نهاية الرتبة، ص٣.

خاص بعد أن يرى أنها مادة صلبة أو مغطاة بالجلد[١]. ثم يبين أهميه العرفاء لمساعدته في كشف الغش و التدليس لدى أهل الصناعة[٢].

ومن هذا يتبين أن مهمة المحتسب تنصب على التأكيد من صحة الأوزان و المقاييس والمكاييل، ومنع الغش والتدليس. يساعده عرفاء من أهل الصنف. ويشترط في العريف أن يكون من صالح أهلها، خبيراً بصيراً بغشهم وتدليسهم مشهوراً بالثقة والأمانة[٣].

وممن تولى الحسبة ببغداد أحمد بن عبد الله البنديجي، وكان فقيها حنفيا وقد وُلّي القضاء والحسبة بالجانب الغربي سنه (٥٦٦هـ /١١٧١م) فحمدت سيرته وتوفي سنه (٥٩٣هـ[٤]/١١٩٦ م) وعلاء الدين بن الزينبي، ويبدو أنه كان شديدا على الناس حتى ضجوا منه فرفعت يده عن الحسبة. وهذا يظهر مدى مراعاة الحكومة لشعور الناس[٥].

وتولى أبو محمد يوسف بن الجوزي الحسبة ببغداد سنه (٦٠٩هـ[٦]/١٢١٨ م). وتولاها ثلاثة من أخوته. وهم: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، وشرف الدين عبدالله، وتاج الدين عبد الكريم. وقد قتلوا جميعا بأيدي المغول سنة (٦٥٦ هـ[٧]/١٢٥٨م).

---

(١) المصدر نفسه، ص١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢؛ الدوري، "الأصناف"، ص١٤٩.

(٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص١٢؛ ابن الأخوة، معالم القربة، ص٢٢٤ .

(٤) فهد، تاريخ العراق، ص٢٢٥- ٦.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٠٠.

(٦) سبط الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٣٢.

(٧) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج ٢، ص٢٦١-٢.

الفصل الثالـــث

الأعياد والاحتفالات ووسائل التسلية والحياة اليومية

أولاً: الأعــياد والاحتفالات:

أ- الأعياد والاحتفالات الإسلامية

ب- الأعياد المحلية والمبتدعة

ج- أعياد أهل الذمة

د- الاحتفالات العامة

ثانياً: وسائل التسليــة

ثالثا : الحياة اليوميــة

كانت الاحتفالات تضم ألواناً شتى من الأعياد الإسلامية، فمنها: الديني والرسمي والمحلي والعائلي. ومنها ما هو من ابتكار التجمعات المدنية الإسلامية، وبعضها تقليدي سابق للإسلام. لم تنتظم تلك الاحتفالات، فنجد بعضها دورياً، في حين أن البعض الآخر يكون في المناسبات فقط. ولكنها تدل على أن المجتمع البغدادي كان في حاجة إلى الترويح عن النفس بشكل أو بآخر ولو بالبكاء. وفي حاجة إلى كسر الرتابة اليومية بالخروج عليها، وإذا كان بعضها يدل على عمق الشعور الديني في المجتمع، فإن بعضها الآخر كان يدل على رقة المظهر الإسلامي في الحياة العامة، وعلى الرغبة في الاشتراك في الجانب الاجتماعي والمسلي من الأعياد التقليدية والنصرانية.

أ - الأعياد والاحتفالات الإسلامية

ارتبطت أعياد المسلمين واحتفالاتهم بممارسة الشعائر الدينية، لذلك تنوعت. وأول الاحتفالات كانت أحياء شهر رمضان. تبدأ الاستعدادات للاحتفال بشهر رمضان مع نهاية شهر شعبان. فيقوم ديوان الخلافة بتوزيع الهدايا (العطايا الرمضانية) على سائر المساجد والمدارس والمشاهد والربط وزوايا الفقراء. وتكون تلك العطايا من الدقيق واللحم، من أجل تقديم وجبة الإفطار للمنقطعين بها من الزهاد والمتصوفة، بالإضافة إلى من أراد الإفطار بها من عامة الناس[١]. وباعتبار شهر رمضان موسم العبادة والتقرب إلى الله، لذلك حرص الأغنياء والموسرون من أهل الخير على توزيع العطايا على الفقراء[٢]

(١) مجهول، الحوادث، ص١٤- ٥؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص ٤٢٢.

(٢) سبط بن التعاويذي، الديوان، ص٢٩٤؛ ابن الكازروني، مقامة، ص٤٣٧؛ مجهول، الحوادث، ص١٤.

وإذا حلّ رمضان يكون شهر عبادة، فتضاء المساجد بالمصابيح، وتقام فيه الصلوات الخمس أضافه إلى صلاة التراويح(١). ويقبل الناس على سماع وقراءة القرآن في منازلهم وفي المساجد، ويأخذ المرتلون بترتيل القرآن بعد صلاة العصر.

وحسن صوت أحدهم يجعله محط أنظار المسلمين في مختلف محلات بغداد، فيأتيه الناس ليستمعوا قراءته، ومن هؤلاء المقرئين الذين كان لهم هذا الصيت: أبو يعلى الحراني المقرئ (ت ٦٠٢(٢)هـ١٢٠٥م)، والشيخ حسن بن علي الدرزبيثي الذي كان أهل بغداد يقصدونه للسماع. ولم تقتصر قراءته للعامة، بل حرص الخليفة الناصر على سماع صوته، فكان يأتي إلى باب حجرة الخليفة، فيبدأ بالقرأة والخليفة يسمع(٣).

لم تقتصر أعمال الخير على توزيع الطعام على أماكن تواجد الزهاد والمتصوفة، بل نجد أن الخليفة الناصر أمر بإنشاء دور الضيافة، ليفطر فيها فقراء المسلمين. وقد أنشئت هذه الدور بجانبي بغداد، وبلغ عددها عشرين دارا (٤). جهزت هذه الدور بكل ما تحتاجه من أدوات للطبخ وطباخين، وجعل الخليفة في كل دار من يوثق به وبأمانته، ليتولى مهمة الإشراف عليها(٥).

كانت الخدمة في هذه الدور مجانية، لا يتقاضى عليها أي أجر، إنما هي جزء من عمل الخير تفتح الدور أبوابها قبل أذان المغرب بفترة، استعدادا للإفطار،

---

(١) ابن الكازروني، مقامه، ص٤٣٧.

(٢) أبو شامه، الذيل، ص٥٤.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) أبو شامه، الذيل، ص٦٠؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٣٤؛ الذهبي، مختصر، ج١، ص١٨٠؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٣٢٢ .

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٢٧١؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٣٢٢.

ويقدم لكل صائم قدح مملوء بالطعام، ونصف رطل من اللحم، ورطلين من الخبز [1].

وأمر المستنصر بالله بزيادة عدد دور الضيافة الرمضانية حيث أضاف دارين إحداهما بدار الخلافة لإفطار أولاد الخلفاء المقيمين بدار الشجرة، والأخرى بخربة ابن جردة [2] للفقراء الهاشميين[3].

استمرت دور الضيافة في ازدياد، فقد أمر الخليفة المستعصم بالله بفتح أربع دور أخرى: دار بالمشهد الكاظمي، لأجل إفطار العلويين المقيمين به، ودارين بالجانبين الغربي والشرقي من بغداد للفقراء من العباسيين، ودار بصحن السلام من دار الخلافة لأجل الساكنين بدار الشجرة من أولاد الخلفاء، فأصبح بها داران لإفطار أولاد الخلفاء[4]. ويقدر عدد الذين كانوا يفطرون في هذه الدور بأكثر من عشرة آلاف شخص إذا علمنا أنه كان يقدم في كل دار من الدور في كل يوم خمسمائة قدح من الطعام[5].

ولأجل استمرار هذه الدور التي كانت بحاجة إلى الأموال، خصصت لها العوائد المالية اللازمة. بل جعل لها ديوان خاص يسمى "ديوان الطبق". يقول ابن

---

(١) أبو شامه، الذيل، ص٦٠؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٣٤؛ ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٥٢؛ مجهول، الحوادث، ص٤٤ .

(٢) خربة ابن جردة: محلة بشرق بغداد تنسب إلى أبى نصر بن أبى عبد الله بن أحمد المتوفي سنه ٤٩٣هـ. ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص١١٣.

(٣) البصري، المناقب العباسية، مخ، ورقه ١٤٦ب؛ مجهول، الحوادث، ص٤٤.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ص٥١٨.

(٥) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٣٠؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٣٢٢.

خلكان[1] في تعريف الطبق: "أن أهل بغداد يحضرون سماط الخليفة عند الوزير، وهم يسمون السماط طبقا".

غير أن الطبق في الاصطلاح له مفهوم أوسع وأشمل خاصة بعد اهتمام الخلفاء العباسيين بشؤون دور الضيافة بصورة عامة، والضيافة الرمضانية بصورة خاصة. حيث أوقفت عليه الأراضي الزراعية، فعرف الطبق بأنه "الضياع الموقوفة على ضيافة الدولة العباسية للفقراء والحجاج وغيرهم ولاسيما في شهر رمضان"[2].

والظاهر أن توسيع مهام الطبق في الأعمال والإدارة وتنوعها جعلت منه ديواناً مستقلاً يعنى بوسائل دعم الطبق في الدولة لتمكينه من القيام بمهام الضيافة في الدولة العباسية بما فيها دور ضيافة الحجاج، ودور الإفطار في رمضان وغيرها من مظاهر الضيافة [3].

ومما قام به المستنصر من وسائل دعم الطبق، وقف الأراضي الزراعية. فبعد أن تحول مجرى دجلة جهة الشرق إلى خربة، قام الخليفة المستنصر باستخراج نهر لها من دجيل، ووقف تلك الأرض على دور الضيافة[4]، وعرف النهر الذي شقه المستنصر "بدجيل المستنصري" [5].

---

(١) وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٣٥.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢١، هامش رقم (١).

(٣) الرحيم، الخدمات العامة، ص٤٦.

(٤) ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٩٥٣.

(٥) ويقع دجيل المستنصري على بعد عشره فراسخ شمال بغداد. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٩٥٣.

أصبح توزيع الأعطيات الرمضانية سُنة سنوية، حرص الخلفاء على توزيعها على سائر المدارس والأربطة والمشاهد وزوايا الفقراء. وتتكون كما أسلفنا من الدقيق واللحم وغيره من المواد(١).

ومن العادات التي حرص المجتمع البغدادي على استمراريتها هي (المسحراتي). يبدأ عمل هذا الشخص قبل موعد آذان الفجر بوقت ليس بالقصير بالمناداة على أهل الشارع أو المحلة التي يقطنها يذكرهم بقرب موعد الأذان(٢)، ويردد أثناء مسيره في الشارع أناشيد وألحان بسيطة التركيب، ومما وردنا منها "يا نياما: قوما قوما، السحور، قوما"(٣).

وممن تولى هذه المهمة في بغداد أبو منصور بن أبي بكر ويعرف بابن نقطة. وفي إحدى الليالي مر ابن نقطة بجوار دار الخلافة، فعطس الخليفة الناصر، فقال ابن نقطة: "يا من عطس في الروزنة يرحمك الله، قوما"، فبعث إليه الناصر في اليوم التالي مائة دينار(٤).

ولا يعني أن أهل بغداد كانوا جميعا يقضون أوقاتهم في هذا الشهر بالعبادة والصيام والصلاة، بل نجد من الناس إذا افطروا اجتمعوا في بيت أحدهم إلى ما قبل السحور منهمكين بملاذّهم وغنائهم(٥).

---

(١) حول ذلك أنظر: الغساني، العسجد المسبوك، الصفحات: ٤٢٢،٤٧٠،٥٠٦،٥١٢،٥٣٢،٥٤٣، ٥٥٣،٥٧١، ٥٧٨، ٦٠٤، ٦١١.

(٢) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص٤٧.

(٣) أبو شامه، الذيل، ص٢٨؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٠٩.

(٤) أبو شامة، الذيل، ص ٢٨؛ ابن كثير، البداية، ج ١٣، ص٣٥.

(٥) ابن الكازروني، مقامة، ص٤٣٧.

وعلى عادة ديوان الخلافة فإذا بقي من رمضان أربعة أيام يقوم المخزن بتوزيع الخلع الخلافية على صدور الدولة والأمراء والعلماء، وتوزيع الأموال على الفقراء والمحتاجين(١).

يكون عيد الفطر(٢) يوم الأول من شوال. ويستعد الناس له عند آخر ليلة من شهر رمضان، بمراقبة هلال شهر شوال، ثم الشهادة عند القضاة بذلك، فيقوموا بدورهم بإيصال تلك الشهادة إلى قاضي القضاة، ومنه إلى الخليفة. فيصدر أمر الخليفة بإعلان العيد، وإذا لم يتحققوا من رؤية الهلال يتمون الصيام، ويكملوا عدة رمضان وبعدها يكون العيد(٣).

ويظهر الاهتمام بالعيد منذ الصباح، فيلبس الناس أفضل ملابسهم ويتزينون ويتعطرون، استعدادا للذهاب لصلاة العيد(٤). وجرت العادة أن تزين بغداد وجميع طرقاتها، وخاصة الطريق التي سيسلكها الخليفة أثناء ذهابه إلى الجامع لصلاة العيد(٥).

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) كان السبب في اتخاذ عيدي الفطر والأضحى، ما روي عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قدم المدينة ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ فقالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم): إن الله -عز وجل- قد بدل لكم خيرا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحى، فأول مبدأ فيه من العيدين عيد الفطر، وذلك سنة اثنتين للهجرة. النويري، نهاية الإرب، ج١، ص١٨٤.

(٣) فهد، العامة، ص١٩١.

(٤) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ص٥.

(٥) التطيلي، الرحلة، ص١٣٤، ابن الكازوني، مقامة، ص٤٣٧.

يتقدم موكب الخليفة، موكب كبار الأمراء يرتدون ملابس خاصة بهذه المناسبة، تتكون من القباء وعمامة مقصبة، على جانب كل أمير خادمان(١). ثم يخرج موكب الخليفة، وتظهر عليه معالم الأبهة والفخامة، ويتوجه إلى مصلى العيد الذي كان في ظاهر بغداد(٢) عند باب الحلبة(٣)، ويكون الخليفة مرتدياً ملابس الخلافة: البردة المقصبة بفضة وذهب وعلى رأسه قلنسوة مرصعة بالأحجار الكريمة، وعليها قطعة قماش سوداء(٤) شعار العباسيين.

يصطف الناس على طول الطريق منتظرين قدوم الخليفة بالهتافات والتهاليل وينادون: "السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام"، ويرد عليهم الخليفة التحية بلثم أطراف بردته والتلويح بها(٥) وبعد ذلك يدخل الخليفة إلى الجامع، ويصعد المنبر ويشرع في إلقاء خطبته، ثم ينهض كبار المسلمين بالدعاء له، فيهتف الجميع آمين(٦).

في فرحة العيد يشتري الآباء لأبنائهم الهدايا والملاهي على أشكال الحيوانات المصورة لتزداد فرحتهم(٧)، كما يتبادل الجيران والأقارب الحلوى، ويأمر الخليفة بأن تحمل أطباق من الحلوى إلى الخواص والمقربين(٨).

---

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٤٠.

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٩١.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢١٥. أشار ابن جبير إلى أبواب حريم دار الخلافة فعددها: باب السلطان وباب الظفرية وباب الحلبة وباب البصيلة. الرحلة, ص١٨٤.

(٤) التطيلي، الرحلة، ص١٣٣.

(٥) المصدر نفسه، ص١٣٤، ابن الكازروني، مقامة، ص٤٣٧.

(٦) المصدر نفسه والصفحة.

(٧) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣٦٧.

(٨) سبط بن التعاويذي، الديوان، ص٤٠١.

بعد أن تنقضي صلاة العيد، يعود الخليفة إلى القصر، فيتوجه كبار رجال دولته من الأمراء والأعيان والقضاة والعلماء لتقديم التهاني ومعايدته[1]، فيمد سماط عظيم بدار الوزارة، يحضره كبار رجال الدولة والأمراء من المهنئين[2].

أحياناً كانت صلاة العيد تتأخر عن موعدها، فيتأخر بذلك مكوث الموكب إلى وقت متأخر، كما حدث سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) حيث اتصل خروج الموكب إلى الليل، وصلى الناس صلاة العيد قبل منتصف الليل، وكان السبب موت الخليفة المستنصر بالله[3].

كانت هنالك ظروف غير طبيعية تحدّ من مراسيم العيد، كموت الخليفة أو أحد أفراد عائلته، فتقتصر الاحتفالات على خروج الخطيب ليصلي بالناس صلاة العيد، ثم يعود. فلما توفيت والدة الخليفة المستعصم سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) "لم يخرج الموكب ولا ضرب طبل، ولم يجلس الوزير للهناء، وذلك لأجل العزاء بوالدة الخليفة[4]".

حرص الخلفاء على استغلال هذه المناسبة لتوزيع الخلع على المقربين والحاشية، ففي العيد سنة (٦٢٣ هـ/١٢٢٦م) أمر الخليفة بالتصدق بمائة ألف دينار[5]. وفرق الخليفة المستنصر سنة (٦٣٧ هـ/١٢٣٩م) على وزيره ومماليكه وعلى كافة الأمراء ما يزيد على ثلاثة عشر ألف خلعة[6].

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٨٣.

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٥٥.

(٣) مجهول، الحوادث، ص١٨٠ .

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٥٥ .

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٦٥ .

(٦) الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٩١ .

استغل الشعراء هذه الأعياد لأجل الاسترفاد والعطايا، فيتقدمون بمدح الخليفة في هذه المناسبة . ففي عيد الفطر سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) تقدم الشاعر سبط بن التعاويذي ومدح الخليفة الناصر بقصيدة مطلعها:

بـــك يـــا أبا العباس أحمد   حمد الـــزمن المسيء وإنه لمزُحمُ
فـــاسلم أمير المؤمنين فإننا   بك ما سلمت من المخاوف نسلمُ[1]

كما استخدمت الرقاع لتقديم التهاني والمعايدة على الخليفة فكتب عليها المعايدات، وترسل إلى الديوان لإطلاع الخليفة عليها[2].

وبهذه المناسبة، كان يجري في بغداد استعراض عسكري في أول أيام العيد، حرص الخليفة على رعايته، يجلس في منظرة الحلبة (وسط محلة المأمونية) يستعرض فيها الجند[3]. وأحيانا كان الخليفة ينيب الوزير عنه، ويكون ذلك من خلال شباك جعل في حائط الوزارة ينظر من خلالها الوزير للجيش في الشارع[4].

من العادات التي حرص الخلفاء شأن غيرهم من عامة الشعب عليها زيارة قبور أبائهم وأجدادهم في مقابر قريش، حتى أن الناصر نقل جثمان والده المستضيء بأمر الله من الدار الثقتية غرب دجلة المجاورة لجامع فخر الدولة بن المطلب إلى مقابر قريش[5] بالرصافة لئلا تبعد عليه زيارتها. يقول الأيوبي[6] في حوادث سنه (٥٧٧هـ/١١٨١م): "نُقل المستضيء من الدار التي كان مدفوناً فيها

(١) ديوانه، ص٣٧٣.

(٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص٦٢٧ – ٨ .

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢١٢ .

(٤) مجهول، الحوادث، ص٢٤ .

(٥) مضمار الحقائق، ص ٥٧؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٢٦٠.

(٦) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٨٧.

إلى الدار العتيقة التي بعضها لجهات دجلة من بغداد عند رأس الجسر، مجاورة لجامع فخر الدين بن المطلب. وكانت العادة أن يدفن الخلفاء بمقابر قريش بالرصافة إلا المستضيء رضوان الله عليه -فانه ذكر أنه أوصى بذلك، وقيل أن الإمام الناصر لدين الله- صلوات الله عليه اختار هذه الحال لأجل خريدة أمير المؤمنين لئلا تبعد عليه زيارته، ولا تجد من يدله بعد ذلك الطريق، فاختار ذلك لقربه".

ولأهل بغداد في العيد عادة طريفة، فبعد انقضاء أسبوع على العيد يخرجون إلى أطراف بغداد لدفن (العيد) فيخرج الناس كبارهم وصغارهم وعلى رأسهم رؤساء المحال يأتون بشخص، يتمسخرون عليه ويضحكون، ثم يكفنوه على هيئة ميت على مرأى من الناس، وهم يبكون، فإذا فرحوا وانبسطوا قام (الميت) وهم يضحكون[1]

حرص الخليفة الناصر على مشاركة العامة في هـذه الاحتفالات، فـأمر سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) أن يدفن العيد عند بستان يحيى بن علـي على نهر عيسى، فلما كان الموعد أمر أن يحضر رؤساء المحلات (لدفن العيد) في الموضع الذي حدده الخليفة، فخرج الناس رجالا ونساء وأطفالا، وجلس الخليفة ينظـر إليهم فكفنوا رجلا منهم، وحملوه فيما بينهم، قسم يبكون ويصرخون، وآخرون يعزونهم، حتى إذا انبسطوا رموا (الميت) بالماء، والخليفة يضحك على تلك الأفعال، ثم أمر (للشخص الميت) بمائة دينار[2].

وإذا ما حل شهر ذي القعدة، بدأت الاحتفالات بحلول موسم الحج. حيث يتوافد الحجاج في هذا الشهر من مختلف أنحاء العراق، ومن المناطق الواقعة شرقه

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨٨.

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٨٨.

كفارس وخراسان، ويقيمون في الجانب الغربي من بغداد، حيث تتوفر مراكز مجهزة بالخيام والطعام والشراب[١].

كانت الحكومة تشرف على تنظيم مسيرة الحجاج من بغداد إلى الديار المقدسة ثم العودة بعد انتهاء الموسم، فتولي إمرة الحاج إلى أحد كبار الأمراء من مماليك الخليفة، وغالبا ما يكون من الأتراك[٢]. وبعد أن تتم مراسم الخلع على أمير الحاج، يفوّض بالخطبة بقوافل الحجاج ويتقدم الموكب "وهو جالس في هودج تعلوه قبة مزينة بالديباج المطرز بالذهب وخلفه الكوسات"[٣] ويحمل معه كميات كبيرة من المؤن والثياب إلى جانب الإبل[٤].

وإذا حان موعد رحيل الحاج شهدت بغداد مواكب رائعة، تزدان الشوارع والمحلات التجارية[٥]، ويخرج الناس على اختلاف أعمارهم للتفرج، وقد لبسوا أزياء مختلفة الألوان والأشكال[٦].

ارتبط بموسم الحج اهتمام الخلفاء العباسيين برعاية تلك المشاعر المقدسة. وتمثل ذلك بكسوة الكعبة المشرفة. فكان الخليفة يعهد إلى أحد العلماء بتولي كسوة الكعبة، ويكون خروجه مع خروج الحاج من بغداد، حاملا تلك الكسوة[٧]. وممن

---

(١) ابن الكازروني، مقامة، ص٦٣٥- ٦.

(٢) حول إمارة الحج انظر الفصل الأول تحت عنوان الأمراء المماليك.

(٣) ابن الكازروني، مقامة، ص٤٤١.

(٤) الاطرقجي، الحالة الاجتماعية، ص٣٠١.

(٥) المرجع نفسه، ص٣٠١.

(٦) ابن الكازروني، مقامة، ص٢٣٦.

(٧) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص٨٥٥.

تولى هذه المهمة، الشيخ عبد السلام بن عبد الوهاب الجيلاني(١). وأبو الحسن علي بن عبد الجبار الملقب شمس الدين(٢).

ولأجل راحة الحجاج وتوفير المسكن والطعام لهم، أمـر الخليفة الناصـر سنة (٦٠٥هـ/١٢٠٨م) بإنشاء دور الضيافة للحجاج بالجانب الغربي من بغداد على دجلة، وأمر أن تزود بكل ما تحتاجه هذه الدور من الأطعمة، وأوصى متولو الدور أن لا يردوا أحدا من الحجاج عن تناول الطعام فيها(٣). فإذا أُعلن الرحيل زوِّد الحجاج بالكسوة، وأعطى كل فقير منهم دينار(٤). وإذا صادف وجود الحاج في بغداد مع البيعة للخليفة، كانوا يشاركون فيها، ففي (٥٧٥هـ/١١٧٩م) وافق موسم الحج مع البيعة للناصر، فتقدم الحجاج الوافدون من خارج بغداد بالبيعة له(٥)

ولا بد أن نشير أن هناك من كان يقوم بالحج نيابة، فقد قام الشيخ عفيف الدين بن أسعد بن كامل البندنجي بالحج نيابة عن والدة الناصر السيدة زمرد خاتون ثلاثين سنة(٦).

كان الطريق الذي تسلكه قافلة الحاج يمر في مناطق شاسعة يسكنها البدو

---

(١) هو عبد السلام بن عبد القادر الجيلي (الجيلاني) الصوفي، درس بمدرسه جده بباب الأزج، وحج مرارا متوليا لكسوة الكعبة، توفي سنه ٦١١هـ. ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، مخ، ج٣، ورقة ١٥٩.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٨٩ .

(٣) أبو شامة، الذيل، ص٦٤؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٥٨؛ ابن الكازروني، مختصر، ص٢٤٥؛ ابن كثير، البداية، ج١٢، ص٥٦؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص١٧٤

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٥٩؛ ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٥٦ .

(٥) أبو شامة، الذيل، ص١٥ .

(٦) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص ص٩٧-٨ .

وكثيرا ما قاموا بمهاجمة القوافل والسطو عليها. عمدت الحكومة إلى تلافي هذه الغارات عن طريق كسب البدو بعقد اتفاقيات معهم لحماية القوافل، مقابل مبلغ من المال[١]. لكن هذه الاتفاقيات لم تكن تحترم دائما، ويعود ذلك إلى صعوبة الاتفاق مع جميع البدو، لذلك نجد أن الحجاج يتعرضون إلى الغارات بين سنة وأخرى. ففي سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م) هاجم البدو بزعامة رجل يدعى دهمش قوافل الحاج، وكان مع أمير الحاج الأمير سنجر بن عبدالله الناصري[٢] ستمائة فارس، ولكنه تقاعس عن ردعه، فطلب دهمش من الحجاج خمسين ألف دينار، جمعها سنجر منهم، فضيق عليهم بذلك، فلما عاد إلى بغداد كلّفه الخليفة الناصر برد المال إلى أصحابه من ماله الخاص، وعزله عن إمارة الحاج[٣]. وتكرر مثل هذا سنة (٦٢٦ هـ[٤]/ ١٢٢٨م) وسنة (٦٤٣هـ[٥]/ ١٢٣٦م).

وموسم الحج لم يكن -رغم عظمته وقدسيته- يخلو من الفتن والاقتتال بين الحجاج. ففي سنة (٥٨٣هـ /١١٨٧م) وقعت فتنة بين الحجاج، كان سببها أن الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم، وهو أحد أمراء السلطان صلاح الدين الأيوبي، وأمير الحاج الشامي، والذي أمر الحاج بالرحيل دون معرفة أمير الحاج العراقي فلما كان عشية عرفة تجهز هو وأصحابه ليسيروا، فأرسل إليه الأمير طاشتكين ينهاه عن ذلك، فأجابه: "أني ليس لي معك تعلق، أنت

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٤.

(٢) سنجر بن عبدالله الناصري، صهر الأمير طاشتكين، وهو أحد مماليك الناصر تولى إمارة الحج لعدة سنوات ثم عزل، توفى سنة ٦١٠ هـ. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢١٩.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٥٦٨ .

(٤) مجهول، الحوادث، ص ٦- ٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٩٠.

أمير الحاج العراقي، وأنا أمير الحاج الشامي"[1]، وساروا ولم يقف، فلما رأى طاشتكين ذلك تبعه وأصحابه من الحاج العراقي، فهاجموهم، وفتكوا بهم، وقتلوا جماعة، ونهبوا أموالهم، وسبيت جماعة من نسائهم، وجُرح ابن المقدم وتوفي في اليوم التالي[2]، فلما علم الخليفة بما حدث أنكر ذلك على طاشتكين، ونسبه إلى طيشه، فانحط قدره عنده، ثم نكبه وحبسه[3]".

تكررت المضايقة للحاج سنة(٦٠٤هـ/١٢٠٧م) عندما حج صدر جهان البخاري رئيس علماء الشافعية في بخارى، فمنع الحاج من مياه الشرب قبل أن يشرب رجاله وخيلهم حتى أن أهل بغداد أطلقوا على هذه السنة "صدر جهنم"[4]. فلما عاد الحاج إلى بغداد لم يخرج أحد إلى استقباله، بل خرج الناس إلى الأسواق ولعنوه في وجهه[5]. وكانت النساء تخرج صارخات ناشرات الشعر يلطمن على موتاهن[6] لكثرة من مات في هذا الموسم، فقد توفي بسبب ذلك أكثر من ستة آلاف من الحجاج[7].

وتعرض الحاج مرة أخرى للنهب سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م) من قبل الشريف

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ٥٥٩- ٦٠.

(٢) العماد الكاتب، الفتح القسي، ص١٨٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٦٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٥١.

(٣) أبو شامة، الذيل، ص٧٨؛ الذهبي، تاريخ، ط٦٣، ص٦٥-٦.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ح٨، ق٢، ص٥٣٣.

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

(٦) المصدر نفسه والصفحة؛ ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٥٣.

(٧) المصدر نفسه، ج١٣، ص٥٣.

قتادة[1] أمير مكة، فقد قتل ابن عمه على يد أحد الإسماعيلية وكان هو المقصود بالقتل، وارتبط ذلك بوجود والدة السلطان جلال الدين مقدم الإسماعيلية في الموت؛ فثار أهل مكة ونهبوا الحاج يوم العيد[2]، وكان مع الحاج ربيعه خاتون أخت السلطان العـادل الأيوبي، فأرسلت إلى قتادة تحذره وتهدده[3]، فكف عن ذلك مقابل أن يدفع الحاج مائة ألف دينار، جمعت له من أمير الحاج ومن أم جلال الدين، ويقال أن ما أُخذ من المتاع يساوي ألف دينار[4].

وحدث مثل ذلك للحاج سنة(٦١٨هـ/١٢٢١م) ففي هذه السنة توفي الشريف قتادة أمير مكة، وقد خلفه في الإمارة ابنه حسن، وكان له ولد آخر اسمه راجح مقيم بظاهر مكة، نازع أخيه على ملك مكة، فلما سار حاج العراق كان الأمير على الحاج العراقي مملوك الخليفة أقباش، فاتفق مع راجح على مساعدته ضد أخيه، فخرج حسن ومعه مجموعة من العرب، وتقدم إلى أمير الحاج وصعد الجبل إمعاناً في التحدي، فأحاط به حسن وأصحابه وقتلوه، وقام أصحابه ونهبوا الحجاج، ثم أرسل حسن عمامته للحجاج إعلانا بالأمان، فعاد أصحابه ولم ينهبوا منهم شيئا، وأذن لهم بالدخول إلى مكة، وعظـم الأمر على الخليفة الناصر، فوصلت رسل

---

(١) هو قتادة بن إدريس بن مطاعن العلوي الحسيني وكنيته أبو عزيز، كانت ولايته قد اتسعت إلى اليمن ثم إلى مدينة رسول الله، قتل مخنوقا من قبل ولده حسن سنة ٦١٧هـ، وعمره تسعين عاما. سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٦١٧؛ الذهبي، سير، ج٢٢، ص١٦٠.

(٢) أبو شامة، الذيل، ص٧٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٧٨؛ الذهبي؛ تاريخ، ط٦٣، ص ٦٥- ٦.

(٤) أبو شامة، الذيل، ص٧٩؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٧٧؛ الذهبي، تاريخ، ط٦٣، ص ٦٦، ص ٢٢٩؛ اليافعي، مرآة، ج٤، ص١٥.

حسن يعتذرون، فأجابهم الخليفة إلى ذلك[١].

كانت عودة الحجاج موسماً آخر للاحتفال، حيث يخرج الناس للقائهم، ويكون دخولهم إلى بغداد نهاراً يتقدمهم العلم والكوسات. ولكن نتيجة لظروف معينة كالتي سبقت، كان الخليفة يأمر بعدم الخروج لاستقبال الحجاج. من ذلك ما حدث سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م) عندما فارق أمير الحاج وجه السبع الحجاج وغادر إلى الشام، فأمر الخليفة أن لا يخرج أحد لاستقبال الحجاج، وأن يدخل العلم والكوسات ليلا، وذلك لحزن الخليفة على مفارقة أمير الحاج للعراق[٢]. وكذلك سنة(٦١٨هـ/ ١٢٢١م) عندما قتل أهل مكة الأمير قشتمر، فلم يُسمح بالخروج لاستقبال الحجاج[٣].

كان موسم الحج مجالا لعمل الخير والبر، حيث يتصدق الموسرون، فلما حجت أم الخليفة الناصر زمرد خاتون، أنفقت مالا عظيما يقدر بثلاثمائة ألف دينار[٤]، وكان معها نحو ألفا حمل تصدقت بها على أهل الحرمين[٥]، وأصلحت البرك وأبار المياه لخدمة الحجاج وزوار بيت الله[٦]. وقام الأمير شرف الدين إقبال الشرابي في سنة (٦٤١ هـ/١٢٤٣م) بتجديد رباطه الذي كان قد أنشأه بمكة

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٢١، ص٤٠١- ٢؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق٢، ص٦١١؛ اليافعي، مرآة، ج٤، ص٣٧.

(٢) أبو شامة، الذيل، ص ٥٥، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٢٩.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٦١١؛ اليافعي، مرآة، ج٤، ص٣٧.

(٤) أبو شامة، الذيل، ص٣٣؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥١٣، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٨٢؛ ابن أبي عذيبة، أنسان العيون، مخ، ورقة ١٢٧.

(٥) أبو شامة، الذيل، ص٣٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٨٦.

(٦) أبو شامة، الذيل، ص٣٣؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥١٣، جواد، سيدات البلاط، ص١٧٥.

لخدمة الحاج[1]، وبنى كذلك عين عرفة التي بالموقف، وأجرى ماءها لانتفاع الحاج، وأوقف على ذلك الأوقاف[2].

أثر الموقف السياسي على أداء فريضة الحج. من المعروف أن الخطر المغولي الذي اسقط الخلافة العباسية ببغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) لم يكن وليد هذه السنة، بل كان يهدد الخلافة منذ سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م). لكن ازدياد نشاطهم كان بعد (٦٣٤هـ/١٢٣٦م). دفع هذا الخطر الخليفة المستنصر بالله إلى استفتاء الفقهاء والعلماء: بأنه إذا اتفق الجهاد والحج أيهما أولى؟ فأجابوه بأن الجهاد أولى، فانقطع الحج سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) من أجل الاستعداد للجهاد ومقاومة المغول[3]. وتكرر انقطاع الحج في السنوات (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)[4]، (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)[5]، (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)[6]، (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)[7]، (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)[8].

وكان إذا حل العاشر من ذي الحجة يكون عيد الأضحى. ولا تختلف العادات في عيد الأضحى عما هو في عيد الفطر من الاستعداد لصلاة العيد والتهاني والمعايدة بهذه المناسبة وتبادل أطباق الحلوى .

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٣٠٨، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٦١، ناجي معروف، حياة إقبال، ص٩٢.

(٢) مجهول، الحوادث، ص٣٠٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٩٠.

(٥) المصدر نفسه، ص٢١٥.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٤٥.

(٧) المصدر نفسه، ص٢٥٣.

(٨) حيث سقطت بغداد في هذه السنة بيد المغول.

وأهم ما يميز هذا العيد هو ذبح الأضاحي. والأضحية عند المسلمين سنة مؤكدة، حرص المسلمون على تأديتها. فبعد صلاة العيد يخرج الناس إلى بيوتهم لذبح الأضاحي، وتوزيع لحومها على الفقراء والأقرباء(١).

لم يقتصر ذبح الأضاحي على عامة الشعب وأفراد الرعية، بل شارك فيها الخليفة الناصر نفسه، ففي كل عام كان يأمر بنحر الأضاحي، حيث يسير الموكب إلى تحت المنظرة الشريفة بباب الأزج، فتنحر الذبائح(٢).

ب - الأعياد المحلية والمبتدعة

كان للتطورات السياسية أثرها في بنية الحياة الاجتماعية فنجد أن الشيعة كتيار ديني سياسي، وبعد أن فشلوا في تحقيق أهدافهم، والمتمثلة بالوصول إلى الخلافة، ابتدعوا عيد الغدير، ليكون رمزاً لأهدافهم، يحرصون في نهارهم على زيارة مقابر آل البيت ببغداد والكوفة والنجف وكربلاء(٣).

وكردة فعل على ما قام به الشيعة من اتخاذ غدير خمّ كرمز لهم، اتخذ عامة السنة عيد آخر سموه عيد الغار. وكان ذلك سنة (٣٧٩هـ/٩٨٩م) إحياءً ليوم دخول الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه أبو بكر الصديق الغار. يكون موعده في السادس والعشرين من ذي الحجة أي بعد عيد الغدير بثمانية أيام، وفيه يظهرون الزينة، وينصبون القباب، ويوقدون النار إحياءً لهذه المناسبة(٤).

---

(١) فهد، العامة، ص١٩٧.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٢٠٢-٣.

(٣) النويري، نهاية الإرب، ج١، ص١٨٥ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

ولم يكن إحياء يوم عاشوراء مجرد إظهار للحزن، بل له دوافعه السياسية كالتي دفعت الشيعة أيضاً لعمل عيد الغدير. وإحياء هذا اليوم يعني رفضهم لأي وضع سياسي يبعد أبناء الحسين بن علي(١)عن الحكم. وقد عبروا عن ذلك بشتم الصحابة محمليهم المسؤولية بعدم البيعة لعلى بعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فكان إذا حل عاشوراء، خرج الشيعة في محلة الكرخ والمختارة إلى الأسواق، يعلنون بالنواح على أهل البيت(٢).

وكما أسلفنا عند الحديث عن سياسة الخليفة الناصر الداخلية ثم في الفصل الأول عن الشيعة باعتبارهم عنصراً فعالاً من عناصر المجتمع، وجدنا أن الناصر في الفترة (٥٧٥-٥٨٣هـ/١١٧٩-١١٨٧م) قد غلب عليه ابن الصاحب وهو شيعي، وذلك لموقفه المؤيد له في ترشيحه للخلافة. لذلك نجد الشيعة في هذه الفترة كانت لهم مطلق الحرية في التعبير عن آرائهم، حتى أنهم عبروا عنها تحت منظرة الخليفة، فقد "فرش الشيعة الرماد في أسواق بغداد وعلقت المسوح، وناح أهل الكرخ، وتعدوا ذلك إلى شتم الصحابة: أبو بكر وعمر وعثمان وعائشة (رضي الله عنهم) عليهم ولعنوا الأمويين، لأنهم المسئولين عن مقتل الحسين بن علي(٣)، وخرجت النساء حاسرات يلطمن وينحن من باب البدرية إلى باب حجرة الخليفة الناصر، وكان أهل الكرخ يصيحون: "ما بقي كتمان"، وقد وقفت امرأة على دكة تحت منظرة الخليفة في الريحانيين وحولها ألوفاً من الرجال والنساء، وأخذت تنشد

---

(١) قتل الحسين بن على (رض) في العاشر من محرم سنة ٦١ هـ بعد معركة غير متكافئة دارت بين الحسين من جهة، وقائد الأمويين عبيد الله ابن زياد من جهة ثانية في كربلاء حيث قتل فيها رجال الحسين وأهل بيته، فرماه أحد رجال ابن زياد بسهم فقتله. الدينورى، الأخبار الطوال، ص٢٥١ -٢.

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٢٢ .

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٨٦؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٨٤

الأشعار، وتسب عائشة –رضي الله عنها – وتقول: "العنوا راكبة الجمل "[1].

أما بالنسبة لموقف الناصر الذي أورده سبط ابن الجوزي من أنه أمر بتوزيع الأموال والخلع عليهم[2]، نرى أنه موقفاً سياسياً حكيماً فرغم ما أكدناه من تحكم ابن الصاحب في الأمور، إلا أنه كان بإمكان الخليفة أن يستخدم حرس القصر لقمع نشاطهم، ولكنه آثر أن يكسب الشيعة إلى صفه حتى لا يقفوا ضده، والدليل إلى ما ذهبنا إليه تخلصه من ابن الصاحب بعد عام من هذا الموقف دون أي رأي معارض.

وفي فترات الاضطراب والقلق السياسي، وخوفا من وقوع الفتن بين السنة والشيعة كان يمنع إحياء هذا اليوم إلا في مشهد موسى بن جعفر، كما حدث في سنوات (٦٤١هـ[3]/١٢٤٣م)، (٦٤٨هـ[4]/١٢٥٠م) (٦٥٠هـ[5]/١٢٥٢م) حيث أمر الخليفة المستعصم بمنع قراءة المقتل في يوم عاشوراء إلا بمشهد موسى بن جعفر.

كان الشيعة في يوم عاشوراء يحرمون على أنفسهم الزينة. فهذا أحمد بن عيسى الهاشمي (ت٥٩٣ هـ/١١٩٦م) يعتذر عن الاكتحال في يوم عاشوراء قائلا[6]:

لم أكتحل في صباح يوم أريق فيه دم الحسين

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٨٦.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) مجهول، الحوادث، ص١٨٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٤٨؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٧٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٨٥.

(٦) أبو شامة، الذيل، ص ١١.

إلا لـــحـــزنـــي وذاك أنــــي سـوّدت حتى بـيــاض عــيني

واشتهرت في هذا العصر قصيدة للشاعر علي بن نما بن حمدون، كان الشيعة ينشدونها في المواسم في مشاهد أهل البيت، ومما جاء فيها قوله في مدح علي بن أبي طالب:

أصف السيد الـذي يعجز الـوا صـف عند عدّ فضله في السنين
خاصف النعل خافض الـدم في بـدرٍ واحدا والفتح خوض المبين

ومنها في التعريض ببعض الصحابة:

سل بـراة عمّن تـولت وأفكر إن طـلبت النجاة فـكـرَ ضنين
أيـولى على البريـة من ليس على حـمل سـورة بـأمـيـن

وبعد أن يستمر الشاعر في غمزه بالخليفتين الأولين والتعريض بهما، ينتقل إلى القول بأحقية العلويين بالخلافة.

إن غصب الـزهراء إرث أبيها وأكـادر ارتجاعها بـعـد حـين
لفظيعٌ لـم يحفظوا فـيـه إلاً للنبي الـهـادي ولا آلي ديـن(١)

إلى جانب هذه الأعياد التي جرى الاحتفال بها فـي أوقات معينة من السنة، فانه احتفل بأعياد ترجع إلى أصول فارسية قديمة(٢).

ويأتي النيروز، ومعناه اليوم الجديد(٣) في الطليعة منها، لأنه أهم أعيادهم،

---

(١) ابن أبي عذيبة، أنسان العيون، مخ، ورقه ١٥١- ١٥٢.

(٢) فهد، العامة، ص١٩٩

(٣) ابن شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٣٧٨؛ النويري، نهاية الإرب، ج١، ص١٧٨، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٠٨ .

ورأس السنة الفارسية أو مطلع الربيع. وكانت الاحتفالات به تستمر ستة أيام، واليوم السادس يسمى النيروز الأكبر(١). احتفل به الناس منذ مطلع العصر العباسي، وتبادلوا فيه التهنئة والهدايا على العادة الفارسية(٢). وكان يحل عند الانقلاب الصيفي، وذلك في ابتداء كل ربيع من السنة الجديدة، وهو اليوم الحادي والعشرون من شهر آذار(٣).

ورغم أن أكثر الناس احتفالا به هم العامة، إلا أنه قد شاركهم فيه الفئات العليا في الدولة، ومدحهم الشعراء بهذه المناسبة، فنجد ابن التعاويذي يمدح ويهنئ أستاذ الدار ابن الصاحب بحلول النيروز سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) قائلا(٤):

تـــأُم أبــــوابـــك فــــي   كـــــل هــــنـــــاء وفــــرح
لــواقـــد الـــنـيروز مـــا   اســتشرط مــنــهـــا واقـــتـــرح

أما المهرجان، فكان حلوله إيذانا بالانقلاب الشتوي. وكان يحتفل به في السادس والعشرين من تشرين الأول من شهور السريان(٥)، يوافق السادس عشر من مدماه من شهور الفرس. بينه وبين النيروز مائة وسبعة وسبعين يوما. وكانت مدته ستة أيام، اليوم السادس يعرف بالمهرجان الأكبر(٦). وعند حلوله يبدأ الناس

---

(١) لان الأكاسرة كانوا في الأيام الخمسة الأولى يقضوا حوائج الناس، ثم ينتقلوا في اليوم السادس إلى مجالسهم مع الظرفاء وخواصهم. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٤٥- ٦ .

(٢) شاكر مصطفى، مدن الإسلام، ح٢، ص٢٣٥ .

(٣) فهد، العامة، ص٢٠٠

(٤) ديوانه، ص١٠١ .

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٤٨ .

(٦) المصدر نفسه والصفحة.

بتغيير فرشهم وملابسهم، استعدادا للانتقال إلى الشتاء، وتراهم يفرحون به فرحتهم ببقية الأعياد(١)، يوقدون في ليلته النيران، ويشعلون الشموع، ويتبادلون الهدايا والتهاني(٢).

والسذق عيد آخر من أعياد الفرس القديمة التي استمر الاحتفال بها في العصر العباسي. ويسمى بليلة الوقود، حيث تشعل في تلك الليلة النيران بأنواع مختلفة من الدهان(٣).

ج - أعياد أهل الذمة

استمر أهل الذمة يمارسون أعيادهم بحرية، وكانت كثيرة. لم تندثر هذه الأعياد بسبب جذورها الاجتماعية العتيقة ولكنها بدلت ثيابها فقط.

١. أعياد النصارى

بالنسبة لأعياد النصارى أكثر ما كانت تقام الأعياد بالأديرة(٤) المنتشرة في أطراف بغداد. ولعل ما توفره هذه الأديرة من وسائل للراحة والتسلية وخاصة للعابثين من الشباب، من توفير الخمرة، كان دافعا قويا وراء الإقبال عليها.

ومن الأعياد النصرانية، أعياد الصوم الكبير، وعدد أيامه خمسين يوماً ، قسم

---

(١) النويري، نهاية الإرب، ج١، ص١٧٨

(٢) فهد، العامة، ص٢٠١

(٣) النويري، نهاية الإرب، ج١، ص١٨١ – ٢.

(٤) الدير: بيت يتعبد فيه الرهبان، ولا يكاد يكون في المدن، وإنما يكون في الصحارى ورؤوس الجبال وقال الجوهري: ودير النصارى أصله الدار، والجمع أديار والديراني صاحب الدير. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ح٢، ص٤٥٩؛ ابن عبد الحق، مرا صد الاطلاع، ج٢، ص٥٩ .

هذا العيد على أربعة أديرة[١]، فالأحد الأول بدير العاصية، ويقع هذا الدير بشرقي بغداد بباب الشماسية، على بعد ميل من دير سمالو. والأحد الثاني بدير الزريقية، والأحد الثالث بدير الزندورد، ويقع هذا الدير بالجانب الشرقي من بغداد، في منطقة كلها أعناب وفواكه. وقيل عن أعنابه بأنها أجود الأعناب التي تعصر في بغداد. كذلك كان العيد به يجذب عشاق الطرب ومحبي التنزه. وقد استمر هذا الدير حتى فترة متأخرة. والأحد الرابع بدير درمالس، ويقع بباب الشماسية، وعيده أحسن الأعياد، يجتمع فيه نصارى بغداد، ومن يضاف إليهم من أهل اللهو ومحبي التنزه، فيقيمون فيه أياماً يقضونها بالتنزه في بساتينه ومزارعه، ويتسلون بمنظر النصارى المجتمعين، وبطريقة تعبدهم[٢]، وقد ظل عامراً حتى فترة متأخرة، شاهده ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ[٣]/١٢٢٨م).

ويقام عيد الفصح بدير سمالو بالجانب الشرقي من بغداد بباب الشماسية، ولهذا الدير متنزهات من أحسن متنزهات بغداد، فإذا حل عيد هذا الدير توافد الناس من بغداد وغيرها[٤].

أما عيد الصليب فكان يقام بدير قنى، ويقع هذا الدير على بُعد ستة عشر فرسخاً من بغداد، بالجانب الشرقي منها، بينه وبين دجلة ميل ونصف، وكان يخترقه نهر جار، أصبحت تحيط به البساتين الحاوية على أنواع الثمار[٥].

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥١٩ .

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٠٩؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٦٥٣.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٠٩ .

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٥١٦.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٠٩.

وكان يحتفل بصوم العذارى بدير العذارى[١]، ويقع هذا الدير بقطيعة النصارى، يكون الاحتفال به قبل حلول الصوم الكبير، الصوم فيه ثلاثة أيام، فإذا انتهت اجتمعوا، وأقاموا شعائرهم الدينية.

ويحتفل بدير أشموني -وكان من أجلِّ متنزهات بغداد- وله يوم في السنة. أما الاحتفال بهذا الدير فهو من الأشياء البهيجة المعروفة عند أهل بغداد، فيتوافدون على هذا الدير، بواسطة القوارب والسفن، فإذا وصلوا، انتشروا وتفرقوا، فبعضهم يعكف على الشراب داخل حاناته، وبعضهم يتنزه في الحقول المحيطة به[٢].

٢. أعياد اليهود [٣]

منها: عيد رأس السنة، ويسمونه عيد رأس هيشا -أي عيد الشهر. والعيد الثاني عيد صور مايا، ويسمونه عيد الكبور، وهو عيد الصوم العظيم، الذي يقولون عنه أن الله فرض عليهم صومه. ومدة هذا الصوم خمس وعشرون ساعة، يبدأ قرب غروب الشمس في التاسع من شهر تشرين، ويختم بمضي ساعة بعد غروبها في اليوم العاشر. والعيد الثالث عيد المظلة، وهو سبعة أيام، أولها الخامس عشر من تشرين، يجلسون في هذه الأيام تحت ظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون.

---

(١) وقصة هذا الدير أنه كان يسكنه الرواهب من النساء العذارى. كانت كلما وهبت امرأة نفسها للتعبد سكنت معهن، ويقال انه رفع إلى بعض ملوك الفرس إن بذلك الدير من العذاري كل باهرة الجمال، فأمر أن يحملن إليه فبلغهن ذلك. فقمن ليلتهن وأحيينها بالصلاة والدعاء، فطرقه طارق في تلك الليلة. فأصبح ميتاً. والنصارى يصوموا ذلك اليوم لهذا السبب. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٢؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٦٨؛ الحميري، الروض المعطار، ص٢٥٢ .

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٩٨.

(٣) حول أعياد اليهود انظر. النويري، نهاية الإرب، ج١، ص١٩٥ – ٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٦١- ٥ .

أما العيد الرابع فهو عيد الفطير، ويسمونه الفصح، وهو سبعة أيام يأكلون فيه الفطير، وينظفون فيه بيوتهم من الخمير، لان هذه الأيام عندهم هي الأيام التي خلق الله بها بني إسرائيل، والعيد الخامس عيد الأسابيع، ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع.

ومن احتفالات اليهود الدينية زيارة مرقد حزقيال على شاطئ الفرات، ويكون وقت الزيارة بعد عيد رأس السنة، فتقام الأفراح والمهرجانات، يحضرها من بغداد رأس الجالوت مع الجموع الغفيرة من الناس[١].

د - الاحتفالات العامة

تعددت الاحتفالات بتعدد الأسباب. ومن المناسبات التي احتفل بها أهل بغداد **الانتصارات العسكرية**، ورغم أنها لم تكن بنفس الزخم في الفترات السابقة إلا أنها كانت موجودة نتيجة للصراع السياسي والعسكري بين الخلافة ومنافسيها كالسلاجقة والخوارزميين ومن ثم المغول، وكانت هذه الاحتفالات تتم على المستويين الرسمي والشعبي. فلما استولى ابن القصاب على همذان والري سنة (٥٩١هـ/١١٩٤) عمت الاحتفالات بغداد، حيث ضربت الطبول، وعلقت الزينة، وأظهرت الفرحة. كما انه لما وصل رأس منكلي[٢] إلى بغداد معلقاً على رمح، زينت بغداد، وأظهر الخليفة الفرح والسرور، ولكن عكر صفوّ الاحتفال موت ولد الناصر، الأمير أبو

---

(١) التطيلي، الرحلة، ص١٤٣ .

(٢) منكلي أحد مماليك السلطان أزبك خان الموالي للخليفة الناصر لدين الله وكان قد عصى السلطان والخليفة، وقطع الطريق، فأرسل الخليفة سنه ٦١٢ هـ الأمير وجه السبع لقتاله، فقتله في همذان. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢١٢ .

جعفر علي، فانقلب الفرح إلى حزن(١). وكان الاحتفال يبدأ بطابع رسمي، حيث يصدر الأمر بقرع الطبول على باب حرب، ثم تعم الاحتفالات(٢).

وكان قدوم رسول أو أحد الأمراء إلى بغداد مناسبة أخرى لإظهار الاحتفال والفرحة، فيخرج الموكب للقائه كما يخرج الناس للاحتفال به، والتسليم عليه تكريماً لمرسله وتشريفاً له(٣)، فيدخل إلى باب النوبي، فيصلي ركعتين، ويقبل العتبة الشريفة، ثم يدخل إلى دار الخلافة، وبعد ذلك يكرم بالدخول للقاء الخليفة(٤). فعندما قدم رسول السلطان جلال الدين منكبرتي شاه إلى بغداد سنة (٦٢٢ هـ/١٢٢٥م) احتفل به احتفالا كبيراً فأحضرت حراقة(٥) من حراقات دار الخلافة، حمل بها إلى الديوان، وبعد ثلاثة أيام تشرف بمقابلة الخليفة الناصر لدين الله، فخلع عليه الخليفة، وحُمل الخلع إلى جلال الدين منكبرتي، ثم عاد إلى بلاده(٦).

وعندما قدم البرهان أحمد بن عمر الملقب بصدر جهان إلى بغداد سنة (٦٠٤ هـ/١٢٠٦م) قاصداً الحج، خرج الناس للقائه، ماعدا الخليفة والوزير، فلما وصل أكرم مثواه ومثوى العلماء الذين معه(٧). ولما قدم مظفر الدين أبو سعيد كوكبري

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٧٢.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٧٢؛ ابن تغري يردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢١٣ .

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٦٤؛ الذهبي، مختصر، ج١، ص٣٩؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٣٣٧ .

(٤) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٨٣؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٦١؛ ابن الكازروني، مقامة، ص٤٣٢؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٣٤٠ .

(٥) الحراقة نوع من السفن.

(٦) حول المقابلة والاحتفال به ببغداد. انظر النويري، نهاية الإرب، ج٢٧، ص٢٨٢-٣.

(٧) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٢٩.

صاحب إربل بغداد سنة (٦٢٨هـ/١٢٠٣م) خرج للقائه كبار رجال الدولة والأمراء والعلماء[1].

واحتفل أهل بغداد بقدوم المولود الجديد، وخاصة إذا كان ولد، فيقوم والده بتقديم الهدايا، وتوزيع الحلوى بهذه المناسبة، ويتلقى التهاني بمولوده الجديد، فقد رفع ابن التعاويذي قصيدة إلى عماد الدين بن رئيس الرؤساء يهنئه بها بقدوم ولده:

فسعد عماد الدين مغتبطاً   ميمون القدوم مبارك الميلاد
فكأنه قد مدّ عن كثب   العلياء كف مدرب معناد[2]

ولما ولد للخليفة المستعصم بالله ولد جديد سنة (٦٥١هـ /١٢٥٣م) خلع على كثير من حواشيه وأرباب الخدم، وفرّق الأموال، وأرسل إلى القابلة ألف دينار[3].

وكانوا يحيون ختمة الأحداث للقرآن الكريم. وفي هذه المناسبة يلبس الأطفال أحسن ثيابهم، ويزينون منازلهم، ويوقدون القناديل الشموع، ويدعوا العلماء وجيرانهم من أهل المحلة [4].

يكون الاحتفال بختمة أحد الأمراء من أبناء الخلفاء ، مناسبة ليعم الفرح أهل بغداد، فلما ختم الأمير أبو أحمد عبد الله ابن الخليفة المستنصر القرآن الكريم، خلع الخليفة على مؤدبه خلعة عظيمة، وأنعم عليه بألفي دينار وفرس عربي، وأرسل إلى داره من الهدايا ما حمله اثنين وأربعين حمالاً. ثم عملت وليمة عظيمة بلغت

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٤٣.

(٢) سبط بن التعاويذي، الديوان، ص١٣٢.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٩٤- ٥.

(٤) ابن الجوزي، تلبيس، ص١١٠؛ شاكر مصطفى، مدن الإسلام، ج٢، ص١٢٢.

تكاليفها عشرة آلاف دينار، وبعد الوليمة خلع على جميع من حضر الختمة(1). وتكرر مثل هذا عندما ختم القرآن الأمير أبو القاسم عبد العزيز ولد المستنصر سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م)(2).

واحتفلوا بالختان، وهو كما يقول ابن الأخوة واجب(3). وبهذا قال عامة أهل العلم. وكان ختان الصبي من وسائل الفرح التي تسعد بها العائلة، فيوجه أهله الدعوة للأصدقاء، والأقارب لحضور حفل الختان(4).

كانت الختانة ببغداد منوطة بالأطباء الذين برعوا فيها، وألّفوا فيها الرسائل، فألف بها الطبيب صاعد بن هبة الله النصراني ثلاثة فصول(5). وأثناء عملية الختان يعزف الموسيقيون لإخفاء صوت الطفل الناجم عن الألم(6). وبعد أيام من ختان الطفل، يعمل أهله وليمة يدعى إليها الأهل والأصدقاء والجيران(7).

وتكون الفرحة أكبر لدى أهل بغداد إذا كان حفل الختان لأحد أبناء الخليفة، حيث يعمّ الخير والعطايا على الناس، فلما ختن ولدي الخليفة الناصر: الأمير أبو نصر محمد، والأمير أبو جعفر علي سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م) حضر أرباب الدولة والأمراء والخواص للاحتفال بهذه المناسبة(8). ولتزداد الفرحة والبهجة أمر الخليفة

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٧١ .

(٢) المصدر نفسه، ص٨٩؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٧٤.

(٣) معالم القربة، ص١٦٣.

(٤) مجهول، مناقب، ص٢٧ .

(٥) ابن العبري، مختصر، ص٢٣٨.

(٦) لوبون، حضارة العرب، ص٤٥٠ .

(٧) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٤٣.

(٨) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٧٦ .

بإحضار المغنين والمغنيات وأصحاب الملاهي، وأنشأ خواناً عظيماً أنفق عليه مالاً جزيلاً "لا يحصره عدد ولا وصف، لكثرة ما صنع عليه"[1]، وبقي الناس في الفرح والسرور والطرب سبعة أيام بلياليهن. وفي اليوم السابع أمر الخليفة بالخلع والتشريفات على الأمراء وأرباب الدولة، فخلع على أستاذ الدار ابن الصاحب جبة أطلس مسمطة بذهب عراقي وسيف، ظن الناس أنها خلعة الوزارة[2].

وتكررت مثل هذه الخلع عند ختان ولدي المستنصر: أبو أحمد عبد الله وأبو القاسم عبد العزيز سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) حيث أنعم الخليفة بالخلع على جميع من حضر من الأمراء والمماليك والخدم[3]. ومثل ذلك كان سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) عندما احتفل بختان أولاد الخليفة المستعصم[4].

هذه المناسبة كغيرها من المناسبات، كانت مجالاً لإبداع الشعراء، للحصول على العطايا والخلع من الخليفة، فيحضر الشعراء إلى الديوان الخلافي للتهنئة. فقال سبط ابن التعاويذي في مدح الخليفة الناصر وتهنئته بختان ولديه:

ختان جرى باليمن والنجح طائره	موارده محمودة ومصادره
قضيت بالشر السرور صدوره	ونيل المنى أعجازه وأواخره
لطالع سعد لا يغيب بخوفه	وزائد حظ لا تغيب بشائره
فيالك من يوم تكامل حسنه	مزقت حواشيه وراقة مفاخره[5]

(١) المصدر نفسه والصفحة .

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٧٦.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٣٠ .

(٤) المصدر نفسه، ص٥٤٤ .

(٥) ديوانه، ص١٧١؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٧٧ .

ثانياً- وسائل التسلية

من وسائل التسلية التي شاعت في بغداد **المجالس الخاصة** بين الأصدقاء والندماء، يقضون فيها أوقات فراغهم، بعد عناء يومٍ من العمل والجهد، يتبادلون فيها الأحاديث حول يومهم، وما واجهتهم به من الحكايات والطرف والأحداث.

ولم تقتصر تلك المجالس على عامة الناس، بل شارك فيها الخلفاء والأمراء والأعيان والعلماء، فنجد أن الخلفاء حرصوا على استقبال ندمائهم في المساء أو الليل لقضاء ساعة من الراحة، وأحياناً لعقد مجلس علمي أو شعري، يتنافس فيه العلماء بين يدي الخليفة من أجل الفوز بخلعة أو مال، فالخليفة الناصر لدين الله حرص على إحضار جماعة من الندماء والجلساء الذين يميل إليهم(١). كما حرص على لقاء العلماء، وعقد مجالس لهم في القصر، فكان الشيخ ظهير الدين البادرائي (ت٥٩٦ هـ/١١٩٩م) يدخل على الخليفة الناصر ويحاضره ويخلو معه(٢).

وكان الخليفة المستنصر يعقد مجالس خاصة مع كبار الزوار لبغداد من السلاطين والأمراء، فلما قدم الملك الناصر داود بن الملك المعظم إلى بغداد طالباً للعون من الخليفة ضد عمه الكامل، استدعاه الخليفة للتحدث إليه. ولندع الملك الناصر يصف ذلك المجلس فيقول(٣): "استدعاني الخليفة بعد شطر من الليل، فدخلت من باب السر إلى إيوان فيه ستر مضروب، فقبلت الأرض بين يديه، فأمرني بالجلوس فجلست، ثم اخذ الخليفة يحدثني من خلف الستر ويؤنسني، ثم أمر الخدم فرفعوا الستر، وقمت فقبلت الأرض ثانية، وتقدمت فقبلت يد الخليفة، فأمرني

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٨٧.

(٢) الكتبي، فوات، ج ٣، ص٢١٧.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص١٦٧.

بالجلوس، فجلست بين يديه، وجاراني في أنواع من العلوم وأساليب من الشعر إلى آخر الليل، ثم خرجت من عنده، وعدت إلى منزلي".

وشاعت مجالس القصاص. والقاص هو الرجل الذي يجلس في الطرقات والمقابر والجوامع والأسواق يذكر للناس أشياء من الآيات والأحاديث وأخبار السلف، ويقص عليهم الحكايات من حفظه. ويختلف عن الواعظ في كونه يهتم بسرد القصص الماضية وتقديم الشروح لها. وهمّ الواعظ تخويف الناس من عاقبة الابتعاد عن تعاليم الله، لكي يرق قلبهم، ويحبب إليهم الإيمان(١).

كان أغلب مستمعي هؤلاء القصاص من العامة، حيث يخرجون من أجل قضاء وقت الفراغ، والتلذذ بسماع القصص. كانت غاية القصاص الحصول على الأموال، فتلاعبوا بعواطف المستمعين. وفي سبيل الحصول عليه ابتكروا أساليب خبيثة، فإذا صعد المنبر غطى وجهه وارتعد إلى أن يفرغ القراء من القراءة(٢)، حتى وصفوا "بأنهم الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام(٣).

كان خطر هؤلاء القصاص عظيماً على الدين والعقيدة، خاصة إذا علمنا أن غالبيتهم من الجهلة وقليلي العلم، فلم يتورعوا من إيراد الأحاديث الموضوعة في مجالسهم، فيرويها ولا يعلم أنها كذب فيؤذي بها الناس(٤). ولا بد ونحن في صدد الموضوع من إيراد مثال على ذلك، فقد وعظ أحدهم في بغداد، أن الحسن والحسين دخلا على عمر بن الخطاب وهو مشغول ثم انتبه، فقام، فقبلهما، ووهب لكل واحد منهما ألفا، فرجعا فأخبرا أباهما، فقال: سمعت رسول الله يقول: "عمر نور الإسلام

---

(١) فهد، العامة، ص٢٢٧- ٨.

(٢) ابن الجوزي، القصاص والمذكرين، ص٢٩٦.

(٣) الابشيهي، المستطرف، ج١، ص٨٥٦.

(٤) ابن الجوزي، القصاص، ص٣٠١.

في الدنيا، وسراج أهل الجنة في الجنة، فرجعا إلى عمر، فحدثاه، فاستدعى دواة وقرطاساً ، وكتب حدثني سيدا شباب الجنة عن أبيها عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : كذا كذا ، فأوصى أن يجعل في كفنه ففعل ذلك، فأصبحوا وإذا القرطاس على القبر وفيه صدق الحسن والحسين وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[١]. ويعلق ابن الجوزي على ذلك بقوله[٢]: "وإذا كان القصاص من هذا الجنس فكيف لا يذمون"

تعود أسباب الكذب إلى أن القصّ مارسه جهلة بالعلم، يقولون ما وجدوا مكتوباً، ولا يعلمون الصدق من الكذب، ووافق ذلك أنهم يخاطبون الجهلة من العوام[٣].

ومن المفاسد في مثل هذه المجالس اختلاط النساء بالرجال، وهذه من المجالات التي تشجع الفسق، والخروج على مبادئ الدين، لذلك نجد أن القاص يقضي أكثر مجلسه في العشق والمحبة، وإنشاء القول الذي يحتوي على وصف المعشوقة وجمالها، وشكوى ألم الفراق. يقول ابن الجوزي حتى أني سمعت بعض القصاص ينشد:

إلا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً فقد امكن الجهر[٤]

ونتيجة لمخاطر القصاص على المجتمع والدين، اندفع بعض العلماء أمثال ابن

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣١٧- ٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٣١٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٢٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٢٧.

الجوزي إلى الوقوف في وجوههم وذمهم، ووضع الكتب في توضيح حقيقتهم للناس.

لم تكن **مجالس الوعظ وسيلة من وسائل** ملء الفراغ والتسلية، بقدر ما كانت ذات فائدة علمية ودينية، تذكر الحاضرين بالثواب والعقاب، وتنبه الغافلين إلى العودة إلى طريق الله. وكانت هذه المجالس أشبه ما تكون بمدارس شعبية، يستفيد منها الحاضرون، فإذا انتهى الواعظ من خطبته، يأتي دور الحضور في السؤال ، فتكتب تلك الأسئلة على رقاع، يأخذها الشيخ فيجيب عليها واحداً واحداً دون استثناء(١).

لا يقتصر حضور مجالس الوعظ على العامة، بل نجد أن الخليفة وكبار الأمراء حرصوا على حضورها. كان الخليفة الناصر يدعو شيخ الحنابلة أبو الفرج بن الجوزي للإلقاء دروس وعظه بباب بدر في ساحة قصره، يستمع إليه، وكان للعامة باب يدخلون منه إلى ذلك الموضع لحضور المجلس. يصف ابن جبير أحد مجالس ابن الجوزي بباب بدر قائلاً(٢): "فصعد المنبر، وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعاً لحرمة المكان، وقد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة، فابتدروا القراءة على الترتيب... وصدع بخطبته الزهراء الغراء، وأتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات". ويذكر ابن الدبيثي(٣) في حديثه عن أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني الشاطئ "وعقد مجلس الوعظ، وصارت وجوه الدولة إلى حلقته، وكثر التعصب له من الأمراء والخواص وأمّية العوام".

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص١٧٧.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ج١، ص١٧٥.

أما مواعيد وأماكن عقدها، فيمكن أن تعقد في الصباح[1]، أو في المساء[2]. وفي أماكن عامة أو في المدارس كالنظامية[3]، وفي المساجد: كجامع المنصور أو جامع القصر، أو في الترب كتربة أم الناصر[4]، أو مجالس العزاء[5]. فقد جلس ابن الجوزي عند تربة أم الخليفة المجاورة لقبر معروف الكرخي. وكان تأثيره واضحا على الحضور فتاب عدد كبير، ومات ثلاث في المجلس بوجدهم [6].

لم تقتصر مجالس الوعظ على الأمور الدينية وتفسير القرآن الكريم والحديث النبوي، بل تطرقت إلى معالجة المفاسد الاجتماعية والقيم الفاسدة، مثل: شرب الخمر، والغناء وسماع الملاهي المحرمة. وغالباً ما تعرض أمثال هؤلاء الوعاظ للأذى من أصحاب تلك المفاسد، أو من أعوانهم في الدولة، فقد كان محمد بن عبد الله بن عمر الطريد الواعظ (ت٥٧٦هـ/١١٨٠م) يعقد مجالس وعظه بالمدرسة النظامية، وكان يتحدث بأشياء منها شرب الخمر، وشراء الجواري والمغنيات، وسماع الملاهي، فأخرج من بغداد مراراً لأجل ذلك[7].

كان لهذه المجالس تأثير كبير على الناس بالتوبة والعودة إلى طريق الصواب،

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧٥ .

(٣) الذهبي، مختصر، ج١، ص١١٦، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٢١٠، ابن الدمياطي،

المستفاد، ص٨٦.

(٤) أبو شامة، الذيل، ص٢١.

(٥) الذهبي، مختصر، ج٣، ص٢٥٥.

(٦) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٤١٥ .

(٧) ابن الدمياطي، المستفاد، ص٩٧.

ويعود مثل هذا إلى قدرة الواعظ في التأثير على سامعيه. وصف ابن جبير تأثير وعظ ابن الجوزي على الحاضرين بقوله[1]: "صعّد بوعظه أنفاس الحاضرين سحباً، وأسال من أدمعهم وابلاً، ثم جعل يردد في آخر مجلسه أبياتا من النسيب شوقاً وطرباً إلى أن غلبته الرقة، فوثب من أعلى منبره والهاً مكتئباً".

وكان ابن الجوزي قد تحدث عن مجالسه وتأثيرها في الحضور، ولكنه يذكر أرقاما ظاهرة المبالغة حول عدد الحضور، والتي لا يقبلها عقل. فقال في أحد مجالسه: "وأني مازلت أعظ الناس وأحرضهم على التوبة، فقد تاب على يديّ إلى أن جمعت هذا الكتاب أكثر من مائة ألف رجل، وقد قطعت من شعور الصبيان اللاهين أكثر من عشرة آلاف طائلة، وأسلم على يدي أكثر من مائة ألف"[2].

لجأ الوعاظ إلى الشعر لما له من تأثير على سامعيه، وخاصة الذي قيل في الحكمة أو الموعظة، من ذلك:

أيــن فـــؤادي أذابـــه الـــوجـــد وايـــن قلبي فما صحـــا بـــعـــد
يـــا ســـعـــد زدني جوىً بذكرهم بالله قـــل لي فديت يـــــا سعد[3]

وكـــان يحيى بن طاهر بن محمد أبو زكريـــا الـــوعظ والمعروف بابن النجار (ت٥٩٩ هـــ/١٢٠٢م) ينشد في مجلسه[4]:

عاشر من الناس مـــا تبقى مودتهم فـــأكثر الناس جميع غير مؤتلف

---

(١) الرحلة، ص١٧٩.

(٢) ابن الجوزي، القصاص، ص٣٧١، أبو شامة، الذيل، ص٢١، السيوطي، تذكرة الحفاظ، ص٤٧١ .

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص١٧٨.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٨٣.

منهم صديق بلا قـاف ومعرفـة بغير فـاء وأخوان بـلا الف

وكان الدعاء للخليفة وأهله وقول الشعر في مدحه في تلك المجالس أمراً مألوفاً. يقول ابن الجوزي في أحد مجالسه يمدح الخليفة الناصر:

في شغل من الـغرام شاغل من هاجـه البرق بسفح عاقل
يـا كلمات الله كوني عوذةً من العيون للإمـام الكامل[١]

وشارك الصوفية في عقد مجالس الوعظ، فكان للشيخ أبو حفص عمر السهروردي (ت٦٣٢ هـ/١٢٣٤م) مجلس عليه القبول[٢]. كما شارك بها علماء كانوا في جملة الحجاج الوافدين إلى بغداد. وشاركت بها النساء، فكانت خاصة بنت أبي المعمر (ت٥٨٤م) تعظ برباطها النساء[٣].

انعكس التعصب للمذهب على تلك المجالس باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية، فتعصب الحنابلة إلى ابن الجوزي، وتوافدوا على مجلسه، حتى قيل: أنه حضر في أحد مجالسه مائة ألف شخص[٤]. وحاول الشيعة استغلال هذه المجالس لتأكيد مبادئها وإجبار العلماء الوعاظ على موافقتهم في رأيهم، وإلا هاجموهم وحاولوا قتلهم، ونجد هذا التأثير في أحد مجالس رضي الدين القرويني، حيث طلب منه جماعة أن يلعن معاوية وولده يزيد فرفض ذلك، فهاجموه بالحجارة والآجّر، ولم ينقذه منهم إلا تدخل السلطة[٥].

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص١٧٨.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٤٦؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤٥.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤٥.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٤٣؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، ص٤٧٨.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص ١٧٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب ج٤، ص٣٠٠- ١.

من أشهر وعاظ هذه الفترة العلامة رضي الدين القزويني الشافعي. قدم بغداد قبل الستين، ودرس بها ووعظ وبقي فيها على ذلك إلى أن توفي في سنة(٥٩٠ / ١١٩٣م)، وكان يعظ يوماً وابن الجوزي يوماً، ويحضر الخليفة مجلسه من وراء الستار[١]. وكان أول من وعظ بباب بدر.

لكن أشهر الوعاظ الذي فاق الجميع بغزارة علمه ورقة أسلوبه هو الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد التميمي البكري الفقيه الحنبلي[٢] الشهير بابن الجوزي[٣،٤]. لندع ابن جبير -شاهد العيان- يروي لنا إحساسه ورأيه بابن الجوزي ومجالسه، حيث يقول[٥]: "ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت مجلس الأمام الأوحد جمال

---

(١) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص ٣٠٠- ١.

(٢) الذهبي، العبر، ج٣، ص١١٩؛ ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص١٧١ .

(٣) والجوزي نسبة إلى محلة الجوز إحدى محلات مدينة البصرة. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص٣٣٠ .

(٤) ولد ابن الجوزي في بغداد سنة (٥١٠هـ/ ١١١٦م) في محلة درب حبيب، توفي والده وله من العمر نحو ثلاث سنين، فكفله عمه ورعته أمه، ابتدأ بطلب العلم وهو صغير، فحفظ القرآن، وقرأ القراءات وحضر حلقات الدرس عند العلماء والمشايخ في المساجد والمدارس. وعظ وهو صغير، وروى أن أول مجالس تكلم به كان سنة (٥٢٠هـ/١١٢٦م)، ثم تقدم به الأمر يطلب العلم، والنظر في فنونه، فألف في جميع العلوم كالفقه والأدب، والتاريخ والزهد، والتصوف والطب .. الخ. وكانت وفاته بداره، بمحلة قطفتا في ليلة الجمعة الثاني عشر من رمضان سنة ٥٩٧هـ، وصلى عليه ابنه، ودفن بمقبرة باب حرب. للمزيد حول حياته وعلمه ومؤلفاته النظر: المنتظم، ج٩، ص٢٥٩؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص١١٩؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج٢، ص٢١٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ح٤، ص٣٢٩-٣١؛ بالإضافة إلى دراستين حديثين حول حياة ابن الجوزي ومؤلفاته: العلوجي، مؤلفات ابن الجوزي؛ ناجية عبد الله، قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي (وهو استدراك على ما فات العلوجي).

(٥) الرحلة، ص١٧٦ .

الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي، بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة، وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي، وهو يجلس به كل يوم سبت، فشاهدنا مجلس رجل ليس عمرو ولا زيد، وفي جوف الفراء كل صـــيد، آية الزمان وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية إمام الجماعة... إلى أن يقول: ومن أبهر آياته، وأكبر معجزاته، أنه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقرآن وعددهم نيف على العشرين قارئا، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القراءة يتلونها على نسق بتطريب وتشويق، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم أية ثانية... فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته، عجلا مبتدرا، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه دررا، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فقرأ، وأتى بها على نسق القراءة لها، لا مقدما ولا مؤخرا، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها ".

ذكرت بعض المصادر أن الكراريس التي كتبها ابن الجوزي لو جمعت وقسمت على أيام حياته لكان ما كتب كل يوم تسعة كراريس، "وهذا شيء لا يكاد يقبله العقل"، ونظير ذلك أنه جمعت براية أقلامه التي كتب بها الحديث فكانت الشيء الكثير[1] ومع ما في هذه الأقوال المبالغة، إلا أنها تدل على غزارة علمه وكثرة تصانيفه.

يقول ابن العماد[2]: "سئل عن مؤلفاته. فقال: زيادة على ثلاثمائة وأربعين منها

---

(١) ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص١٧٠؛ ناحية عبد الله، قراءة جديدة، ص١٣.

(٢) شذرات الذهب، ج٤، ص٣٣١.

ما هو عشرون مجلدا أو اقل". وقال سبط بن الجوزي[١]: "ما علمت أحدا من العلماء صنف ما صنف".

حظي ابن الجوزي بالقبول والاحترام من الخاص والعام على حد سواء، وحضر مجالسه الخليفة المستضيء، وابنه الناصر، والوزراء، والأعيان وأرباب الدولة[٢]، وسمع الناس منه وتلقوا عنه أكثر من أربعين سنة[٣]. واشتهر من هذه العائلة بالوعظ أيضا أبو الفرج عبد الرحمن بن يوسف الجوزي وكان يعظ بباب بدر مكان جده[٤].

وكان هناك وسائل أخرى للتسلية. يعد الغناء أشهرها والأكثر انتشارا، **بعد أن** استقرت قواعده وأصوله منذ العصر العباسي الأول، وأصبح للموسيقى قواعد معروفة، ومدارس متبعة، وألف كثير من الناس في الغناء والموسيقى[٥]

يرجع فارمر[٦] عدم ظهور مغنين أو موسيقي مشهورين في العصور المتأخرة إلى عدم ظهور مؤرخين موسيقي بقوة الأصفهاني مؤلف كتاب الأغاني، ليسجل لنا أخبار المغنين والمغنيات.

ومن الملاحظ خلال هذه الفترة أنهم كانوا يختارون لهذه المجالس أجمل الأماكن، فقصدوا ضفاف الأنهار والرياض والبساتين، ومعهم المغنيات والقيان،

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٤٨١.

(٢) الذهبي، العبر، ج٣، ص١١٩؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص٣٣١.

(٣) الذهبي، العبر، ج٣، ص١١٩؛ ناجيه عبد الله، قراءة جديده، ص١١.

(٤) مجهول، الحوادث، ص١٧٧.

(٥) فهد، الحياة اليومية في المدينة العراقية، ج٢، ص ٢٣٠.

(٦) فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ص٢٤٩؛ فهد، العامة، ص ٢١٩.

لتغني لهم، وهم في نشوة الخمرة، وغالبا ما يكون ذلك في فصل الربيع، وقت تفتح الأزهار. وقد وصف لنا المؤرخ ابن الكازروني كيف كانوا يقبلون على اقتناص لذاتهم ومتعهم في فصل الربيع فقال: "...وأما زمان الربيع، وأما الوشي البديع، فإنهم كانوا يصطحبون ويتجمعون ويتناثلون "كأنهم إلى نصب يوفضون" فينزلون في رهط من الجواري، ويدخلون نهر عيسى، ويباكرون إلى قصده تغلياً، فيجتمعون في المحوّل إذ عليه في الحسن المعولّ، فيخترقوا أشجاره، ويقطفون ثماره ونواره، ويفترشون رياضه وأزهاره، وينزلون غيطانه وأنهاره، ثم تعزف القيان، وتصطخب العيدان، وتصفق الغدران، وترقص الأغصان، وتميد الأفنان،... وقد انتظموا في سلك الراحة، واجتمعوا للاستراحة كذلك أياماً، لا يطعمون مناماً، إلا أنهم انتهكوا المحارم، وارتكبوا المآثم، وأصروا على الفجور وشرب الخمور"[1]

ولكن الخليفة الناصر، رغم اتهام بعض المؤرخين له بمراسلة المغول، إلا أنهم لم يوردوا في مدة حكمه الطويلة، التي قاربت سبع وأربعين عاما أي إشارة إلى اهتمامه بمجالس الغناء واللهو وعشقها، أو الإقبال عليها، إلا انه عندما أمر بختان ولديه: الأمير أبو نصر محمد، والأمير أبو جعفر أمر بإحضار المغنين والمغنيات وأصحاب الملاهي، وعمل خواناً عظيماً، وبقي الناس على ما هم عليه من الفرح والسرور والطرب سبعة أيام بلياليهن[2]. كان الاحتفال عاماً لإظهار الفرحة بختان ولدي الخليفة ولم يكن إشارة إلى أنه عمل من أجل إمتاع الناصر، وعلى العكس من الناصر كان الخليفة المستعصم، فرغم ما كان عليه من التقوى والتدين، إلا أنه كان مغرما بالغناء[3].

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٤٤ .

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص ٧٦.

(٣) الإربلي، خلاصة الذهب، ص ٢٩١.

من أشهر مغنيات بغداد خلال هذه الفترة نويس المغنية زوجة ابن رئيس الرؤساء، وعائشة السوداء زوجة ابن الكرخي(١). وقد اجمع أهل بغداد "بأن ما في بغداد مغنية أصنع من عائشة، ولا غناء اطرب من غنائها، ولا صوت أرق من صوتها"(٢).

واشتهر من الرجال بالغناء المبارك بن الأعز بن سعد الله (ت٥٨٣هـ/) "وكان رأساً في الغناء، أخذ المطربون عنه الأنغام"(٣) وأبو منصور بن نقطة (ت ٥٩٧هـ(٤)/١٢٠٠م) المسحراتي، فقد كان مجيدا في صنعه الغناء، وعمل "الكان وكان". وأيضا البدر محمد بن الفراش المغني، كان شابا جميل الصورة، مشهوراً بحسن الغناء، فلما توفي سنة (٥٩٨هـ/١٢٠١م) شيعه خلق كثير، وفجع به الناس وحزنوا عليه (٥).

وغلب على تلك المجالس شرب الخمرة والتغني بها(٦). جسد لنا الشاعر سبط بن التعاويذي تجسيدا حيا لمجلس من تلك المجالس، حيث اجتمع الندماء من ذوي الشمائل الرفيعة والكأس يديرها ساق أهيف جميل ومغنية إذا شدت زلزلت الأرض طربا فيقول:(٧)

لدينا يا أبـــا إسماعيل قدر   تـــفور وقهوة صـــرف تـــدور

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٩.

(٣) الذهبي، تاريخ، ط٦٤، ص١٦٤.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٦٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٩، ص٨٨.

(٦) النويري، نهاية الإرب، ج٤، ص١٠٣

(٧) ديوانه، ص٢٣٠.

وندمان كبستان نضير | بعيد أن يكون له نضير
وساق كالقضيب الرطب | حشاه وردفه عالٍ أثير
ومحسنة الغناء إذا تغنت | حسبت الأرض من طرب تسير

وولع الشباب بالمغنيات ليس وليد هذه الفترة، بل موجود منذ أمد بعيد. وقد دفع هذا الحب أن يقتل أحدهم صاحبه من أجل مغنية. ففي أحد الليالي من سنة (٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م) التقى شابان: أحداهما يدعى بأحمد بن المقرئ الحاجب بالديوان، والآخر يعرف بابن الأمير، وقد جرى بينهم كلام حول إحدى المغنيات، وكان لأحدهما ميل إليها. ويبدو أنهما قد تشادا بالكلام، فقام ابن المقرئ بطعن زميله وهرب، وبقي المطعون مدة يومين ثم توفى[١].

وفي مجالس الغناء لا بد من وجود عازفين يصاحبون المغني أو المغنية أثناء الغناء، ويستثيرون الراقصين والراقصات[٢].

اشتهرت مجموعة من الآلات الموسيقية التي استخدمها العازفون ومنها: العود[٣]، والربابة[٤]، والشبابة[٥]، والجنك[٦]، والطنبور[١]، والمزمار[٢]، والدف[٣]،

---

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٩٩ .

(٢) فهد، العامة، ص ٢٢١ .

(٣) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٣٢٣؛ ابن الأخوة، معالم القربة، ص٢١٢، ويعرف العود بالبربط –أي صدر البط– لآن صورته تشبه صدر البط وعنقه. الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص١٣٧.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٣٢٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص١٦٠.

(٥) ابن الأخوة، معالم القربة، ص٢١٢؛ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٤، ص٧٢٢.

(٦) النويري، نهاية الإرب، ج٤، ص١٣٣.

والجغانة[٤]، والطبل[٥].

ولعبة الشطرنج في الأصل كانت لعبة هندية منتشرة في المدن التي فتحها المسلمون الأوائل في العراق وإيران. ولكنها لعبة الخاصة من الملوك والأمراء والأعيان، وغالباً ما كانت تلعب في البيوت بين الأصدقاء في وقت فراغهم[٦]. ولكن لم ترد في مصادر بحثنا أية إشارة عن اهتمام خلفاء هذه الفترة بهذه اللعبة.

رغم أنها وسيلة مسلية إلا أن بعض العلماء قد أنكروها، مما دفع بعض الشعراء للدفاع عنها. قال أبو جعفر محمد بن ثابت الهمذاني:

يا عائب الشطرنج جهلاً به   وليس في الشطرنج من باسي
لعبة فهم في لهوه   شغل به عن غيبة الناس
يشغل الفاسق عن فسقه   وصاحب الكأس عن الكأس[٧]

ومن الرياضات التي مارسها أهل بغداد **السعي والركض لمسافات طويلة**. فقد كان بركة بن محمود الساعي مشهوراً بذلك، ركض من واسط إلى بغداد في يوم وليلة، ومن تكريت إلى بغداد في يوم واحد، فأنعم عليه الخليفة الناصر، ورفع

---

(١) ابن الأخوة، معالم القربة، ص٢١٢.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) النويري، نهاية الإرب، ج٢، ص١٣٣.

(٤) لم تكن مشهورة كثيرا وهي من آلات الترك. ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٣٢٩

(٥) ابن الأخوة، معالم القربة، ص٢١٢.

(٦) الغساني، العسجد المسبوك، ص٣٠٥.

(٧) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص٩٤١.

مكانه، وجعله مقدماً لرجال باب القرية[١]. ومن السعاة معتوق المعروف بالكوثر ركض سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) من واسط إلى بغداد في يوم وليلة، ولقد حصل القبول من رجال الدولة، ومن جملة ما حصل من الأموال ما يزيد على عشرين فرساً، ومن الذهب خمسة آلاف وأربعمائة دينار[٢].

وفي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) جرى معتوق الموصلي من دقوقا إلـى بغداد، وكان الخليفة المستعصم بالله وأولاده وحاشيته من الأمراء . إقبال الشرابي في استقباله، فأمر الخليفة له بخمسمائة دينار وأعطاه الشرابي ثلاثمائة دينار، وحصل من أرباب الدولة الشيء الكثير[٣].

وأحيانا كان السعي رياضة تنافسية بين المتسابقين للحصول على الجوائز المالية، ويتم هذا تحت رعاية الخليفة أو أحد الأمراء. ففي سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) كان هناك سباق بين معتوق الموصلي المعروف بالكوثري وعلي بن الإربلي، وكانت مسافة السباق من دقوقا إلى بغداد، وقد خرج الخليفة المستعصم وأولاده للتفرج على السباق وجلسوا في الكشك إلى حين وصولهما. فأمر الخليفة للكوثري الذي فاز بالسباق بفرس من مراكبه، وخلعة، وذهب[٤].

كانت النزهة وسيلة أخرى للتسلية. حرص أهل بغداد على المشاركة بها، فيخرجون إلى البساتين والرياض لقضاء الأوقات[٥]. وفصل الربيع كان من المواسم

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٥٢ .

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٣٥.

(٣) مجهول، الحوادث، ص٢٩١ .

(٤) المصدر نفسه، ص٢٣٤ .

(٥) ابن الكازروني، مقامة، ص٤٣٨

التي تكثر بها النزهات، فيختارون لهذه النزهات أجمل الأماكن وأكثرها هدوءاً[1]. وتعتبر المحول[2] من أشهر متنزهات بغداد، حيث يجتمع الناس في الصباح الباكر ويذهبون إلى المحول، يخترقون الأشجار والرياض ويفترشونها حتى المساء[3]. كما انتشرت المتنزهات والبساتين على نهر عيسى بالجانب الغربي. قال أحدهم في وصف جمال المنطقة وحسن هوائها:

في نهر عيسى الهواء معنبر   والماء فضي القميص صقيل
والطير إما هاتف بقرنيه   أو نادب يشكو الفراق ثكول[4]

حرص بعضهم على اصطحاب الجواري والمغنيات لتكمل فرحتهم[5]. كما خرجوا إلى شاطئ دجلة للنظر والفرجة على الناس وأرباب الحكايات حيث توجد جماعات من العامة عملهم إضحاك الناس بنوادرهم وتمسخرهم[6].

وأحيانا كان الأمراء والأعيان يدعون أصحابهم لقضاء ساعات من الراحة والتمتع في بستانيهم بعد تناول وجبة طعام[7].

شاركت النساء بالنزهة شأن الرجال[8]. وبعض الناس لم يكن يذهب لأجل النزهة فحسب، بل تجد من يذهب من أجل ممارسة الفسق مع المغنيات والجواري،

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٦٣؛ ابن الكازروني، مقامة، ص٤٣٩.

(٢) المحوّل. بلدة مشهوره حسنة طيبة، كثيرة البساتين والفواكه والأسواق والمياه، بينها وبين بغداد فرسخ. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٦٦.

(٣) ابن الكازروني، مقامة، ص٤٣٩.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٦٣ .

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٠.

(٦) الأصفهاني، خريدة القصر، مج٢، ج٣، ص٩٣.

(٧) سبط بن التعاويذي، الديوان، ص٥٦٣

(٨) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٨٧.

فبينما كان الناصر في بستان محمد بن علي يتنزه. فإذا بخطليشة المغنية تدخل إلى بستان حاجب دار الخلافة ابن هبيرة[١] وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومنع شرب الخمر، فأمر الخليفة الناصر بالقبض عليها، فدخلوا على ابن هبيرة وهو متكئ علـــى مخدته والى جواره المغنية (بقميص تحتاني) بدون سراويل فقيدوهما بالسلاسل والناصر ينظر إليهما[٢].

لم تقتصر النزهات على أفراد الرعية، بل شاركهم فيها الخلفاء وحاشيتهم ومن شدّة حب الناصر للتنزّه وقضاء ساعات من الراحة، أن أشترى بستان من تاج الدين ابن رئيس الرؤساء الملاصق للبيمارستان العضدي بثلاثمائة دينار، أمر ببناء دار فيه، يخرج إليه الخليفة للتفرج والتنزه[٣].

أما المستعصم فقد انشأ دارا بالمحول أنزه مواقع بغداد[٤]. كما حرص على القيام برحلات نزهة إلى واسط[٥]. وكان الخليفة وأمرائه ومماليكه يخرجون إلى قرية من أعمال طريق خراسان للتنزه ولرمي البندق[٦].

حرص الناصر لدين الله على توفير مناطق للتنزه في داخل بغداد لمن لم يستطع الخروج إلى مناطق بعيدة، لعدم توفر القوارب أو لكلفتها، فأمر بأن تزرع الجزيرة المجاورة لبستان محمد بن يحيى، فصارت موضعاً من أنزه المواضع،

---

(١) هو أبو الفتح أحمد بن هبيرة تولى حجابة الباب للخليفة الناصر، ثم عزل. الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٤.

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٣١ .

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٣.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٩٤.

(٥) مجهول، الحوادث، ص٢٢٥.

(٦) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٧٣.

وكان أهل بغداد يخرجون للفرجة، حيث يوجد جماعة من المتمسخرين فيه، والخليفة ينظر إليهم من شباك داره في ذلك البستان[١].

استخدم أهل بغداد في نزهاتهم النهرية السفن والقوارب مثل: السمريات، والشباره[٢]، والمصفرات[٣] التي كانت من مراكب الأعيان من كبار التجار وأصحاب المقاطعات حيث يركب الرجل وغلمانه والملاحون وعليهم الثياب الجميلة[٤]، وقد كان في بغداد خمسمائة مصفرة لهذه الغاية.

كان للخليفة الناصر سفينة تدعى الزبزب[٥] أنفق على صانعها أموالاً كثيرة، ولكنه لما نقل بواسطتها جثمان والده المستضيء، أمر بنقضها قائلا "لا حاجه أن تكون هذه السفينة بالدجلة، بإزاء التاج، لترقب من يموت يحمل بها[٦].

وذهب اللاهون إلى الأديرة الخاصة بالنصارى، يقضون أوقاتهم في شرب الخمرة، ومشاهدة المردان والنساء الجميلات من الشماسنة والرهبان[٧]. زار الشاعر سبط بن التعاويذي دير الثعالب[٨] يوم عيده سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) فرأى شماسيا صبح الوجه، فقال متغزلا:

---

(١) المصدر نفسه، ص١٧٨.

(٢) معروف، زوارق بغداد، ص٢٥، السمرية ضرب من السفن، الزيات، معجم ص٣٤٢ .

(٣) المصفرات نوع من السفن الصغيرة. الزيات، معجم المراكب، ص٣٤٤.

(٤) مجهول، مناقب، ص٢٧.

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

(٦) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٥٨.

(٧) سبط بن التعاويذي، الديوان، ص٢٤٠؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥١١؛ العبود، الشعر، ص٢٢٤

(٨) دير الثعالب: يقع هذا الدير؛ بجانب الغربي من بغداد، يقصده أهل بغداد من أجل التنزه والراحة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٠٢.

وغـــزال علـقـتـه   يــوم ديـــر الثعالــب
مـن ظـبـاء الـصريـم   يـخـطـر في زيّ راهــب
كـــالقضيب الـرطـيـب   يـوهـيـه حـمـل الذوائب
شـدّ زنــاره فـحـــل   عــقــود الـمـذاهـــب
مــا رمـى طرفـه بسهم   هـوى غـيـر صـائـب[1]

ومن الأديرة التي حرصوا على زيارتها من أجل التنزه: دير مار جرجيس، ودير سابر[2]، ودير الجاثليق[3]، ودير العلث[4]، ودير قوطا[5]، ودير مليان[6].

كانت هذه الأديرة مكاناً لصنع الخمرة، تموّن حانات بغداد، وسبب ذلك أنها كانت تحاط بالأعناب والفواكه التي تعصر حتى تصير خمرة، فكان دير الزرقوف مصدرا للخمر الذي يعصر به ويباع لأهل بغداد [7].

ولاحظنا من خلال البحث مقاومة الخلفاء -وخاصة الناصر- للفسق والمجون

---

(١) ديوانه، ص٥٢، ص٣ .

(٢) دير سابر: يقع قرب بغداد بين قرية يقال لها المزرفة وأخرى يقال لها الصالحية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥١٣

(٣) دير قديم البناء رحب الغناء في الجانب الغربي من بغداد بين أرض السواد وأرض تكريت ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٠٣؛ الحميري، الروض المعطار، ص٢٥١.

(٤) دير العلث: يقع في الجانب الشرقي بالقرب من قرية الحظيرة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٣.

(٥) دير قوطا: على شاطئ دجلة بين البردان وبغداد. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٩.

(٦) مديان: دير على نهر كرخايا قرب بغداد. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٥٣٣.

(٧) دير الزرقوف يقع على دجلة في جانبها الغربي. ابن عبدالحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٥٦١

في بغداد، بالحبس والنفي تـارة، وبالقتل تـارة أخرى. ففي حوادث سنة (٥٧٧ هـ/١١٨١م)[١]، يقول ابن الأثير: "كثرت المنكرات في بغداد، فأقام حاجب الباب جماعة لإراقة الخمور، وأخذ المفسدات"، كما أمر الخليفة الناصر بنفي امرأة تعرف "بالخليعة" إلى البصرة لما عرف عنها من الفسق وبيع الهوى[٢]. وقتل الخليفة الناصر بيده آل تنبه الشطرنجي الذي كان مفرطا في الشراب، ففي إحدى الليالي سمع الخليفة الناصر بذلك، فسار مع جماعة من أركان دولته إلى داره، فدخلوا عليه وهو يشرب ، فقام من مجلسه، فأخذ الخليفة سيفه، وضربه، فقتله[٣].

وكان الصيد مجالاً آخر من مجالات التسلية طيلة العصر الإسلامي، فمنذ العصر الأموي نجد صور الطراد على القصور الأموية، وقصائد الشعراء في الطراد، وخاصة طراد الغزلان، وحمر الوحش، والطير، تملأ جانباً من التسلية للقائمين به[٤].

وكان الخلفاء وخاصة الناصر والمستعصم مغرمين بالصيد[٥]، فإذا خرج أحدهم للصيد صحب معه جماعه من الأمراء والمقربين، وعند وصولهم إلى المكان

---

(١) الكامل، ج١٠، ص٤٧٨.

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٩٢، الغساني، العسجد المسبوك، ص١٨٥.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٧١.

(٤) وقد جمع الدكتور محمد عيسى صالحيه أسماء الكثير من المخطوطات والمصادر التي تبحث في الفروسية والصيد وتعليم الرماية وحصرها بما يزيد عن ثلاثين، وذلك في دراسته لمخطوطة "الإفادة والتبصير لكل رام مبتدئ وما هو نحرير بالسهم الطويل و القصير" لعبد الله بن ميمون. انظر المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، مج٢، عدد٦، ١٩٨٢، ص١٨٦-٧.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٢.

المحدد لذلك نصبوا الخيم للإقامة والراحة[1]، وكانوا يقضون على هذه الحال عدة أيام، ثم يعود الخليفة إلى بغداد، حيث توزع الطيور المصادة على أرباب الدولة وحاشيته[2].

شجع الخلفاء الناس وخاصة الشباب على صيد السباع[3]، فكان شباب كل محلة يخرجون للصيد على شكل مجموعات، ويكون خروجهم مناسبة سعيدة يحتفلون بها بفرح وسرور، فتعزف الفرق والمغاني وسائر الملاهي[4].

واستخدموا لصيد الطيور قوس البندق ويسمى الجلاهق. ويتخذ من القنا ويلف عليه الحرير، ويغرّى وفي وسط وتره قطعه دائرية تسمى الجوزة، توضع فيها البندقية عند الرمي[5].

وحرص الرماة على تزيين أقواسهم بكتابة أبيات من الشعر[6] منها:

ولا تخشى إملاقاً إذا اعتقلت   كفاك بي فالنجح في دركي
فالنسر لو قصدته ببندقة   مني لردته عن الفتلك[7]

أما إذا خرجوا لصيد الحيوانات الضواري استخدموا مجموعه من الحيوانات

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٤٠؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٣٦ .
(٢) المصدر نفسه والصفحة.
(٣) إن الاهتمام بصيد السباع هو نوع من التربية البدنية التي حرص الخليفة على تربيه الفتيان عليها. انظر حول ذلك الفصل الثاني "الفتوه".
(٤) مجهول، الحوادث، ص١٧٥.
(٥) القلقسندي، صبح الأعشى، ج٢، ص١٥٤ .
(٦) ابن ميمون، الإفادة والتبصير، ورقه ٣٥٧ .
(٧) سبط بن التعاويذي، الديوان، ص٣٨١.

المدربة كالفهود والكلاب وهي نوعين: السلوقية[١] والزغارية[٢]. أما إذا خرجوا لصيد الأسود والسباع، فان أسلحتهم في ذلك لابد وان تكون النبال بدلاً من قصي البندق[٣].

وكان يخرج شباب كل محله لوحدهم، فإذا اصطادوا سبعاً طوفوا به في المحلات، مفتخرين في أنفسهم، ومظهرين شجاعتهم[٤]. وغالبا ما كان ينتج عن ذلك اقتتال بين أهل المحال[٥].

وكان اللعب بالحمام وتربيته وسيله أخرى من وسائل التسلية. والمقصود بالحمام هو "الذي يألف السكن في المنازل"[٦]. وأصبح الاعتناء به وتربيته في البيوت هواية محببة لكثير من الناس، تملأ عليهم فراغهم وتشعرهم بلذة خاصة[٧].

لم يكن اللعب بالطيور والاهتمام بها مقصورا على فئة معينة من فئات مجتمع مدينة بغداد، بل شارك فيها الخلفاء[٨] والأمراء والأعيان والعلماء[٩]. وقد كان محبو هذه الهواية يبذلون في سبيلها الأموال الطائلة، حتى بيعت الحمامة في بعض الأوقات بسبعمائة دينار، كان ذلك مألوفا بالنسبة لسوق الطيور ببغداد والبصرة[١٠].

---

(١) منسوبة إلى سلوق من بلاد اليمن.

(٢) ألطف من السلوقية، ولا يعرف إلى ماذا تنسب. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٧.

(٣) فهد، العامة، ص٢٤٥.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤٦- ٧.

(٥) المصدر نفسه، ج٩، ص١٤٧- ٨. حول هذه الفتن انظر تنظيم الفتوه في الفصل الثاني.

(٦) ابن المستوفي، تاريخ إربل، ج١، ص٢٧٨، ابن الأخوة، معالم القربة، ص٢١٤ .

(٧) فهد، العامة، ص٢٣٧ .

(٨) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٤٣٧ .

(٩) ابن المستوفي، تاريخ إربل، ج١، ص٢٧٨ .

(١٠) فهد، العامة، ص٢٣ .

وكان للطيور سوق خاص ببغداد يتم فيه الشراء والبيع بالجانب الشرقي[1]، يتردد عليه أصحاب هذه الهواية لشراء الطيور وبيعها، ويبدو انهم كانوا من الكثرة بحيث أنهم وصفوا ذات يوم بأنهم "قد اجتمعوا يركب بعضهم بعضا[2]". وكان أكثر الناس شغفا بهذه الهواية الخصيان[3].

لم يقتصر الاهتمام بالطيور على أفراد الرعية كما أسلفنا، بل شاركهم فيها الخلفاء، فالناصر لدين الله شغف بها شأنه شأن العامة[4]. فكان هناك دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب[5]. ففي عام (٥٩٢هـ/١١٩٥م)، أمر الخليفة بان تكتب انساب الطيور " أنه من ولد الطير الفلاني"[6] وقيل أن الناصر باع طيرا بألف دينار[7].

ومن شدة حبه (الناصر) للطيور وعنايته بها، أنه أحضر جماعه من قباض الحمام أمثال ابن الدوامي وابن الجابر وغيرهم من المعروفين بلعب الحمام[8] ليقوموا بقبض الحمام له، وصار وسيلة تقرب من الخليفة[9].

لم تكن التسلية واللهو هي الدافع الوحيد لتربية الحمام لدى الخلفاء، بل اهتموا

---

(١) مجهول، مناقب، ص٢٦

(٢) فهد، العامة، ص١٣٧.

(٣) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص١٨١.

(٤) السيوطي، تاريخ، ص٣٦٠.

(٥) العمري، التعريف، ص١٩٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٩٠.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٣٨.

(٧) المصدر نفسه والصفحة.

(٨) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٨٠.

(٩) المصدر نفسه والصفحة.

بها من أجل استخدامها للبريد والمراسلات. ومن أشهر أنواعها: الهدى و الهداء والزاجل والزأجو. وقد أفاض الجاحظ في دراسة الفروق بين هذه الأنواع، وشرح طريقة تربيتها(١).

سعى الخلفاء في هذه الفترة إلى تحسين سلالات الطيور المسماة "بالحمام الرسولي" فقام الخليفة الناصر سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م) بذبح الطيور القديمة واستفرخ طيورا جديدة، وصنفها اثني عشر صنفا، نسبه إلى أسماء الأئمة: العلويات، والحسينيات، والمحمديات، والفاطميات، والهاشميات، والباقريات... الخ(٢)وفوض أمر رعايتها وتربيتها إلى قاضي القضاة ابن البخاري(٣). ولما كبرت هذه الطيور قام الناصر بتجربتها في احتفال كبير أقامه لهذه الغاية، فأرسل هذه الطيور إلى المشاهد المختلفة ،فأطلقت من هناك فعادت إلى بغداد(٤).

تابع الخليفة المستعصم هذه السياسة، فأضاف إليها أربعة أخرى سماها اليمانيات والعسكريات والغنويات (نسبه إلى مشهد غني بالكوفة) والقادسيات ، ووزعها على المشهد سنه (٦٤٣هـ(٥)/١٢٤٥م) . وقد نظم الشعراء القصائد لتخليد هذه المناسبة(٦).

---

(١) الجاحظ، الحيوان، ج٣، ص٢٢٦.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق٢، ص٤٣٧.

(٣) هو أبو طالب علي بن علي بن عبد الله بن هبه الله البخاري، ولي قضاء القضاة ببغداد مرتين: الأول سنه ٥٨٣هو بعدها ناب بالوزارة و بعدها عزل، ثم ولي القضاء

(٤) الذهبي، مختصر، ج١، ص٤٣٧.

(٥) مجهول، الحوادث، ص٢٠٣ .

(٦) المصدر نفسه والصفحة .

إلى جانب الولع بالطيور، كان الناس مولعين بتربيه أنواع أخرى من الحيوانات، من أجل مهارشتها، كالكباش. فكانوا إذا أرادوا مهارشتها جاءوا باثنين من كل نوع وجعلوا الواحد مقابل الآخر، فتبدأ هذه الحيوانات بالمهارشه، والناس يتفرجون[١].

ولعبوا بالقردة والدببة. وكانت هنالك مناطق خاصة يجتمعون بها لغرض عرض بضاعتهم على الجمهور[٢].

ثالثاً- الحياة اليومية

من مظاهر الحياة اليومية الأطعمة والأشربة. اهتم أهل بغداد بالطعام وتفننوا في طهيه، وتصنيفه، وترتيب تقديمه على موائدهم، وقد اعتنى المؤلفون بوضع المؤلفات التي تصف الطعام وطريقة تقديمه. وممن ألف في هذا الباب محمد بن عبد الكريم الكاتب البغدادي الذي ألف كتابه الطبيخ في سنه (٦٢٣هـ/١٢٢٦م). يصف لنا هذا الكتاب الطعام في عصر المؤلف وفيما سبقه من العصور العباسية[٣]. وقد قسم المؤلف الطعام حسب فئات المجتمع في عصره، فذكر أطعمة مختلف الفئات الاجتماعية[٤].

اختلفت الأطعمة باختلاف الفئات الاجتماعية، فطعام فئة الخاصة عاده ما يتكون من أكثر من صنف وعليه لمسة الترف، وعلى العكس من ذلك طعام الفقراء الذي يظهر عليه الخشونة، وقلة القيمة الغذائية.

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٤٢ .

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٤٢ .

(٣) حسن، تاريخ الإسلام، ج٤، ص٦٣٦.

(٤) المرجع نفسه والصفحة.

من أشهر الأطعمة الدجاج. اختلفت طريقة طهيه حسب رغبة الآكلين. ويعتبر الدجاج أساس المائدة، لذلك كان سعره مرتفعا[١].

ومن ألوان الطعام المضيرة[٢]. حيث يقطع اللحم السمين مع الإلية، وتوضع في قدر، ثم يضاف إليها ماء وملح حتى تغلي، فإذا قاربت النضج أضيف البصل والكمون، فإذا نضج وجف ماءها ولم يبق سوى الدهن، غرف في أناء، وأضيف إليه الليمون والنعناع، ثم يترك على نار حتى يغلي قليلا، وأضيف إليه التوابل ثم يترك حتى يهدأ[٣].

ومنها السكباج. حيث يقطع اللحم السمين، ويوضع في قدر، ثم يضاف إليه الملح وعود الدارصيني، ويبقى على النار حتى يغلي، وبعدها تضاف إليه الكزبرة اليابسة والبصل والجزر أو الباذنجان[٤].

وهناك الاسفاناخيه. يقطع اللحم ويلقى في الدهن، ويضاف إليه الماء الساخن مع الملح، فإذا قرب من النضج أضيف إليه الكسفرة اليابسة والكمون والفلفل. وعندما يغلي يضاف إليه الأرز حسب الحاجة، ثم يترك على نار هادئة. ويكون قد أعد له لحم أحمر مدقوق ناعم، يعمل منه كبب تلقى في الدهن، ثم يخرج للأكل [٥].

---

(١) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص١٠٠، ابن الجوزي، أخبار الحمقى، ص٣٣؛ اكتمال إسماعيل، الحياة الاجتماعية، ص١٠٧ .

(٢) البغدادي، الطبيخ، ص٢٤

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١٣؛ حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج٤، ص٦٣٧ .

(٥) البغدادي، الطبيخ، ص٢٧ .

ومن أكلات المترفين الأغنياء: الرخامية[1] والاطرية[2]، والطباهجة[3]، والألية[4]. وأما الأطعمة الشعبية، فتتألف من اللحم والخبز والدبس والخل والسمك المشوي[5] والمقلي والمطبوخ[6].

كان المحتسب يشرف على باعه السمك بصفة خاصة، لئلا يخلطون السمك الطازج بالفاسد[7].

وتعتبر الباقلاء من الأكلات الشعبية الواسعة الانتشار[8]. وكذلك الثريد[9]، هو عبارة عن خبز أضيف إليه مرق اللحم، وربما كان الفقراء يضعون الباقلاء بدل اللحم[10]

والعصيدة كانت تصنع من التمر والماء، فبعد أن تُغلى بالماء، تُمرس باليد، ويضاف إليها السكر والعسل والزعفران، ثم تحرك حتى تنضج، فيوضع بين رقاقتين، وقد يعمل بدون سكر ولا عسل [11].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦.

(٤) المصدر نفسه والصفحة. والمزيد من التفاصيل حول هذه الأكلات أنظر المصدر نفسه ص١٦-ص٢٨.

(٥) القزويني، آثار البلاد، ص٤٤٦.

(٦) النويري، نهاية الإرب، ج١٠، ص٣٠٧.

(٧) الشيزري، نهاية الرتبة، ص٣٣.

(٨) فهد، العامة، ص١١٢.

(٩) ابن الجوزي، الأذكياء، ص١٨٠.

(١٠) إسماعيل، الحياة الاجتماعية، ص١٠٦.

(١١) البغدادي، الطبيخ، ص٧٢.

وكانت الرؤوس والأكارع من أكثر الأكلات الشعبية انتشاراً في العراق، فبعد كشط شعر الرأس عن الجلد، يوضع بالماء على النار حتى ينضج[١].

ومن الأطعمة الكباب، حيث يشرح اللحم ويوضع عليه الملح، وبعدها يشوى على النار، ويقلب حتى ينضج[٢].

أما الخبز فهو أهم مادة غذائية. والخبز أنواع، وكان أحسنها الحواري الأبيض، الذي يتناوله أبناء الفئة الغنية[٣]. وهناك الخبز الرديء مثل خبز الخشكار الذي يخبز من الطحين الخشن من دون نخاله[٤]، والخبز المصنوع من الشعير[٥]، وأحيانا كان يشطر ويوضع فيه كامخ التوت[٦].

واشتهرت العراق بكثير من الفواكه، منها: البطيخ[٧] والتين والرمان[٨] الذي يجلب من حلوان[٩]، والتفاح الذي يجلب أحياناً من أصفهان، والسفرجل[١٠]. ومن واسط[١١] يجلب العنب والنارنج والليمون والأملاح الواسطية[١٢].

---

(١) ابن سيده، المخصص، ج٤، ص١٤٣.

(٢) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج٤، ص٦٣٧.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص١١.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٩٤.

(٥) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٢٢.

(٦) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣١٣؛ إسماعيل، الحياة الاجتماعية، ص١٠٥.

(٧) ابن الجوزي، الأذكياء، ص٢١٥.

(٨) القزويني، آثار البلاد، ص٣٥٧ .

(٩) حلوان مدينه بين همذان وبغداد. القزويني، آثار البلاد، ص٣٥٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص٢٩٦.

(١١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٣٩ .

(١٢) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص١٧٠ .

وأما الحلوى[١] التي كانت تصنع في العراق، فهي أنواع منها: الخبيص. ويصنع من دقيق الحنطة. وهو أنواع منها: خبيص القرع، خبيص اللوز، خبيص الجزر[٢]. وهناك اللوزينج، والفالوذج[٣]، والخشكنانج المصنوع من دقيق السميد، حيث يعجن عجنا قويا، ويترك حتى يخمر ثم يقرص مستطيلات، ويجعل في وسط كل واحدة بمقدارها من اللوز والسكر المجبول بماء الورد[٤]. ومن الحلوى القطائف، والفطائر، ولقم القاضي[٥]، والصابونية[٦] وغيرها.

إذا انتقلنا إلى **موضوع الملابس**، فنجد أن صناعة النسيج في العراق خلال العصر العباسي قد شهدت ازدهارا كبيراً خاصة في عمل اللباس، فتفننوا في حياكتها وتطريزها وتزيينها. وقد امتدح كثير من المؤرخين الملابس العراقية، حتى قال النويري[٧]: "من كان يريد الثياب الرقاق فليلحق بالعراق".

اشتهرت بغداد بإنتاج أنواع من الثياب، منها العتابي الذي انتشر استعماله داخل العراق وخارجه. يقول ابن واصل في وصف عودة الملك الأشرف من دمشق، ونزوله عند صاحب حلب الملك الظاهر: "أنه خلع عليه عند زواجه مائة بقجة مع مائة مملوك منها: عشرا في كل منها خمسه أثواب عتابي وموصلي"[٨].

(١) البغدادي، الطبيخ، ص٧٣.

(٢) المصدر نفسه. ص٧٤؛ إسماعيل، الحياة الاجتماعية، ص١٠٨.

(٣) البغدادي، الطبيخ، ص٧٠٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٧٩.

(٥) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٦) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٧) نهاية الإرب، ج١، ص٣٥٨ .

(٨) مفرج الكروب، ج٣، ص٤٠٤.

من الملابس أيضاً: الأبرسيمية[1]، والقطنية التي كانت تعمل في قرية باقدري[2]. والسقلطون[3] من ملابس أهل العراق، وملابس الكرباس، والصفيق. وكانت تجلب من الحظيرة بواسطة التجار[4].

كان للتمايز بين فئات المجتمع أثر كبير في تعدد الأزياء وتنوعها، فكانت كل فئة تختص بلباس يميزها عن سواها، وربما أتسع تنوع اللباس خارج حدود الفئات الاجتماعية إلى سائر أنحاء العراق.

كانت الملابس على ثلاثة أنواع من حيث الغاية: فبعضها للرأس، وبعضها للبدن، والبعض الآخر للأرجل.

أما ملابس الرأس فمنها العمامة. وكانت لباسا عاما لمعظم فئات المجتمع وكانت تصنع من مواد نسيجية مختلفة كالخز والقصب. ولم يكتف أهل بغداد وفضيلة، راحوا يزينون عمائهم ببعض الخيوط الذهبية[5].

ومن المناطق التي اشتهرت بصناعه العمائم تستر[6]. وتكوير العمامة سنة وفضيلة. روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "ركعتان بعمامة خير من سبعين ركعة بغير عمامة"[7]. وتلبس العمامة وحدها بلا قلنسوة، أو يلفونها على القلانس[8]

---

(١) القزويني، آثار البلاد، ص٤٠٤.

(٢) من قرى بغداد بينها أربعون ميلا. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص٣٢٧.

(٣) النويري، نهاية الإرب، ج١، ص٣٦٩.

(٤) من أعمال بغداد جهة تكريت. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٧٤.

(٥) العبيدي، الملابس العربية، ص١٠٨.

(٦) تستر: أعظم مدينه بخوزستان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص٢٩.

(٧) البخاري، رسالة في فضيلة العمامة، مخ، ورقه ١٢أ.

(٨) العبيدي، الملابس العربية، ص١١٧.

وأما ملابس الرأس بالنسبة للمرأة، فأشهرها البرقع. وهو عبارة عن قطعة قماش يثقب في موضع العينين تبصر منه المرأة(١). كما لبست النساء الخمار(٢). ولبست العصائب. وكانت الجواري يزين عصائبهن بالأشعار التي تدور حول الحب والحبيب. أما النساء الحرائر وخاصة المقتدرات فقد رصعن عصائبهن بالجواهر والأحجار الكريمة(٣).

والجبة من ملابس البدن. وتختلف باختلاف فئات المجتمع، فالأغنياء استكثروا منها، وجعلوا لكل مناسبة واحدة(٤). ولما كانت الجبة لباساعاما، لبسه أعظم الناس وأصغرهم، فهي لا بد أن تكون قد اختلفت في شكلها ونوعها ولونها من فئة لأخرى، لأنها اتخذت من قبل فئات المجتمع التي تتفاوت في المركز الاجتماعي، فمثلا جبة الأغنياء كانت تمتاز بعرضها وطول ذيلها، وتتخذ من القماش الغالي الثمن(٥). وحفلت جباب المتصوفة بالرقاع العديدة، كذلك الحال بالنسبة للفقراء(٦).

أما جبة العوام، فغالبا ما تكون من الصوف(٧). وكان الناصر لدين الله قد لبس الجبة ذات اللون الأبيض. وكانت الخلع الخلافية على الأمراء والأعيان تشمل على الجبة بالإضافة إلى ملابس أخرى(٨).

---

(١) ابن سيدة، المخصص، ح٤، ص٣٨.

(٢) العبيدي، الملابس العربية، ص٥٨.

(٣) المرجع نفسه، ص١٦٩.

(٤) ابن الجوزي، تلبيس، ص ٢٥٤؛ الذهبي، مختصر، ج١، ص٥٨.

(٥) العبيدي، الملابس العربية، ص٢٠١.

(٦) دوزي، المعجم المفصل ، ص٩٣.

(٧) ابن الجوزي، تلبيس، ص٢٠١.

(٨) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٤٠.

يعتبر الإزار من ملابس البدن الخارجية. وهو قطعة قماش كانت تلف أو تعقد على وسط الشخص(١). ورغم أنه كان في البداية من ملابس البدن الداخلية، إلا أن شيوع استخدامه، وخاصة في الحمامات العامة جعله من ملابس البدن الخارجية(٢). ويمكن أن يكون الإزار من الصوف. ولبسه في الحمامات لستر العورة كان مطلوبا. فقد كان المحتسب يطلب من أصحاب الحمامات أن يوفروا في حماماتهم عدد كافي منها. فيذكر الشيزري أن من واجبات المحتسب: أن يأمر بلبس المئزر. وعلى الحماميّ أن يحتفظ بمجموعة من المآزر ويؤجرها للناس عند الحاجة(٣).

ومن ملابس البدن الخارجي للرجال القباء، وهو فارسي الأصل(٤). ولما استخلف المستضيء بأمر الله، خلع على أرباب الدولة ألفا وثلاثمائة قباء(٥).

كان الطيلسان من ملابس البدن الخارجي، أصله فارسي معرب يلبس على الكتف(٦)، وشكله مربع يجعل فوق العمامة ويغطي أكثر الوجه(٧). ولقد كان أكثر الناس لبساً له القضاة والعلماء(٨). ورفع الطيلسان علامة عزل القاضي، فلما عزل القاضي محمد بن جعفر بن أحمد أبو الحسن عن القضاء سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م)

---

(١) جواد، أزياء العرب، ص٥

(٢) الأزدي، حكاية أبى القاسم، ص ٨٥

(٣) نهاية الرتبة، ص ٧٨.

(٤) الجواليقي، المعرب، ص٣١٠.

(٥) السيوطي، تاريخ، ص٣٥٥.

(٦) الجواليقي، المعرب، ص٢٧٥.

(٧) العبيدي، الملابس العربية، ص٢٦٩.

(٨) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص ١٩٧.

بتهمة الفساد أمر أستاذ الدار برفع طيلسانه[1]. وشارك الخلفاء في لبس الطيلسان، فكان الخليفة الناصر قد لبس طيلساناً[2]. وعادة ما يكون أسود اللون[3]. وكان العرف أن يخلع القاضي طيلسانه إذ نقل إلى وظيفة أخرى غير القضاء[4].

أما ملابس البدن للنساء، فأشهرها الجلباب، وتلتحف به النساء من الرأس إلى القدمين حين يردن الخروج من منازلهن[5]. وما ينطبق على ملابس الرجال ينطبق على ملابس النساء من حيث النوع والقيمة، فتجد أن نساء الخلفاء والأمراء كنّ أكثر اهتمام بملابسهن، فلما توفيت العباسية إحدى زوجات الخليفة المستضيء بأمر الله سنة (٥٧٩هـ / ١١٨٣م) أخرج لها ثوبا كبير الأكمام بلؤلؤ كبار، وقبقاب عليه لؤلؤ، ومداس لؤلؤ[6].

وكانت الجواري تلبس المناطق[7] والأقبية حتى أصبحت سمة خاصة بهن[8]. ولبس الظراف الزنانير، إلا أن زنانير الرجال كانت أعرض من زنانير النساء، كما لبسوا السراويل، وكان لا ينبغي للظريف أن يمشي بلا سراويل[9].

وفي فصل الشتاء يلبس الناس الفروة للوقاية من البرد. وتكون مصنوعة من

---

(١) المصدر نفسه، والصفحة .

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٣٩ .

(٣) دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٧، ص٦٥.

(٤) الأنباري، النظام القضائي، ج٦، ص٢١٠.

(٥) دوزي، معجم الملابس، ص١٠٣ .

(٦) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٢٣ .

(٧) المنطقة: كل ما يشد به الوسط، ويكون في العادة من الجلد أو القماش. دوزي، معجم الملابس، ص٤٥١ .

(٨) العبيدي، ملابس الندامى، ص٢٢٣ .

(٩) المرجع نفسه، ص١٢٥ .

فراء الخراف [١].

أما ملابس القدمين، فلم يكن لها اهتمام كبير من قبل المؤرخين شأن غيرها من الملابس، ولكن نجد لها إشارات عرضا من خلال إيراد القصص والروايات، إضافة إلى أنها لباس غير ظاهر[٢].

كانت الجوارب لباساً مشتركاً بين الرجل والمرأة على حد سواء، ولكن اختلف في نوعية القماش التي صنعت منه، فبعضهم لبسها من الخزّ، والبعض من القز[٣]. وأما الفقراء فالأرجح أنهم لبسوها من القماش الرخيص كالصوف أو الكتان[٤].

وإذا كانت الجوارب قليلة الاستعمال، فان الحذاء كان أكثر شيوعا، لأنه اللباس الذي يقي القدمين من ملامسة الأرض[٥]، ومن تلك الأحذية النعال[٦]، وما يلحق بها يسمى الشراك، وهو سير النعل[٧]. ولبست النساء القبقاب[٨]. وضرب آخر من ملابس القدم يدعى الخف[٩]، وقد اتخذ من قبل أكثر فئات المجتمع ابتداء من الخليفة وحتى عامة الشعب[١٠]

---

(١) النويري، نهاية الإرب، ج٢٩، ص١١٢ .

(٢) العبيدي، الملابس العربية، ص٣١٣ .

(٣) ابن سيدة، المخصص، ج٤، ص٦٨.

(٤) المرجع نفسه والصفحة .

(٥) العبيدي، الملابس العربية، ص٣١٦ .

(٦) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٢٤؛ النويري، نهاية الإرب، ج٥، ص٢٦٣.

(٧) المصدر نفسه والصفحة .

(٨) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٢٣ .

(٩) ابن سيدة، المخصص، ج٤، ص١١٤ .

(١٠) العبيدي، الملابس العربية، ص٣١٩ .

وكان الناس يميلون إلى الاعتناء بمظهرهم[١]، وخاصة إذا أراد أحدهم الخروج من البيت، لذلك كان يعمد إلى دهن شعره وتسريحه، ثم النظر في المرآة ليسوي عمامته، ويلبس ثيابه بعناية، بحيث يجعل منظرها الخارجي حسنا مقبولا في أعين الناس[٢]، وزاد بعضهم على هذه العناية استخدام العطر وكانت لها دكاكين خاصة لبيعها[٣].

استكمالاً للحديث عن مظاهر الحياة اليومية والمعاشية لسكان مدينة بغداد، لا بد من التطرق إلى **مستوى الأسعار**. فيلاحظ الباحث في مستوى الأسعار خلال هذه الفترة التباين زيادة ونقصاناً بين مدة وأخرى. ويعود ذلك إلى عوامل عديدة. فالفيضانات الكثيرة، والغرق الناجم عن طغيان مياه الأنهار على الأراضي الزراعية المجاورة، يلحق الأذى والضرر بالمزروعات، ويؤدى إلى خراب مشاريع الري، فيقل الإنتاج، وترتفع الأسعار، إضافة إلى الآفات الزراعية التي تلحق الأذى بالمزارع والحقول[٤].

شهد هذا العصر كثيراً من الفيضانات المدمرة، لعل أشدها خطراً وأكثرها ضرراً الفيضانات التي حدثت في الأعوام: (٥٩٢هـ/١١٩٥م)[٥]، (٦٤٦هـ/١٢٥٥م)[٦]، و(٦٥٤هـ/١٢٥٦م)[٧]. ولا شك في أن الفيضانات في هذا العصر،

---

(١) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٤، ص٨٧٥ .

(٢) فهد، العامة، ص١٦٠ .

(٣) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج٣، ص١٦٤؛ الذهبي، سير، ج٢٢، ص٨٤ .

(٤) ناجية عبد الله، ريف بغداد، ص٣٦١ .

(٥) المرجع نفسه والصفحة.

(٦) المرجع نفسه والصفحة.

(٧) المرجع نفسه والصفحة.

وما كان ينتج عنها من خراب وتلف المزروعات والممتلكات دليل على إهمال نظام الري.

وأما العوامل السياسية فلا شك في أنها تؤثر على حركة السوق ووضع الأسعار فيه، وكان للخطر المغولي الذي اخذ يهدد الخلافة أثره في ارتفاع الأسعار، كما حدث سنة (٦٣٣هـ[١]/١٢٣٥م). وهناك الأمراض وانتشار الوباء الذي يؤدى إلى ارتفاعها أيضا كما حدث في سنة(٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) مما دفع المستنصر بالله إلى معالجة الأمر، فتصدق على المرضى بالسكر بعد ارتفاع أسعاره[٢].

هذا إضافة إلى الممارسات غير الشرعية للتجار من احتكار للسلع والمواد الغذائية وخزنها، فكان يؤدى إلى خلق أزمات اقتصادية كما حصل في سنة (٥٧٥هـ /١١٧٩م) حينما تحكم أستاذ الدار وصاحب المخزن ابن العطار بدولة الخلافة، واحتكرا الغلات الزراعية والحبوب، ومنع بيعها، رغم كثرتها في البلاد، مما أدى إلى زيادة سعرها[٣].

لكن يجب الإشارة إلى أن الفترة (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٢٥م) فترة حكم الناصر لدين الله امتازت بالرخاء والرخص في الأسعار، ولو تناولنا معدل سعر مادتين أساسيين هما الحنطة والشعير لوجدنا أن معدل سعر كُرّ[٤] الحنطة كان

(١) مجهول، الحوادث، ص٢٠٢٠ .

(٢) ابن كثير، البداية، ج١٣، ص١٦١؛ مجهول، الحوادث، ص١٥٤ .

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٣.

(٤) الكُرّ مكيال معروف لأهل العراق، أصلة بابلي، وهو ستين قفيزا، وكل قفيز يساوي ثمانية مكاكيك، والملوك يساوي صاع ونصف. الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص١٢؛ هنتس، المكاييل والأوزان، ص٣٦٤ .

(١١ديناراً)، كُرّ الشعير (٣،٥ ديناراً)، أما معدل سعر كر الحنطة ما بعد فترة حكم الناصر فقد بلغ نحو (٩٠ ديناراً)، والشعير (٣٧ديناراً).

ولإعطاء صورة أوضح انظر جدولاً جمعنا فيه أسعار بعض المواد خلال فترة البحث:

السنة	المادة	السعر	ملاحظات
٥٧٤هـ[١]/١١٧٨م	كر الحنطة	١٠٠دينار	غلاء
٥٧٤هـ /١١٧٨م	كر الشعير	٥٠دينار	غلاء
٥٩٦هـ[٢]/ ١١٩٩م	كر الحنطة	١٥دينار	رخص
٥٩٦هـ / ١١٩٩م	الشعير	٧ دنانير	رخص
٦٠٥هـ[٣]/ ١٢٠٨م	الحنطة	٧دنانير	رخص
٦٠٥هـ / ١٢٠٨م	الشعير	٣دنانير	رخص
٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م	كر الأرز	ثمانية قراريط	رخص
٦٠٥هـ / ١٢٠٨م	٢٥رطلا من الخبز	بقيراط	رخص
٦٤٣هـ[٤]/١٢٤٥م	الحنطة	٩٠دينار	غلاء
٦٤٣هـ/١٢٤٥م	الشعير	٤٠ دينار	غلاء

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٨٥ .

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ١٨، .

(٣) المصدر نفسه، ج٩، ص٢٦٩

(٤) مجهول، الحوادث، ص٢٠٢ .

٦٤٥هـ[1]/ ١٢٤٧م	الحنطة	٨٠دينار	غلاء
٦٤٥/ ١٢٤٧م	الشعير	٣٠دينار	غلاء
٦٤٦هـ[2]/ ١٢٤٨م	الحنطة	١٠٠ دينار	غلاء

(١) المصدر نفسه، ص٢١٨ .

(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٦ .

الفصـــــل الرابـــــــــع

المرافـــق والخدمـــات العامـــة

١. توفير المياه لمدينة بـــغـــداد
٢. الطرق والمواصـــلات
٣. الجوامع والمساجـــد
٤. البيمارستانات
٥. الحمامـــات
٦. النظافة والصرف
٧. المؤسسات الثقافية

ليست المدينة بيوتا متراصة، وسكانا يتكاثفون، وسلطة تنظم العلاقات، ولكنها تستمد استمراريتها الحياتية أيضاً من مجموعة المرافق والخدمات العامة التي فيها، والتـي قـد تكون من جهة النظر السكانية أهم ما فيها وتتوزع هذه المرافق بتنوع الحاجـات البشرية. فمنها ما حقق أغراض الحياة الدينية، ومنها ما تحقق أغراضاً مدنـية. ساهمت الحكومة إلى حد ما في إنشاء بعضها والإشراف عليها. ولكن كان دور أهل الخير أوضح في هذا المجال، فلم يقتصر على مجرد إنشاء تلك المرافق، بل تعداه إلى المحافظة على استمراريتها من خلال الأوقاف.

أ - توفير المياه

تحكـم الماء إلى حد كبير في اختيار موضع المدينة. وطالما أشاد الجغرافيون المسـلمون بالحواضـر التـي يتوفـر فيها الماء العذب. وعدت عذوبة الماء من المميـزات الرئيسـة التـي تميـز مدينة عن أخرى، فمثلا يصف القزويني بغداد فيقول[١]: "إنها أم الدنيا، وسيدة البلاد، وجنة الأرض، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ومجمـع الرافدين، ومعدن الظرائف، ومنشأ أرباب الغايات. هواؤها ألطف من كل هـواء، وماؤها أعذب من كل ماء، وتربتها أطيب من كل تربة، ونسيمها أرق من كل نسيم". يؤكد هذا الوصف على أهمية عذوبة الماء حتى يكون صالحا للشرب[٢].

تـنوعت أسـاليب تغذيـة المدينة بالماء بتنوع مصادرها: كالأنهار، والآبار، والأمطـار. وأقيمت الوسائل الملائمة لكل مصدر بحيث يسهل في النهاية توصيل الماء إلى المدينة[٣].

---

(١) القزويني، آثار البلاد، ص٣١٣ .

(٢) عبد الستار، المدينة الإسلامية، ص٢٦٨.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٧٠ .

في العصور العباسية الأولى كانت بغداد تمون بالماء بواسطة قنوات مكشوفة أو قـنوات تحـت الأرض معقودة بالآجرّ والصاروج، وكل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض[١].

رغـم ما أصاب الجانب الغربي من الخراب في فترة الدراسة كما وصفه ابن جبيـر بقوله: "وأما الجانب الغربي فقد عمه الخراب واستولى عليه وكان المعمور أولا، وعمارة الجانب الشرقي محدثة، ولكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوى على سبع عشرة محلة، كل محلة منها مدينة مستقلة[٢]". فقد كان يجري فيه مجموعة من الأنهار حتى فترة دراستنا.

يعتبـر نهـر عيسـى من أهم أنهار الجانب الغربي، لإروائه عددا هائلا من المحـلات، فكـان يختـرق أحياء الجانب الغربي السكنية حتى يصب أسفل قصر عيسـى[٣]. وكـان نهـر الصراة من أنهار الجانب الغربي أيضاً، يأخذ ماؤه فوق المحـول ثم يصب في دجلة عند قصر الخلد. ونهر كرخايا المتفرع أصلاً من نهر عيسـى، كان مستقى لأهل الكرخ من ناحية الجنوب، ومستقى المدينة المدورة من ناحية الشمال[٤].

يرى الدكتور عماد عبد السلام رؤوف[٥] أن هذه الأنهار، وخاصة في العصور المتأخرة كانت لأجل توصيل مياه الاستعمال اليومي من غسيل وسقي المزروعات، وربمـا لتصريف المياه المستعملة أيضاً، إذ ليس من المتصور أن تبقى هذه الأنهار

(١) الخطيب، تاريخ بغداد، ج١، ص١١٤ .

(٢) الرحلة، ص١٧٩ .

(٣) الخطيب، تاريخ بغداد، ج١، ص ١١٢ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة؛ رؤوف، مشاريع مياه الشرب، ص١٧٠ .

(٥) المرجع نفسه، ص١٧١ .

نظـــيفة وصــــالحة للشرب، وهي مياه تجرى في مجار ضيقة ومكشوفة العوارض، تحـــولت تدريجيا وخاصة في العصور المتأخرة لتمسي شبكة تصريف للمياه القذرة وســقي المزروعات، وتركت استعمالاتها الحيوية الأخرى. وليس من الشك في أن تحـــول مهمة هذه الأنهار على ذلك النحو كان سببا رئيسا في ترك السكن في تلك المحلات البعيدة عن دجلة ومن ثم خرابها.

أما الجانب الشرقي، فبعد عمارته تحولت بساتينه وجنائنه إلى أحياء و أسواق تجاريـــة ودروب، وتحـــولت مهمة الأنهار من سقي المزروعات إلى تيسير الحياة اليومـــية لســكان بغـــداد الشرقية، فكان نهر موسى يأخذ مياهه من نهر الخالص، ويمضـــي بمياهه حتى مصبها عند قرية كلواذى جنوب بغداد. ويصل نهر موسى إلـــى قصـــر الثريا الذي بناه المعتضد (خارج أسوار بغداد الشرقية) فيدخل القصر ويـــدور فـــيه، ويخـــرج منه ليصل منطقة مهمة عرفت بمقسم المياه، حيث قصر المعتصـــم، ومـــنه يتفرع نهر يمر إلى سوق العطش حيث ينتهي بدار الوزير ابن الفرات(١).

ثمـــة فرعان من فروع نهر موسى لهما أهمية خاصة تزايدت في العصـــور المتأخرة، وهما: نهر المُعلى. ويمر بين الدروب والسكك حتى يصل قصر الخلافة المسمى بالفردوس، فيدور فيه ، ويصب بعدها في دجلة. ونهر آخر في أسفله مواز لـــه تقـــريبا، يخترق بغداد من شمالها إلى جنوبها، حيث يدور في قصر التاج على دجلـــة، ثـــم يصب فيها(٢). زادت أهمية هذين الفرعين بسبب تزايد كثافة السكان، وتكـــوّن الأحياء والمحلات في القسم الجنوبي من الجانب الشرقي، والتي استقرت عليها بغداد في العصور التالية.

---

(١) الخطيب، تاريخ بغداد، ج١، ص١١٤.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ١١٥ .

ليس لدينا أية معلومات أو نصوص تدل أن هذه الأنهار كانت تجري في قنوات معقودة بالآجر والصاروج. ومن المحتمل أنها قد استخدمت في العصر العباسي الأول كمورد لمياه الشرب شأنها كغيرها من أنهار الجانب الغربي، عندما كانت الأرض قليلة السكان. لكن يستبعد بقاؤها كذلك في العصور العباسية المتأخرة، وذلك للأسباب نفسها التي ذكرناها حول الأنهار في الجانب الغربي، فالمنطقة المزدحمة حول دار الخلافة وهذه الأنهار المكشوفة تجري في هذا الوسط الحافل من الأحياء والدروب والأسواق، لا يمكن أن تكون مياهها صالحة للشرب. وأغلب الظن أن مهمتها لم تتجاوز كونها مصارف للمياه المستعملة، ومجارى لصرف الفضلات والأوساخ(١).

ونتيجة للوضع السيئ لمياه الأنهار في بغداد، وعدم إمكانية استخدامها للشرب، ظهرت أنواع مبتكرة وطرق جديدة من أجل توفير المياه، ونقصد بها نقل المياه من نهر دجلة إلى المحلات بواسطة القرب والروايا والسقايات.

كان الباعة يقومون بنقل الماء بالقرب والروايا على ظهور الدواب من نهر دجلة(٢)، ثم يبيعونها في الأسواق والمحلات(٣). وغالبا ما كان يشتريها المقتدرون من الأغنياء والتجار وكبار رجال الدولة. وقد تبارى السقاءون بنظافة قربهم وحسن عرضها، بل عمد بعضهم إلى تطييبها بالعطور الزكية كالمسك لتكون أحسن مذاقا(٤).

---

(١) رؤوف، مشاريع مياه الشرب، ص١٧١ .

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٢٣ .

(٣) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣١٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٩٩ .

(٤) رؤوف، مشاريع مياه الشرب، ص١٧٢.

كانت حرفة السقاية حرفة العوام، أو حرفة من لا حرفة له، نظرا لعدم تطلبها خبــرة أو رأســمال خاص. وكان السقاءون يؤلفون صنفا من الأصناف المهمة في التنظيم الحرفي في بغداد في العصور العباسية، ولهم ولي ينتسبون إليه هو سلمان الكوفي(١).

وكــان لهــم على شاطئ دجلة مشارع مخصوصة، تسمح لهم فيما يبدو بأخذ المـــاء نظيفا إلى حد ما غير ملوث، وخال من الشوائب والأقذار. وقد اشتهرت في بغداد الغربية منطقة على شاطئ دجلة قرب باب خراسان اسمها مشرعة الروايا(٢).

ســـاهم أصحاب القرب والروايا بتقديم خدماتهم في الظروف الطارئة كالحريق الذي حل بدار السلاح (٦٠١هـــ/١٢٠٤م) فقد اجتمع جميع من ببغداد من السقاءين بالقرب والروايا، ومكثوا يوماً وليلة يطفئون النار(٣).

اتخـــذت السقايات أهمية كبيرة في بغداد، خاصة أن الفقراء من الناس الذين لم يكــن ميســـراً لهم الحصول على الماء النقي الصالح للشرب من أصحاب الروايا. فتشدد نفر غير قليل من الفقهاء في التأكيد على أن مياه هذه السقايات هي لهم دون غيرهم من الأغنياء(٤). لذا عمد عدد من الخلفاء والموسرين وأهل الخير إلى إنشاء عدد منها في المواضع العامة من بغداد(٥). ويمكن تصنيفها إلى نوعين:

---

(١) جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص٩٢؛ رؤوف، مشاريع مياه الشرب، ص١٧٣.

(٢) جواد وسوسه، دليل خارطة بغداد، ص١٩٣.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٢٣ .

(٤) القرمشهري، رسالة في شؤون السقايات، مخ، ورقة ٦ .

(٥) الرحيم، الخدمات العامة، ص١٣٣.

أ. **المزملات:** وهي عبارة عن جرة يبرد فيها الماء. والظاهر أن هذا النوع مـــن الســقايات كان متوفرا في معظم أسواق بغداد ومساجدها ومبانيها العامة[١].

ب. **أمـــا النوع الثاني من هذه السقايات يتمثل بمباني واسعة،** تتخذ مسكناً للـــزهاد[٢]، ومأوى للمرضى في ظروف خاصة، فضلا عن استمرارها بتوفير المياه للمقيمين فيها، وقد اهتمت الدولة، والأفراد الموسرون بوقف هـــذه السقايات بنوعيهـــا، فزودوها بالأواني والكيزان، كجزء من شرط وقفها وأشهرها:

- **سقاية جامع القصر.** أشـــار إليها ابن الجوزي فقال[٣] في حـــوادث سنة (٤٧٥هـــ/١٠٨٢م): "في شوال تكاملت عمارة جامع القصر المتصل بدار الخلافة... وقد كان فخر الدولة[٤] عمل فيه سقاية فانتفع الناس بذلك مـــنفعة عظـــيمة". وقد استمرت هذه السقاية تـــؤدى عملها حتى فترة البحث، فشاهدها ابن جبير، ووصفها قائلاً[٥]: جامع الخليفة متصل بداره وهو جامع كبير، وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة".
- **وسقاية الراضي.** يظهر أن هـــذه السقاية منسوبـــة إلى الخليفة الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـــ/٩٣٤ -٩٤٠م). وهي في جامع عشائر، في الجانب الغربـــي مـــن بغداد، وقد أشير إليها في حوادث غرق بغداد سنة (٥٦٩

---

(١) رؤوف، مشاريع مياه الشرب، ص١٧٧ .

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ح٩، ص ٢٨٩؛ الرحيم، الخدمات العامة، ص١٣٣ .

(٣) المنتظم، ج٩، ص٣ .

(٤) هو فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير، ولي الوزارة للخليفة القائم بأمر الله ثم للخليفة المقتدي. ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٣ .

(٥) الرحلة، ص١٨٣ .

هـــ/١١٧٣م) بأنهــا كانـــت ملجأ لمرضى البيمارستان العضدي، فقد اضـــطر مشـــرفه إلى أن يبعثهم إلى سقاية الراضي، بعد أن طغت مياه الفيضان عليه في تلك السنة(١). وهناك إشارة إلى هذه السقاية جاءت في تـــرجمة الشـــيخ عـــبدالله الرومي سنة (٦٠٦هـ/١٢٠٩م) "شيخ زاهد، عابد، منقطع في سقاية الراضي بالله بجامع المنصور"(٢).

- **وســـقاية دار الخلافـــة.** تنســـب إلـــى الســـيدة بنفشـــه زوجة الخليفة المستضـــيء، وكانـــت تؤخذ مياهها بطريقة فريدة لم يرد ما يشبهها في تميـــزها عـــن السقايات المختلفة، وصفها ابن الساعي(٣): "وبجوار هذه الـــدار أربعة دواليب تستقي الماء من دجلة إلى دار الخلافة المعظمة ، كـــل واحـــد منها أعلى من الآخر ، فيأخذ الأول من دجلة، والثاني من الأول، والثالث من الثاني، والرابع من الثالث" .

وأنشـــأ الخلـــيفة المستنصر **سقاية أحمد بن حنبل** سنة (٦٣٤هـ(٤)/١٢٣٦م) لأجل الزوار والواردين إلى هذه التربة من الزهاد والمتعبدين(٥).

- **وســـقاية مســـجد عشائر**، أشار إليها صاحب الحوادث عند حديثه عن غـــرق المســـجد بعد فيضانات سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) قائلاً(٦) "كان به حجرة ورواق وسقاية".

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٤٥.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٨٩ .

(٣) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١١٣.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣١٧.

(٥) مجهول، الحوادث، ص٩٠ -١.

(٦) ص ٢٣٠؛ الرجيم، الخدمات، ص١٣٩ .

ب – الطرق والمواصـــلات

موضوع الخدمات العامة في المدينة الإسلامية يعتبر من المواضيع الجديدة في الدراسات التاريخية. ويعود السبب في تأخر هذه الدراسات إلى صعوبة الموضوع؛ لندرة ما تورد المصادر معلومات حولها. ويكون الموضوع أصعب عندما أُدرجه الطرق والمواصلات، والبرية منها بالذات. فلم نجد أي معلومات إلا ما أدرجه ياقوت الحموي[١] حول الطرق البرية التي تربط محلات بغداد بعضها مع بعض أثناء فترة الدراسة.

يبدأ طريق عام من آخر سوق الثلاثاء متجهاً نحو سور دار الخلافة حتى إذا ما وصل إلى جوار باب بدر على سور الحريم، اخترق سوق الريحانيين، وانعطف من هناك متجها نحو رحبة جامع القصر الكبير، وشرق الجامع يتشعب إلى طريقين هما:

الأول: يسير نحو الشمال باتجاه باب إبرز، ويتشعب من يمينه قبل أن يصل مقبرة باب إبرز شارع فرعي يؤدى إلى المحلات الواقعة داخل السور بين باب الظفرية[٢] وباب الحلبة، أهمها قراح القاضي وقراح أبي الشحم[٣] ومحلة القبيبات.

---

(١) اعتمدنا في هذا الوصف لشوارع بغداد على ما أورده ياقوت الحموي في معجم البلدان، ج٤، ص١٥٥–٦؛ جواد وسوسه، دليل خارطة بغداد، ص١٧٥–٧ .

(٢) باب الظفرية: محلة بشرقي بغداد، والى جانبها محلة أخرى يقال لها قراح ظفر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٦١ .

(٣) وفي بغداد عدة محال يقال لكل واحدة منها قراح. إلا أنها تضاف إلى رجل تعرف باسمه وهى متقاربة، ومنها قراح ابن رزيق وقراح أبي الشحم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص٣١٥.

أما الثاني: فيتجه إلى الجنوب نحو باب البصلية[1] (أي باب كلواذا الذي يمر منه الطريق إلى كلواذا). فكان هذا الشارع يترك دار الخلافة والمحلات المجاورة لها إلى يمينه، حتى إذا ما وصل إلى المأمونية تشعب من يساره طريق يتجه إلى باب الحلبة، ثم يسير نحو الجنوب تاركا مشهد الشيخ عبد القادر إلى يساره ومحلة الريان[2] إلى يمينه بعد أن يخترق محلة باب الأزج، ثم يخرج من باب البصلية متجها نحو قرية كلواذا الواقعة في الجنوب الغربي.

وأمـــا الطرق في الجانب الغربي من بغداد فلم نجد لها أية إشارة في المصادر المتوفرة.

حرصت الدولة على توفير عدد من الجسور في بغداد، لتسهيل حركة المرور والـــنقل بين الجانبين الشرقي والغربي، ولم تنتظم هذه في عددها فمرة تزيد ومرة تـــنقص، تـــبعا للظـــروف العامة للدولة، حتى بلغت ثلاثة جسور عامة في بعض الفترات[3].

كـــان علـــى نهر دجلة في أواخر العصر البويهي جسران: أحدهما عند باب الطاق في الرصافة، والآخر معقودا بين مشرعة العطارين بالجانب الغربي وسوق الـــثلاثاء بالجانب الشرقي، ثم حوّل جسر باب الطاق هذا سنة (٤٤٨هـــ/١٠٥٦م) فعقـــد بـــين مشـــرعة الـــروايا من الجانب الغربي ومشرعة الحطابين من الجانب الشرقي، وقد عطل هذا الجســـر في سنة (٤٥٠هـــ/١٠٥٨م) بسبب الحروب التي

---

(١) باب البصلية: محلة في طرف بغداد الجنوبي من الجانب الشرقي، متصلة بباب كلواذا. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٤٢ .

(٢) الريان: محلة مشهور بالجانب الشرقي من بغداد بين محلات: باب الأزج وباب الحلبة والمأمونية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١١١.

(٣) الرحيم، الخدمات العامة، ص٢٧١ .

نشبت بين العباسيين والبساسيري[1] واقتصر على جسر بمشرعة القطانين عند سوق الثلاثاء[2]. وكان ذلك في زمن المسترشد (٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥م) ثم أعيد نقله إلى بـاب القرية سنة (٥٣٠هـ/١١٣٦م) .

وفي خلافة المستضيء (٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧١-١١٧٩م) أنشأت زوجته السيدة بنفشة جسراً جديداً[3]، جعلته تحت الرقة مكان الجسر العتيق، وحمل الجسر العتيق إلى نهر عيسى[4]، وكتبت أسمها على حديدة علقت بسلسلة فيه[5].

استمر وجود جسرين في بغداد حتى سنة (٥٨٠هـ/١١٨٠م). والظاهر أنه في هذه السنة قلعت مياه دجلة الجسر العتيق الذي نقل إلى القرية. قال ابن جبير في حال الجسر وزواله: "فأكبرها القرية، وهي التي نزلنا فيها بربض يعرف بالمربعة على شط دجلة بقرب الجسر، فحملته دجلة بمدها السيلي، فعاد الناس يعبرونها

---

(١) هو أبو الحارث أرسلان بن عبدالله البسا سيرى. كان في بداية حياته مولى لأبي على بن أحمد الفارسي، ثم انتقلت به الأحوال حتى ملكه الأمير البويهي بها الدولة، ومن ثم أخذ في الترقي في سلك الجندية حتى صار من كبار قواد الأتراك ببغداد. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٦٥٠ .

(٢) جواد وسوسه، دليل خارطة بغداد، ص١٩١ .

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٥٠؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٨٩؛ ونساء الخلفاء، ص١١٢؛ الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٧٩ .

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٥٠؛ مجهول، مناقب، ص٢٠؛ العلي، المواصلات والجسور في بغداد، ص٣٣٣

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٥٠؛ ناجي معروف، زوارق بغداد، ص٨ .

بالزوارق"[١]، فبقي في بغداد بعد زوال هذا الجسر جسر واحـــد هو جسر السيدة بنفشة، وقد استمر الحال على ذلك حتى خلافة الظاهر[٢].

وقد ذهبت الدكتورة ناجية عبدالله[٣] إلى أنه لم يكن في بغداد سوى جسر واحد حتـــى خلافة الظاهر "فحتى تولى الظاهر بأمر الله الخلافة سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) ولمائتي سنة خلت، كان فيها جسر واحد على دجلة يربط جانبيها الشرقي والغربي، وعـــندما تولـــى الظاهـــر عقد لها جسرا ثانيا". إن هذا الرأي لا يتفق مع الروايات التاريخية السابقة. ونضيف إلى ذلك ما قاله ابن جبير في وصف حال جسور بغداد بعـــد غـــرق الجسر العتيق "والعادة أن يكون لها جسران. إحداهما مما يقرب دور الخليفة والآخر فوقه لكثرة الناس"[٤].

كمـــا أشـــرنا أنه في سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) أخذ المد السيلي الجسر العتيق المنصـــوب عـــند بـــاب القرية، فبقيت بغداد على هذا الحال إلى أن تولى الخلافة الظاهـــر (٦٢٢-٦٢٣هـــ/١٢٢٥١٢٢٦م) فقـــام بإنشاء جسر جديد[٥] عند سوق السلطان بالجانب الشرقي[٦].

---

(١) الرحلة، ص١٧٩ .

(٢) جواد وسوسه، دليل خارطة بغداد، ص١٩٢ .

(٣) ناجية عبدالله، ريف بغداد، ص٣٣٢.

(٤) الرحلة، ص١٨٠ .

(٥) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٥؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٩ .

(٦) جواد وسوسة، دليل خارطة بغداد، ص١٩٢.

خلـد الشـعراء هذه المناسبة بقصائد شعرية باعتبارها من المناسبات الخيرية العامة، فقال الشاعر موفق الدين بن أبي حديدة [١] كاتب ديوان الإنشاء:

إمــام يحــرم ذل الســؤال   ويعمــل بالكــرم الــواجب
أمــام طــريقاً علــى دجلة   لــذي القصــد منه وللذاهب
فعارض جسراً على جانب   بجســر جديــد علــى جانب
كســطرين في كاغد أبيض   أجادهمـــا قلـــم كاتـــب
كمخنقتـــي عنبـــر ضـــمتنا   بـــياض التـــرائب من كاعب
كصــفين مــن إبل أصبحا   وقــوفا علــى جدد لا حب[٢]

ثمــة ظاهــرة أخــرى تــتعلق بالجسور وذات صلة بها، وبرزت فيها جهود مشــتركة للدولة والأفراد وهي بناء القناطر[٣]. وكانت القناطر منتشرة بشكل كبير فــي بغداد ونواحيها؛ ذلك لكثرة الأنهار والقنوات المتفرعة من الفرات "ومن جملة الدواعــي لافتراقهم كثرة القناطر المعترضة في طريقهم إلى بغداد، فلا تكاد تمشي مــيلاً إلا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات[٤]. ذكر ابن الساعي أن السيدة

---

(١) هو أبو المعالي القاسم بن هبة الله بن محمد بن أبي جديدة، كان غزير العلم متقنا العربية والفقه والأصول والحكمة، سافر إلى الشام ثم عاد ودرس بالنظامية، وجعله ابن العلقمي كاتب الإنشاء بالديوان إلى أن توفي سنة ٦٥٦ هـ. مجهول، الحوادث، ص٣٣٦؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٦٤١

(٢) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٩.

(٣) القناطر: عبارة عن جسور صغيرة تشيد فوق الأنهر. معروف، زوارق بغداد، ص٩ .

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص١٧١

بنفشـــة: "بنت قنطرة على نهر عيسى[١] ". وانشأ الخليفة المستنصر قنطرة حـــربي على نهر دجيل سنة (٦٢٩هـ[٢]/١٣٣١م).

بالإضـــافة إلى استخدام الجسور والقناطر استخدم أهل بغداد الزوارق، للتنقل بـــين شـــطري بغداد عبر دجلة أشار إلى ذلك ابن جبير والزوارق فيها لا تحصى كثرة، فالناس ليلا ونهاراً من تمادى العبور فيها نزهة متصلة"[٣].

ولعـــل الســـبب في زيادة الاعتماد على الزوارق في هذه الفترة ناجم عن قلة الجســـور والتي لا تكفي لاستيعاب حركة التنقل بين شطري المدينة، فأدى ذلك إلى أن أصـــبحت الســـفن والزوارق مظهرا من المظاهر الحضارية ببغداد، لان الناس كانـــوا يستعملونها للعبور ونقل الأمتعة بين الجانبين، وللنزهة ليلا ونهارا، هذا إلى كونها صناعة متقنة كانت تنتجها بغداد[٤].

ج – الجوامع والمساجـــــد

كـــان المســـجد أحد أهم المنشآت العمرانية في المدينة الإسلامية، فكان لأحاديث رســـول الله (صـــلى الله علـــيه وسلم) المتصلة بالمساجد التي تقام فيها الصلوات الجامعـــة، والتـــي تخلص إلى عدم إقامة الصلوات الجامعة إلا في "مصر جامع أو مديـــنة عظيمة" أثر كبير في عدم إقامة أكثر من جامع في المدينة الواحدة، تقام فيه الصـــلوات الجامعـــة، ويسمح فقط بإقامة المساجد التي تقام فيها الصلوات الخمس. ولكـــن مـــع امـــتداد عمران المدينة الإسلامية، وكثافة سكانها بمرور الزمن، باتت

---

(١) نساء الخلفاء، ص١١٢ .

(٢) ابن الطقطقا، الفخري، جواد وسوسة، دليل خارطة بغداد، ص١٨٣- ٤ .

(٣) الرحلة، ص١٨٠؛ ناجي معروف، زوارق بغداد، ص٨ .

(٤) المرجع نفسه، ص ٩ .

الحاجة ملحة إلى عدد من المساجد الجامعة، واستناداً إلى فتوى الفقهاء بجواز تعدد الخطبة للحاجة، وصحة صلاة الجمعة بعدد من المصلين يصل إلى أربعين، بدأت ظاهرة تعدد المساجد الجامعة بالمدينة الإسلامية بالانتشار(١).

كان في بغداد في هذه الفترة عدة جوامع تقام فيها الصلاة الجامعة، منها ثلاثة في الجانب الشرقي وهي أشهرها، والباقي في الجانب الغربي(٢). ويعد جامع المنصور أشهرها. أسسه الخليفة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) كما يبدو من تسميته. ويقع بالجانب الغربي من بغداد بجوار قصره المعروف بقصر باب الذهب(٣). وفي غرق بغداد سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) نقل المرضى في البيمارستان العضدي إلى سقاية الراضي في جامع المنصور، حيث سكنوا فيها بعد أن طغت مياه دجلة على البيمارستان المذكور(٤). وقد بقي هذا الجامع قائماً حتى غرق سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) بفيضان دجلة تلك السنة، وسقطت بجواره القبة الخضراء في قصر دار الذهب(٥).

وجامع الرصافة الذي شيده الخليفة المهدي سنة (١٤٣هـ/٧٦٠م)(٦) في الجانب الشرقي من بغداد. زاره ابن جبير ووصفه قائلاً(٧) "وهو على الجانب الشرقي المذكور، وبينه وبين جامع السلطان نحو ميل". يقع في محلة المخرم(٨)، أنشأه

(١) الحصني، كفاية الأخيار، ج١، ص١٢٠ .

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٣ .

(٣) الخطيب، تاريخ بغداد، ج١، ص١٠٨؛ جواد وسوسه، دليل خارطة بغداد، ص٥٧.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٤٩ .

(٥) مجهول، الحوادث، ص٣٠٣؛ جواد وسوسه، مدينة المنصور وجامعها، ص١٢.

(٦) الخطيب، تاريخ بغداد، ج١، ص١١٨؛ مجهول، مناقب، ح٢١ .

(٧) الرحلة، ص١٨٣ .

(٨) محلة بين الرصافة ونهر المعلى. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٧١ .

السلطان السلجوقي ملك شاه سنة (٤٨٥هـ[١]/١٠٩٢م) وتمت عمارته على يد بهروز الخادم في سنه (٥٢٤هـ/١١٣٠م).

وجامع القصر الذي أنشأه الخليفة المكتفي بالله في بداية حكمة (٢٨٩-٢٩٥[٢]هـ/٩٠٤ - ٩٠٨م) ثم تولاه بالإصلاح والتوسيع الخلفاء من بعده، لاتصاله بدار الخلافة العباسية، ووقوعه في قلب بغداد[٣]. وصفه ابن جبير بقوله: "جامع الخليفة متصل بداره، وهو جامع كبير، وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة، ومرافق الوضوء والطهور"[٤].

وبجوار قصر عيسى[٥] يقوم جامع فخر الدولة بن المطلب، على شاطئ دجلة. وكان الخليفة المستضيء قد أذن في سنة (٥٧١هـ/١١٧٥م) بإقامة الجمعة فيه بعد أن استفتى الفقهاء، فأجاز بعضهم ذلك. غير أنه في سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م) عاد ومنع إقامة الجمعة فيه[٦]. فلما ولي الخليفة الناصر سئل في ذلك، فأجاب، فصلّى فيه في أواخر ذي الحجة منه (٥٧٥هـ[٧]/١١٧٩م).

---

(١) الخطيب، تاريخ، ج١، ص١٠٨؛ جواد وسوسة، دليل خارطة بغداد، ص١٠٧ .

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٣٣؛ جواد وسوسة، دليل خارطة بغداد، ص١٢٤ .

(٣) الرحيم، الخدمات العامة، ص١٣٤.

(٤) الرحلة، ص١٨٣ .

(٥) قصر عيسى محلة كبيرة بالجانب الغربي، فيها القصر المنسوب إلى عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٧١

(٦) مجهول، مناقب، ص٢٣ .

(٧) المصدر نفسه، ص٢٣ .

وفـــي العقبة[1] انشأ عمر بن علي بن أحمد بن بهليقا الطحان(ت٥٦٠هـ[2]/ ١١٦٤م) مسجداً، أورد ابن الجوزي معلومات موسوعة عنه حيث قال[3]: "أن عمر بن بهليقا عمرّ جامع العقبة بالجانب الغربي، وكان مسجداً لطيفاً، فاشترى ما حوله ووسعه، وسمت همته حتى أستأذن أن يجعله جامعاً فأذن له. " أقيمت فيه أول صلاة جمعـــة في شعبان سنة (٥٣٨هـ[4]/١١٤٣م). ويدل هذا على أن الجامع أنشئ قبل هذا التاريخ، غير أن المصادر لم تذكر سنة بنائه.

وتـــرد في المصادر أسماء عدد آخر من الجوامع التي أقيمت فيها صلاة الجمعة، ولكن لم يتوفر لدينا معلومات حولها ومنها: جـــامـــع بـــدار القز[5]. أنشئ في سنة (٥٣٠هـــــ/١١٥١م) وجامع العتابيين أذن في صلاة الجمعة فيه المستنجد بالله في شـــــوال مـــن (٥٥٦هـ[6]/١١٦٠م) ومسجد التوثة[7]، أذن في صلاة الجمعة فيه

---

(١) العقبة: تقع في جانب الجنوبي وراء نهر عيسى، قريبة من مصبه. الخطيب، تاريخ بغداد، ج ٨، ص٦٨٣.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢١٢، مجهول، مناقب، ص٢٣؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٩٥ .

(٣) المنتظم، ج١٠، ص٢١٢؛ العلي، بغداد مدينة السلام (الجانب الغربي)، ص٩٦ .

(٤) ابن الجوزي، المنتظـم، ج١٠، ص١٠٨؛ مجهول، مناقب، ص٢٣ .

(٥) دار القز: محلة كبيرة من محال بغداد في الجانب الغربي. العلي، بغداد، ص١٦١

(٦) مجهول، مناقب، ص٢٣ .

(٧) المصدر نفسه والصفحة .

المستضـــيء بأمر الله في رمضان سنة (٥٦٩هـ[١]/١١٧٣م). ومسجد دار الرقيق أذن فيه لصلاة الجمعة في ذي القعدة سنة (٥٧٢هـ[٢]/١١٧٦م).

أما بالنسبة للمساجد التي كانت مخصصة لأداء الصلوات الخمس فقد وصفها ابـــن جبير قائلا:[٣] "وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلاً عن الإحصاء". ولكن وردت معلومات عن عدد منها ولعل السبب في ذلك أنها كانت من عمل الخلفاء والأمراء والأعيان ومنها:

مســـجد السيدة بنفشة. أوعزت السيدة بنفشة زوجة المستضيء بأمر الله بإنشاء مســـجد كبر بسوق الخبازين من سوق الثلاثاء عند عقد الحديد ببغداد "فعمر عمارة فائقة، وجرى افتتاحه سنة (٥٧٣هـ[٤]/١١٧٧م). وقد عرف هذا المسجد باسمها.

وأمرت السيدة زمرد خاتون والدة الناصر بإنشاء مسجد، عرف باسمها، وعرف بمســـجد الحظائـــر نسبة إلى محلة الحظائر القديمة المجاورة له، وهي المحلة التي كانت تقع فيها المدرسة النظامية. لم نجد في المصادر سنة بناء هذا المسجد. ولكن يمكن الجزم بأنه قبل عام ٥٩٩هـــ، لأن السيدة التي شيدته توفيت في هذه السنة[٥].

---

(١) التوثة: محلة في غربي بغداد متصلة بالشونيزية مقابلة لقنطرة الشوك، ياقوت الحموي، معجم

البلدان، ج٢، ص٥٦ .

(٢) مجهول، مناقب، ص٢٣ .

(٣) الرحلة، ص١٨٣ .

(٤) الرحلة، ص١٨٣ .

(٥) إبراهيم، الجهود العلمية للمرأة، ص١٧٦.

ومسجد قمرية يقع بالجانب الغربي على شاطئ دجلة مقابل لرباط البسطامي(١). تم افتتاحه في رمضان سنة (٦٢٦هـ(٢)/١٢٢٨م). ونقل إليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع(٣). والظاهر أن الخليفة المستنصر أراد ببنائه أن يكون داراً للعلم والحديث فضلا عن دوره في العبادة، حيث رتب فيه المحدِّثين والطلاب لتعلم القرآن والحديث(٤). وبلغت تكاليف إنشائه أكثر من ثمانية عشر ألف دينار(٥).

د - البيمارستانات

البيمارستان أو المارستان لفظتان أطلقتا على المستشفيات بمفهومها العصري. وهي إحدى المؤسسات الخيرية العامة التي شيدها الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء وغيرهم من الموسرين، صدقة وحسبة وخدمة للإنسانية وتخليدا لذكرهم(٦). ومن الملاحظ خلال فترة الدراسة قلة هذه المؤسسات الصحية في بغداد فلم نجد سوى ثلاث منها. ولعل ذلك يعود إلى اعتبار تأسيسها من المسائل الدنيوية التي لم تكن للدولة فيها مسؤولية، مما جعل وجودها يعتمد بصورة رئيسة على الرغبة الشخصية لأولي الأمر أو غيرهم من سائر الأفراد(٧).

---

(١) ينسب هذا الرباط لأبي الحسن علي البسطامي (ت ٤٩٣). ويقع على شاطئ دجلة في الجانب الغربي. ابن الجوزي، المنتظم، جـ٩، ص١١٠٦.

(٢) مجهول، الحوادث، ص١ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٥) البصري، المناقب العباسية، مخ، ورقه ١٤٦ب.

(٦) عيسى بك، تاريخ البيمارستان، ص٤ .

(٧) الرحيم، الخدمات العامة، ص٢٩٥ .

ينسب البيمارستان العضدي إلى عضد الدولة البويهي. تم إنشاؤه في سنة (٣٧١ هـ[١]/٩٨١م). ويقع في الجانب الغربي من بغداد. أشار الإربلي إلى جملة أعمال عضد الدولة قائلاً: [٢] "ومن آثاره، البيمارستان العضدي بالجانب الغربي من بغداد في خراب دار حمدان".

وصف الرحالة التطيلي البيمارستان قائلاً:[٣] "يقوم المارستان العضدي في الجانب الغربي من مدينة بغداد بين دجلة ونهر آخر يأتي من الفرات، وهو مجموعة من البنايات الواسعة، يأوي إليه المعوزون من المرضى رغبة في الشفاء. ولهذا المارستان قوامون من الأطباء يبلغ عددهم الستين طبيباً، يعالجون المرضى، ويطبخون الأدوية، والخليفة يجهزهم بما يحتاجون إليه من المال".

استمر هذا البيمارستان يؤدي وظيفته، ومحتفظاً بمكانته الطبية طيلة فترة الدراسة (٥٧٥-٦٥٦هـ/١١٧٩-١٢٥٨م). زاره ابن جبير سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) أثناء إقامته ببغداد، وقدم له وصفاً جيداً قائلاً:[٤] "وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء".

كان المرضى الذين بحاجة إلى الإقامة بالبيمارستان يوزعون على القاعات حسب أمراضهم، ولكل قسم من تلك القاعات طبيب أو أكثر، حسب الحاجة وعدد المرضى[٥].

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٦؛ ابن العبري، مختصر، ص١٧٢

(٢) خلاصة، ص٢٦٠.

(٣) الرحلة، ص١٣٤ .

(٤) الرحلة، ص١٨٠ .

(٥) عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص٣٢ .

وقــد وضـــع للبيمارستان برنامج زمني يقوم الأطباء بالإشراف على المرضى، وتفقــد أحــوالهم، وكــان الإشراف في هذه الفترة يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع[1].

. أشــار التطيلي إلى أن البيمارستان ضم قسماً خاصاً بالمجانين، يقوم الأطباء بــتفقدهم مــرة كل شهر، فيسمحون بالخروج لمن عاد إلى صوابه[2]. ونجد إشارة أخرى إلى هذا القسم عندما نقل عبد الله بن إسماعيل الواعظ بعد أن أُحضر إلى دار الوزارة، وضرب مائة عصاً، وقطع لسانه، حمل بعدها إلى البيمارستان العضدي، وحــبس فـــي حجــرة المجانين[3]. كما وضع فيها عبيد الله بن علي بن نصر بن المارســتانية، بعد أن كان يتولى أوقاف البيمارستان العضدي، ولكنه أساء السيرة، وبقـــي فـــيه مـــدة، ثم أطلق سراحه، فاخذ يطبب الناس، ويدور على المرضى في منازلهم حتى توفي سنة (٥٩٩هـ[4]/١٢٠٢م).

. يتضح أن هذا القسم لم يكن مجرد مكان خدمة المرضى، بل استغل في بعض الأحيان لمعاقبة من يحاول المساس بهيبة الدولة أو التعرض لها بسوء، حتى مجرد كلام في مجلس وعظ، أو من حاول استغلال منصبه لتحقيق أغراض شخصية.

ومن الأقسام الخدمية التي كان يحويها البيمارستان، قسم خاص لطبخ الأدوية وتحضيرها تحت إشراف الأطباء[5]. وقد عُنى الخليفة الناصر بهذا البيمارستان، فبعد وفاة والدته السيدة زمرد خاتون سنة (٥٨٩هـ/١١٩٢م) أمر أن يحمل ما في

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٠ .

(٢) رحلة بنيامين، ص١٣٥ .

(٣) مجهول، الحوادث، ص١٤.

(٤) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ص٩٧.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٠.

خزانتها من الأشربة والمعاجين والعقاقير إلى البيمارستان العضدي "وكان يساوى ألوفاً"[١].

وكان في المارستان أشخاص قائمون على خدمة المرضى، فعند ترجمته لعثمان الحكيم[٢] قال ابن النجار[٣]: "أنه كان خادما للمرضى في المارستان العضدي".

وكان يتبع له مقبرة خاصة، يدفن فيها من مات فيه، وخاصة أولئك المرضى الذين يأتونه من خارج بغداد، وليس لهم أهل فيها. فلما توفي عبد الملك بن ابي القاسم المؤذن المعروف بالقشوري (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) دفن بمقبرة البيمارستان العضدي[٤].

تمتعت البيمارستانات بالأوقاف الغزيرة، والتي اسهمت في تلبية حاجات المرضى الراقدين فيها من الغذاء والدواء، فضلاً عن تغطية نفقات العاملين فيها، فنجحت في تحقيق أهدافها العامة. ولأهمية هذه الأوقاف فقد اسندت مهمة النظر فيها مضافة إلى الإشراف على البيمارستان[٥]. وممن تولي نظارة أوقاف البيمارستان العضدي الشيخ عبد السلام الجيلاني سنة (٥٩٨هـ/١٢٠١م) عوضاً عن تاج الدين أبو سعيد حمدون[٦]. وتولاها عبيد الله بن علي بن نصرة المعروف

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥١٤، أبو شامة، الذيل، ص٣٣.

(٢) هو عثمان بن الحسية بن محمد الحكيم توفي سنة ٥٩٦هـ. ابن النجار، ذيل، ج٢، ص٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص١٢٦.

(٥) ابن الدبيثي، ذيل، تاريخ بغداد، مخ، ج٣، ورقة ١١١ب.

(٦) المصدر نفسه، ج٣، ورقة ٢٧.

بابن المارستانية (ت٥٩٩هـ[١]/١٢٠٢م). وعبد المنعم الاسكندراني شيخ رباط العميد[٢].

استمر البيمارستان العضدي في تقديم خدماته للناس، إلى أن كانت نهايته عند دخول هولاكو بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨) حيث اتخذ بعض قواده محلة البيمارستان قاعدة لهجومه. ولا ريب أن هذا الهجوم كان له أثر في خرابه. اشار ابن بطوطة إلى أثار البيمارستان قائلاً[٣]: "وهو قصر خرب كبير بقيت منه الآثار".

كما استمر البيمارستان التتشي الذي اسسه خمارتكين الخادم (ت٥٠٨هـ/١١١٤م) بباب الأزج في تأدية مهمته الطبية حتى هذه الفترة، فقد شاهده ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ووصفه بقوله[٤]: "وبيمارستان بباب الأزج يقال له التتشي، منسوب إلى خادم تتش "ابن ألب أرسلان، وجميع ما ذكرته في بغداد موجود معمور الآن، جاء على أحسن نظام عليه الوكلاء، يجبون امواله ويصرفونها في وجوهها".

ويؤكد ما ذكره ياقوت من استمرارية البيمارستان التتشي، ما رواه ابن الكازروني عند ترجمته لمحمد بن احمد الصوفي "توفي يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الآخر سنة سبع وستمائة بالمارستان التتشي"[٥].

وأنشأ الخليفة المستنصر بالله إيوان الطب ضمن حرم المدرسة المستنصرية سنة (٦٣٣هـ[٦]/١٢٣٥م). وامر بأن يعمر في صدر حائط الإيوان ساعات تعمل

---

(١) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ص٩٧.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤٥.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٢٤٣.

(٤) معجم البلدان، ج٢، ص١٤٦.

(٥) ابن الكازروني، مختصر، ص٢٦٠.

(٦) ابن الكازوني، مختصر، ص٢٦٠، مجهول الحوادث، ص٨٢.

بالليل والنهار يستضاء بها في جميع اوقات الصلوات[١]. وشرط أن يكون به جماعة من المشتغلين بالطب، يرأسهم شيخ يرجعون إليه، يداوي الفقراء. وجعل للجميع ممن يعملون فيه الجرايات والرواتب حتى الطبيخ والصابون. كما شرط الواقف أن يوفر مجاناً كل ما يحتاجه المرضى من الأدوية والأطعمة.

من هذا نرى ان الإيوان بالإضافة إلى مهمته التعليمية، كان يقدم خدمات المعالجةِ للمقيمين بالمدرسة المستنصرية من مدرسين وطلاب وقَوَمة وخدم. واقتصار مهمة المعالجة علىالمقيمين بالمدرسة المستنصرية لا يقلل من شأنه إذا علمنا أن عدد المنتسبين لهذه المدرسة يقرب من خمسمائة شخص[٢].

هـ - الحمامات

كانت الحاجة إلى الحمامات في المدينة الإسلامية مرتبطة بدعوة الإسلام للنظافة والتطهر، وبعدم قدرة العامة جميعاً على تضمين منازلهم حمامات خاصة، وبرغبة القادرين على إنشاء هذه الحمامات في إستثمار أموالهم في إنشائها لما تدره من ريع وخير لشدة الطلب عليها، لذلك ظهر الحمام مبكراً بين خطط المدينة الإسلامية.

تقسم الحمامات من حيث الاستعمال إلى نوعين:

الحمامات الخاصة، وهي التي يمتلكها الوزراء والأمراء والقادة والتجار والأشراف في دورهم[٣]. وتحتوي هذه الحمامات على وسائل الراحة علاوة على حسن تنظيمها، مما دفع الشعراء إلى وصفها في شعرهم. فقد دخل الشاعر ابن التعاويذي

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٨٢.

(٢) الرحيم، الخدمات العامة، ص١٥٩.

(٣) ديوانه، رسوم، ص٢١، ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٣.

حماماً بدار عز الدين ابي منصور بن رئيس الرؤساء فقال في ذلك الحمام(١):

حـمـام دارك جـنـة لـنزيله ... ما شئت فيه من النعيم ميسر
فبجوده تتدفـق الأمـواه في ... أرجـائـه وببأسـه يستشعر

لم تكن متعة الحمام وحدها هي التي جعلته يظهر في القصور والدور الخاصة، ولكنه أيضاً الرغبة في الانفصال الاجتماعي عن الأمكنة التي يرتادها العامة(٢). غالبا ما شملت هدية الناصر لحاشيته وخاصته على حمامات خاصة بها. فلما بني الخليفة الناصر داراً للشيخ أبي حفص عمر السهروردي، أنشأ إلى جوارها حماماً(٣).

انتشرت الحمامات العامة في بغداد شأنها شأن جميع مدن العالم الإسلامي، وقد روي عن بغداد أنها كانت كثيرة الحمامات، فيما ذكرت بعض هذه الروايات أرقاماً كبيرة بحيث أنها بلغت الآلاف حتى منتصف القرن الرابع الهجري(٤)، ثم تناقص عددها حتى وصلت في رواية إلى مائة وسبعين حماما سنة (٤٢٠هـ(٥)/١٠٢٩م).

وفي فترة البحث زار ابن جبير بغداد، ووصف حماماتها قائلاً(٦): "فأما الجانب الغربي فقد عمه الخراب، واستولى عليه، وكان المعمور أولاً، وعمارة الجانب الشرقي محدثة، لكنه مع استيلاء الخراب عليه، يحتوي على سبع عشرة محلة، كل محلة مدينة مستقلة، وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثة والثمانية". ثم

---

(١) ديوانه، ص١٢٩.
(٢) شاكر مصطفى، مدة الأسلام، ج٢، ص٦٦١.
(٣) مجهول، الحوادث، ص٧٤.
(٤) أحمد بن محمد بن الفقيه الهمذاني، بغداد مدينة السلام، ص٩١.
(٥) مجهول، مناقب، ص٢٤.
(٦) الرحلة، ص١٧٩.

يحدد ابن جبير عددها بنحو ألفي حمام "وذكر لنا أشياخ البلد أنها كانت بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام"(١).

كانت الحمامات العامة على نوعين: حمامات للرجال وأخرى للنساء. وما ذهب إليه هبور (C.Havart) من أن النساء كن يغسلن في نفس حمامات الرجال في أيام معينة، "وأنه في الأيام التي يخصص فيها الحمام للنساء تعلق قطعة من القماش على الباب الخارجي"(٢). أن هذا -كما يقول الدكتور بدري محمد فهد- لا يتفق مع ما ذكرته المصادر، فقد جاء في حوادث سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٣م) على اثر دخول الجيش السلجوقي بغداد أن الجند صعدوا إلى شباك حمام نسوي للتطلع عليهن(٣). وذكر الشيزري(٤) أن من مجالات الالتقاء بين الرجال والنساء هي "أبواب حمامات النساء".

استخدم أهل بغداد القار لطلي الأجزاء السفلية من جدران الحمامات، وذلك لكثرته وتوفره في بغداد. حيث كان يجلب القار من عين بين البصرة والكوفة. "وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبها كالصلصال، فيجرف ويجلب وقد انعقد"(٥). اما الجانب العلوي من الجدران فكان يطلى بالجبص الأبيض الناصع(٦).

اشتمل الحمام على مدخل صغير يؤدي إلى ممر ينتهي إلى رحبة واسعة لخلع الملابس ووضعها على دكاك، وفي هذه الرحبة يوجد مكان خاص لقيِّم الحمام،

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: حمام.

(٣) ابن اجوزي، المنتظم، ج٨، ص٢٢٨.

(٤) نهاية الرتبة، ص٨٧.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٣، ابن سعيد، البيان، ص١٥٩.

(٦) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٢٤٣.

يراقب الناس خوفاً من السرقة، ويقبض الأجر من الخارجين بعد انتهاء الحمام[١]، وتتصل هذه الرحبة بالغرفة الأولى من الحمام وهي التي تسمى الحجرة الباردة، وهي مزودة بأحواض الماء والهواء الساخن المار عبر أنابيب فخارية بحوائط القاعة آتية من جهة الموقد[٢]. وهناك غرفة ثانية اكثر حرارة من الأولى، وأقل حرارة من الثالثة، ثم يدخل المستحم غرفة الحرارة، وهي غرفة مليئة بالبخار[٣]. ويلبس المستحمون في أرجلهم أحذية خشبية أو نعالاً عالية الكعوب، ليتفادوا لمس رخام أرض الغرفة الشديد الحرارة، ويظل المستحم في هذه الغرفة حتى يتصبب عرقاً[٤].

ولمنع دخول الهواء إلى الحمام -لما له من مضار على صحة المستحم- جعلت نوافذ زجاجية صغيرة، كما كان السقف على شكل قباب، فيها فتحات مغطاة بقطع الزجاج تسمح بدخول الضوء ومنع دخول الهواء[٥].

وخلف الحمام يوجد الموقد الذي يتم فيه تسخين الماء في قدور نحاسية كبيرة، ويمر الماء والبخار عبر أنابيب فخارية لوحدات الحمام، وغالباً ما يكون للموقد باب خلفي لتزويده بالوقود من حطب وزبل[٦].

ويقوم على خدمة الحمام عدة أشخاص هم: حمامي، وقيم، وزبال، لأن الوقود في الحمامات كان في الغالب من الزبل اليابس، ووقاد وسقاء[٧]. وهناك أشخاص

---

(١) ابن الأخوة، معالم القرابة، ص١٥٦، ابن بسام، نهاية الرتبة، ص٧٠.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٢٤٣، عبد الستار، المدينة الإسلامية، ص٢٤٧.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة حمام.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) الشيزري، نهاية الرتبة، ص٨٧؛ عبد الستار، المدينة الإسلامية، ص٢٤٧.

(٦) المرجع نفسه، ص٢٤٧.

(٧) فهد، العامة، ص٢٤، متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٢٥٥.

آخرون يخدمون في الحمام، ولكن عملهم مرتبط بالزوار وليس بخدمة الحمام، منهم: الحجام الذي تكون مهمته الرئيسة حجم المرضى، والمزين[١] الذي يتولى قص الشعر[٢].

وعلى صاحب كل حمام أن يوفر في حمامه ما يحتاج إليه الناس من المآزر التي يؤجرها للناس، والتي يجب أن تكون عريضة حتى تستر بين السرة والركبة[٣]، والمحاك التي يحك بها الناس ارجلهم[٤]، وورق السدر والصابون لغسل أجسامهم[٥]، والطاس الذي يغرق به الماء من الأحواض[٦]، كما عليه أن يوفر لهم مياه الشرب بوضع زير للماء العذب[٧].

بفضل في الحمامي أن يكون خشن اليدين بحيث يرفع الأوساخ عن جلد المستحم[٨]. وقد هجا سبط بن التعاويذي الشاعر حمامياً ناعم اليدين قائلاً[٩]:

قـيـم غـيـر قـيم خشنت مديته وهـو ناعم الكفين

بيد كالحرير لا يرفع الأوسـ ـاخ تـدليكها عن المنكبين

كانت الحمامات تفتح أبوابها من الصباح الباكر وتستمر مفتوحة حتى وقت الغروب. ويكره دخول الحمام عند الغروب "فأن ذلك وقت إنتشار الشياطين"[١].ولم

---

(١) ابن الأخوة، معالم القرابة، ص١٥٦؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص٧١.

(٢) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص٢٦٤.

(٣) ابن الأخوة، معالم القرابة، ص١٥٦.

(٤) فهد، العامة، ص١٨٤.

(٥) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣٦٨.

(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦٧.

(٧) ابن الأخوة، معالم القرابة، ص١٥٦.

(٨) المصدر نفسه، ص١٥٦.

(٩) ديوانه، ص٤٥٠.

تكن للحمامات عطلة، بل كانت أبوابها مفتوحة، إلا في حالات استثنائية، كوفاة الخليفة أو أحد ابناءه، فلما توفي علي ابن الخليفة الناصر سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م) عطلت الحمامات وأغلقت أبوابها"[٢].

والحمام بإعتباره إحدى المرافق العامة للمدينة كان تحت إشراف المحتسب، يراقب كل ما يؤدي إلى الضرر بالصحة العامة، كمنع غسل الأواني أو الأزر أو الكأس في الحوض، ويمنع أن تكون أرضه مبلطة بحجارة ملساء مزلقة، لكي لا يؤدي إلى زلق المستحمين[٣].

ويأمر المحتسب صاحب الحمام ان يغسل الحمام ويكنسه وينظفه بالماء الطاهر، ويجب فعل ذلك مراراً، وأن يدلك البلاط بالأشياء الخشنة، لئلا يعلق بها شيء من الأوساخ[٤]. ولم يقتصر عمل المحتسب على ذلك بل كان يتفقد يدي الحمامي التي يجب أن تكون خشنة فتُخرج الأوساخ، ويراقب المُزين من حيث جودة حلاقته، وأن يكون بصيراً بالحلاقة، وأن تكون أمواسه جديدة قاطعة[٥].

هذه الحمامات شانها كجميع المؤسسات الخدمية لا ترتبط بعمر جيل، بل هي مستمرة طالما تم الحفاظ عليها ورعايتها وصيانتها كلما احتاجت إلى ذلك.

إن ما أورده ابن بطوطة في وصف حالة الحمامات في بغداد بعد سقوطها من حيث حسن العمارة، والتنظيم وطرق الوقاية وهي في عهد التدهور الحضاري دليل على ذلك، فكيف بحال تلك الحمامات في أوقات الازدهار الحضاري، حيث قال

---

(١) ابن الأخوة، معالم القرابة، ص١٥٥.

(٢) سبط الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٧٣، أبو شامة، الذيل، ص٩٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢١٣.

(٣) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣٦٨، فهد العامة، ص١٨٨.

(٤) الغزالي، غحياء علوم الدين، ص٢، ص٣٦٨، ابن الأخوة، معالم القرابة، ص١٥٥.

(٥) المصدر نفسه، ص١٥٦، ابن بسام، نهاية الرتبة، ص٧٠.

"حمامات بغداد كثيرة وهي من أبدع الحمامات وأكثرها، مطلية مسطحة به، فيخيل لرائيه أنه رخام أسود، وفي كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار، مطلي نصف حائطها مما يلي الأرض، والنصف الأعلى بالجص الأبيض الناصع، فالضدان بها مجتمعان متقابل جنسهما، وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان أحدهما يجري بالماء الحار، والآخر بالماء البارد، فيدخل الإنسان الخلوة، لا يشاركه فيها أحد... ولم أر هذا الإتقان كله في مدينة سوى بغداد، وبعض البلاد تقاربها في ذلك"[١].

و- النظافة والصرف الصحي

تعد النظافة من الأمور الهامة في المدينة الإسلامية، وعلى الرغم من المعلومات الشحيحة جداً حول هذه الناحية العامة، فمما لا شك فيه ان كل مدينة كان لها نظامها الخاص بالنظافة، وطريقتها في الصرف، وإلا لما كان من الممكن استمرارها الحياتي. وقد ظهر ذلك مبكراً في الأحياء، فكانت الدولة تؤمن النظافة عن طريق جماعات عرفوا بذلك، فكان المحتسب يأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ والطين، وكل ما فيه أذية الناس، واضرار على السالكين كالميازيب الظاهرة من الحيطان زمن الشتاء، ومجاري الأوساخ الخارجة من الدور، بل يأمر المحتسب أصحاب الميازيب ان يجعلوا عوضها مسبلاً محفوراً في الحائط يجري فيه ماء السطح، ويحفر له في الدار حفرة يجتمع فيها[٢].

وفي فصل الشتاء كانت الدولة تنظف الدروب، أما إذا كان سبب ذلك ميازيب شخص معين فعلى ذلك الشخص تنظيفه[٣]. وأحياناً كانت تصرف تلك الفضلات في

---

(١) الرحلة، ج١، ص٢٤٣.

(٢) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٤، شاكر مصطفى، مدن الإسلام، ج٢، ص٦٦٧.

(٣) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣٦٧.

دجلة، وبالتالي يمنع المحتسب السقائين وأصحاب الروايا من الاقتراب من هذه المصارف أو أخذ الماء منها(١).

ويبدو أنه كان في المحلات أماكن لجمع الفضلات والأوساخ. أشار إلى تلك الأماكن ابن الطقطقا عند حديثه عن مقتل الوزير ابن البلدي "...ثم بويع المستضيء في باطن الدار البيعة الخاصة، واستدعى الوزير ابن البلدي ليبايع، فلما حضر الدار عدل به إلى مكان، وضربت عنقه وأُخرج فرُمي على مزبلة بباب المراتب"(٢).

وكان الروث الحيواني المجفف وبعض الأوساخ الإنسانية تباع وقوداً للحمامات، وأما الباقي فيُرمى في الأرباض أكداساً خارج المدينة(٣).

وكانت تحدث بعض التجاوزات من قبل الأفراد بعدم الالتزام بقواعد النظافة، فقد عمر أحد الأتراك حماماً وجعل مجرى صرفه على دار جيرانه، فشكى ذلك إلى الوزير ابن العطار فزجره الوزير ولم يأخذ بيده(٤). ولعل إهمال الوزير لهذا الأمر لا يمثل موقف الدولة من هذه المشكلة بل هو تصرف شخصي للوزير المعروف بسوء تعامله مع الناس(٥).

ز- المؤسسات العلمية

كانت المدارس ركناً أساسياً في جملة منشآت المدينة الإسلامية. بدأ إنشاء المدارس في مدن شرق العالم الإسلامي على يد أتباع المذهب السني. بنتها الدولة، وأصبحت مؤسسات رسمية عنيت بإنشائها لتخريج أجيال من المتفقهين بالمذهب السنيّ، تتحمل مسؤولية مقاومة التيار الشيعي الذي وصل إلى بغداد عاصمة الخلافة

---

(١) الشيزري، نهاية الرتبة، ص١١٧.

(٢) الفخري، ص٣١٨.

(٣) شاكر مصطفى، مدن الإسلام، ج٢، ص٦٦٨.

(٤) الرحيم، الخدمات العامة، ص٣٢٣.

(٥) الرحيم، الخدمات العامة، ص٣٠٩.

العباسية.

أنشأ نظام الملك -الذي وُزّر للسلطانين ألب أرسلان وملكشاه الأول- عدة مدارس في بعض أقطار العالم الإسلامي، سميت باسمه، ورسم لها كفاح المذهب الشيعي الذي كان منتشراً في العهد البويهي، ولعل هذا يفسر السبب الذي جعل المدارس الجديدة تقتصر على العلوم الدينية واللغوية، وتترك العلوم الطبيعية الأخرى[١].

ومن السهل ملاحظة كثرة المدارس في العالم الإسلامي بعد قيام نظام الملك بخطوته المذكورة، فبغداد كان فيها عام (٥٨٠هـ/١١٨٤م) نحو من ثلاثين مدرسة[٢].

لم تعد مهمة إنشاء المدارس من مهمات الدولة فحسب، بل شارك في إنشائها الموسرون من الأمراء والأعيان والتجار. ولأجل ديمومة هذه المؤسسات أوقفوا عليها الأوقاف[٣] الكثيرة. والسبب في ذلك ديني يعود إلى تقوى صاحب الوقف ورجائه الثواب من الله، بسبب ما كان للدين من سلطان كبير في حياة الناس الروحية، فضلا عما طبعت عليه النفس البشرية من الشهرة والميل إلى تخليد الذكر بعد الموت.

---

(١) عماد عبد السلام رؤوف، مدارس بغداد في العصر العباسي، ط١، ص١٢.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٣.

(٣) الوقف: هو حبس مال يمكن الانتفاع بع مه بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته على مصرف مباح. الشربيني، مُغنى المحتاج إلى معرفة معاني الفاظ المنهاج، ط٢، ج٢، ص٣٧٦؛ محمد أبو زهرة، محاضرات في الوقف، ص٣٩.

ونظراً لكثرة تلك الأوقاف وأهميتها، فقد خصص لها النظار والمشرفون وغيرهم من الموظفين لإدارتها وضمان استمرارها[1]. وغالباً ما قرنت مشيخة المدرسة بالنظر في أوقافها، وهذا ما نلمسه من مرسوم تعيين ضياء الدين أحمد بن مسعود التركستاني مدرسا ومشرفا لمدرسة مشهد أبـــي حنيفة سنة (٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م) فقد جاء في المرسوم "وليبذل جهده في عمارة الوقوف المذكورة واستثمار حاصلها وارتفاعها، مستخيراً من يستخدمه فيها من الأجلاء الأمناء[2]". وقد ورد في المصادر أسماء عدد ممن تولى هذا المنصب منهم: الفقيه ابن فضلان[3]، تولى النظر في أوقاف المدرسة النظامية مضافا إلى مهمة التدريس[4]. والفقيه أبو علي يحيى بن ربيع الواسطي (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م). قال عنه ابن كثير: "صار مدرسا بالنظامية وناظرا على أوقافها"[5].

أشار ابن جبير إلى كثرة اوقاف المدارس في بغداد، "ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تصير إلى الفقهاء والمدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم"[6].

وإلى جانب الوظيفة التعليمية للمدارس، فقد قدمت خدمات اجتماعية تمثلت بتوفير السكن للطلاب والعلماء والمدرسين، وخاصة للطلاب القادمين من مناطق

---

(١) الرحيم، الخدمات العامة، ص١٢٣.

(٢) مجهول، الحوادث، ص٦٤.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٣٦.

(٤) هو أبو القاسم يحيى بن علي بن بركة بن فضلان، شيخ عالم له معرفة بالفقه والأصول، كان مولده في سنة ٥١٥هـ. ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١١.

(٥) ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٥٣.

(٦) الرحلة، ص١٨٣.

بعيدة[١]. فقد جرت العادة منذ عهد نظام الملك ببناء الغرف والبيوت الخاصة بسكن المدرسين والطلاب والمعيدين وسائر الموظفين في المدرسة ذاتها. كما في مدرسة ابي حنيفة والنظامية والمستنصرية والبشرية وغيرها ببغداد، وكان الطلبة يتنافسون في سبيل الإقامة بالمدارس لما توفره لهم من علم ميسر وخلوة وانقطاع للدرس وجيرة طيبة وجرايات حسنة[٢].

وكانت تلك الغرف تقسم إلى قسمين: القسم السفلي يخصص كمأوى للمدرسين غالباً لضعفهم وكبر سنهم. "وأما الضعيف والمتهم ومن يقصد الفتيا والاشتغال عليه فالمساكن السفلية أولى بهم". ويخصص الطابق العلوي عادة لسكن الطلبة من الشبان "والمساكن العالية لمن لا يضعف عن الصعود، واولى بالمشتغل وأجمع لخاطره إذا كان الجيران صالحين"[٣].

كان لسكن هذه المدارس آداب وشروط على الطالب أن يلتزم فيها، تناولها ابن جماعة[٤]، وحددها بإحدى عشر أدبا[٥]. على رأسها: أن يتحقق الطالب من مدى شرعية البناء، ومن الطريق التي آل بها ذلك البناء، والشروط الموضوعة له ولساكنيها، وذلك من أجل حفظ دين الطالب، إذ ينبغي عليه أن يتعامل مع الحلال من ناحية، وأن يحقق تنفيذ الشروط الموضوعة له من ناحية أخرى وإلا "فالساكن

---

(١) عبد الأمير شمس الدين، المذهب التربوي عند ابن جماعة، دار اقرأ، ص٤١.

(٢) رؤوف، مدارس، ص٢٥.

(٣) عبد الأمير شمس الدين، المذهب التربوي عند ابن جماعة ملحق به نص كتاب تذكرة السامع، ص٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ص٤١.

(٥) هو إبراهيم بن عبد الحميد بن محمد الكناني، حمي الأصل، شافعي المذهب، مفسر وخطيب، نشأ في دمشق وشكن القدس، وولى قضاء الديار المصرية ثم قضاء دمشق توفي سنة ٧٣٣هـ. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٦، ص٣١١.

يتعرض لخسران دينه وثمرة عمره"[1]. وبعد هذا الشرط الأساسي ينتقل بنا الكاتب إلى نصائح وإرشادات يوجهها إلى هذه الفئة الساكنة في دار مخصصة للعلم، واجبهم أن لا يعرضوا دينهم وخلقهم للسوء بما قد يقدمون عليه من سلوك وتصرفات تؤذيهم وتؤذي غيرهم[2].

والراجح أن مدرسة أبي حنيفة هي أول مدرسة ببغداد بالمعنى المفهوم من المدارس، سكنها الطلاب وأقاموا فيها. قال ابن الجوزي في كلامه عن أبي سعد المستوفي (ت٤٩٤هـ/١١٠٠م) الذي بنى مدرسة بإزاء مشهد أبي حنيفة، وأنزلها الفقهاء ورتب لهم مدرساً[3].

كان تعيين المدرسين بهذه المدارس يتم بمرسوم خاص يصدر عن الخلفاء[4]. أورد ابن الساعي مرسوم تعيين الفقيه ضياء الدين التركستاني مدرسا بمدرسة مشهد أبي حنيفة وناظرا في أوقافها[5].

كان تولي التدريس في المدارس، وخاصة الكبيرة منها كالنظامية منصبا مرموقا يطمح إليه الكثير من العلماء، حتى ان بعضهم غيّر مذهبه ليحضى بذلك المنصب كالوجيه النحوي (ت٦١٢هـ/١٢١٥م) الذي كان حنفياً فتحول إلى مذهب

---

(١) انظر الباب الخامس من كتاب ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، تحقيق عبد شمس الدين، ص١٥٩.

(٢) ابن جماعة، تذكرة السامع، ص١٥٩.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٢٤٥.

(٤) مريزن عيسير، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص٢٧٠.

(٥) الجامع المختصر، ج٩، ص٣٣٣.

الشافعي[١] وذلك لأن شرط الواقف كان لا يتولى أي منصب من مناصبها إلا من هو شافعي.

وتقع المدرسة الزيركية بسوق العميد بمنطقة سوق السلطان، ولا يعرف إلى من تنسب، وإن كان الظاهر من الاسم أنها نسبة إلى زيرك، وهو اسم شائع عند الأتراك[٢]. وممن تولى التدريس فيها في هذه الفترة الفقيه عبد السلام بن إسماعيل بن عبد الرحمن اللمغاني (ت٦٠٥هـ[٣]/١٢٠٨م).

ومن مدارس بغداد الشافعية، المدرسة النظامية، أسست هذه المدرسة من قبل الوزير نظام الملك (ت٤٨٥هـ/١١٩٢م). وفتحت في ذي القعدة سنة (٤٥٩هـ[٤]/ ١٠٦٦) وقد أنشئت لتدريس الفقه الشافعي، وشرط الواقف أن يكون المدرس بها والواعظ ومتولي الكتب من الشوافع أصلاً وفرعاً[٥]. جدد الخليفة الناصر بناءها بعد أن زارها سنة (٥٨٩هـ[٦]/١١٩٢م).

كانت المدرسة التاجية ثاني مدرسة للشافعية عرفتها بغداد بعد النظامية. وهي منسوبة إلى تاج الملك بن المزربان بن خسرو أبو الغنائم. فتحت سنة (٤٨٢هـ[٧]/ ١٠٨٩م). ويقول ياقوت في المدرسة: "والتاجية اسم مدرسة ببغداد ملاصق قبر الشيخ أبي إسحاق الفيروزآبادي، نسبت إليها محلة هناك، والمقبرة والمدرسة

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٣١٢؛ أبو شامة، الذيل، ص١٠؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص١٥٢، الذهبي، مختصر، ج٣، ص٣٩.

(٢) تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٤، ص٦٣١.

(٣) عسيري، الحياة العلمية.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٧٦، القرشي، الجواهر المضية، ج١٠، ص٣١٥.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٢١٨.

(٦) حسين أمين "المدرسة الإسلامية في العصر الإسلامي، واثرها في تطوير التعليم"، ص١٠٤.

(٧) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص٤٦، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥.

منسوبة إلى تاج الملك أبي الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز المتولي لتدبير دولة ملكشاه بعد الوزير نظام الملك"[١].

يروي ابن الساعي[٢] ان المدرسة كانت موجودة في أواخر القرن السادس الهجري، فقد ذكر في ترجمة فخر الدولة العباسي (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) "وصلى عليه بالمدرسة التاجية". وقال في وفاة الأجل إبراهيم بن محمد سنة (٥٩٨هـ/١٢١١م) "وصلى عليه بالتاجية، ودفن بمقبرة باب المختار"[٣].

ومن مدارس الشافعية أيضاً، المدرسة الثقتية، وتسمى أيضاً مدرسة الأصحاب، وتنسب إلى ثقة الدولة أبي الحسن علي بن محمد ابن يحيى الدريني المعروف بابن الأنباري[٤]. وتقع بالجانب الشرقي من بغداد، بباب الأزج على شاطئ دجلة[٥]. وفي سنة (٦٠٥هـ/١٢٠٨م) قدم رسول من خوارزم شاه إلى ديوان الخلافة في بغداد فأُنزل في هذه المدرسة[٦]، مما يوحي بأهميتها لدى الدولة، وحسن عمارتها.

وتقع المدرسة الكمالية قريبا من دار مؤسسها أبي الفتوح حمزة بن طلحة (ت٥٦٦هـ/١١٦٠م)، أسسها سنة (٥٣٥هـ[٧]/١١٤١م)، وتقع بالجانب الشرقي

---

(١) معجم البلدان، ج٢، ص٥.

(٢) الجامع المختصر، ج٩، ص٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٩، ص٨٦.

(٤) كان رجلا صالحا من الأفاضل ولد سنة ٤٧٥هـ، واشتغل أول أمره بالحدادة، ثم خدم لدى أبي نصر أحمد الابري، وتزوج ابنته العالمة المشهورة شهدة الابرية فارتفعت منزلته، وبنى المدرسة المذكورة. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص١٦٠.

(٥) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٦٠، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٣٩٥، رؤوف، مدارس، ص٨٧.

(٦) ابن الساعي، الجامع تالمختصر، ج٩، ص٢٦٢.

(٧) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٥، ص١٢١.

من بغداد بباب العامة(١). وقد وقف عليها مؤسسها ثلث أملاكه، ورتب فيها أبا الحسن محمد بن المبارك بن الخل مدرساً(٢).

هناك إشارة إلى استمرار المدرسة خلال فترة البحث، فقد ذكر السبكي في ترجمة محمود بن احمد بن محمد أبو الفضل الأردبيلي (ت٦٢٥هـ/١٢٢٧م) أنه "قدم بغداد ودرس بالمدرسة الكمالية، وسقط في بئر في داره فهلك سنة خمس وعشرين وستمائة"(٣).

والمدرسة البهائية تقع بالقرب من النظامية(٤)، ولا يعلم من منشئها، على أن ظاهر اسمها يدل على أنها منسوبة إلى من اسمه بهاء على الأكثر(٥).

ومدرسة دار الذهب، وتعرف أيضاً بالمدرسية الفخرية، وهي منسوبة إلى الحسن بن هبه الله بن محمد بن علي أبو المظفر فخر الدولة(٦). وتقع بشرقي بغداد عند عقد المصطنع(٧). وكان افتتاحها سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م) بعد عودته إلى بغداد من مشهد الإمام علي، حيث أقام هناك مدة منقطعاً(٨).

---

(١) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، مخ، ج٢، ورقة ٤٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ورقة ٤٠٥.

(٣) طبقات الشافعية، ج٥، ص١٥٤، رؤوف، مدارس، ص١٠٢.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٢٥؛ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٥٧٩، الذهبي، مختصر، ج١، ص١١٦.

(٥) رؤوف، مدارس، ص١٠٣.

(٦) ترك الدخول بالدنيا، كثير الحج، كانت وفاته سنة ٥٧٨هـ، ودفن في إيوان مسجده، الذي ابتناه بالجانب الغربي، وكان قد ولي مشهد موسى بن جعفر بعد خراب الإيوان جراء الفيضان. الذهبي، مختصر، ج٢، ص٢٦، مجهول، الحوادث، ص٢٤٢.

(٧) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١١، رؤوف، مدارس، ص١٠٧.

(٨) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٣٣، الرحيم، الخدمات العامة، ص١٨٦.

ومن مدارس الشافعية. المدرسة الاسبهبذية. وتعرف أيضاً بالاصبهبذية[١]. ولا يعرف من هو مؤسسها، وتقع في محلة بين الدربين بالجانب الشرقي من بغداد[٢].

وأسس أبو النجيب عبد القادر السهروردي[٣] (ت٥٦٣هـ/١١٦٧م) مدرسة عرفت باسمه. وفي بنائها قال السبكي[٤]: "وكانت له خربة بنى فيها رباطاً، وبني إلى جانبه مدرسة".

وأنشأت السيدة زمرد خاتون، والدة الخليفة الناصر لدين الله مدرسة عرفت باسمها، وتعرف أيضاً بمدرسة الأصحاب[٥]، افتتحت سنة (٥٨٩هـ[٦]/١١٩٣م) وتقع بالجانب الغربي من بغداد، وقد انشأتها بجوار تربتها بالقرب من قبر معروف الكرخي[٧]، والحقت بها داراً لسكنى المدرس، وحُجر يقيم بها الطلبة، وأجرت للجميع الرواتب الحسنة، فصارت المدرسة من أشهر المدارس في بغداد، يؤمها الطلاب من كل حدب وصوب[٨].

وكانت المدرسة الشرابية أو الإقبالية أو الشرفية من كبريات المدارس المستجدة في أواخر العصر العباسي. بناها مقدم العسكر في أيام الخليفة المستنصر

---

(١) الاصبهذ: اسم فارسي مركب من: "سباه" وتعني جيش، و"يد" وتعني حافظ، فمعناها: حافظ الجيش أو قائده. ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص٢١١، هامش٢٥.

(٢) رؤوف، مدارس، ص١١٥.

(٣) ترجمنا له عند الحديث عن الطرق الصوفية.

(٤) طبقات الشافعية، ج٧، ص١٧٣.

(٥) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٥، ص١٩٩.

(٦) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، مخ، ج٣، ورقة ٤٤ب.

(٧) عماد عبد السلام رؤوف "الخدمات النسوية في العراق" بحث غير منشور في الاتحاد العام لنساء العراق، ص٤٧.

(٨) رؤوف، مدارس، ص١٢٣.

الأمير شرف الدين إقبال الشرابي[١]. وتقع بسوق العجم بالشارع الأعظم بالقرب من عقد سور سوق السلطان مقابل درب الملاحين[٢]. وكان المتولي لبنائها شمس الدين بن الناقد وكيل الخليفة المستنصر بالله، وشرط الواقف النظر بها له ثم من بعده لمن تولى وكالة الخلافة[٣]. وتم افتتاحها في شوال سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م). وبعد افتتاح المدرسة خلع على جميع من حضر من الفقهاء والحاشية، وعمل من أنواع الأطعمة الشيء الكثير، حمل منه إلى جميع المدارس والأربطة[٤].

وكان للحنابلة مدارس، كغيرهم من اتباع المذاهب الأخرى. فأسس أبو سعيد المبارك بن علي المخرمي (ت٥١٣هـ/١١١٩م) مدرسة المخرمي بباب الأزج من الجانب الشرقي من بغداد[٥]، ثم فوض أمرها لتلميذه الشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي قام بتوسيعها عندما ضاقت بالطلاب، وأضيف إليها من الدور حتى بلغت ضعف ما كانت عليه من اتساع. ساهم العلماء والأغنياء في عمارتها من اموالهم. وكان الفراغ من ذلك سنة (٥٢٨هـ/١١٣٣م). وتصدر للتدريس والجلوس للوعظ، وقصده طلاب العلم من الآفاق[٦]. وتولى التدريس فيها من بعده أبناؤه وأحفاده أمثال عبد الوهاب[٧] وعبد الرزاق[٨] والشيخ عبد السالم الجيلاني[٩].

---

(١) مجهول، الحوادث، ص١٢٤.

(٢) مجهول، الحوادث، ص٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٤؛ ناجي معروف، المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، ص١٤٤.

(٤) مجهول، الحوادث، ص٢٥؛ ناجي معروف، المدارس الشرابية، ص١٤٤.

(٥) ولد أبو اسحق بمفارقين بعد سنة ٥٤٠هـ، ثم حل إلى بغداد، وسكن النظامية وأعاد لها، تولى التدريس بمدرسة أم الناصر، الإسنوي، طبقات الشافعية، ج٢، ص٢٨٥.

(٦) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص٢٩٩؛ الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص١٥٣.

(٧) التادفي، قلائد الجواهرن ص٥٣.

(٨) المنذري، التكملة، ج٢، ص٩٨١؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢١٤.

(٩) التادفي، قلائد الجواهر، ص٥٦؛ أبو شامة، الذيل، ص٥٦.

وأنشأ أبو القسم بن الشحمل مدرسة عرفت باسمه. فتحت سنة (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) بمحلة المأمونية. قال ابن الجوزي في أحداث هذه السنة: "وفي يوم الأثنين حادي عشر ربيع الآخر فتحت المدرسة التي بناها ابن الشحمل في المأمونية[١]. وقد درس فيها المؤرخ جمال الدين عبد الرحمن أبو الفرج بن الجوزي، فقد قال عندما أسندت له مهمة التدريس بها: "وأعدت درسه فبقي نحو شهرين، وسلمت بعده إليَّ فجلست للتدريس فيها"[٢].

وتنسب مدرسة ابن بكروس لأحمد بن محمد بن المبارك بن بكروس[٣] وهي من مدارس الحنابلة بالجانب الشرقي من بغداد: دّرس بها حتى توفي سنة (٥٧٣ هـ/١١٧٧م)، ثم درس بها أخوه أحمد بن بكروس (ت٥٧٦هـ[٤]/١١٨٠م)، ودرس بها من بعده إبراهيم بن علي بن بكروس (ت٦١١هـ[٥]/١٢١٤م).

ومدرسة المؤرخ أبي الفرج بن الجوزي، تقع بدرب دينار، تم افتتاحها سنة (٥٧٠هـ[٦]/١١٧٤م). قال ابن الجوزي في افتتاحها: "وفي يوم الأحد ثالث محرم ابتدأت بإلقاء الدروس في مدرستي بدرب دينار، فذكرت يومئذ أربعة عشر درساً من فنون العلوم"[٧].

---

(١) المنتظم، ج١، ص٢٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ج١٠، ص٢٠١؛ رؤوف، مدارس، ص١٦٠.

(٣) هو أحمد بن محمد بن المبارك بن بكروس البغدادي، عالماً زاهداً، تكلم في مسائل الخلاف، درس بالمدرسة التي أنشأها، توفي سنة ٥٧٣هـ. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٧٦؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨/ ق١، ص٣٤٤، الذهبي، مختصر، ج١، ص٢٠٦.

(٤) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص٣٤٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٠.

(٦) ابن الجوزي، المنظم، ج١٠، ص٢٥٠.

(٧) المصدر نفسه، ج١٠، ص٢٥٠.

وأنشأت السيدة بنفشة إحدى زوجات الخليفة المستضيء بأمر الله[١] مدرستها التي عرفت باسمها. تقع بباب المراتب على شاطئ دجلة بمحلة باب الأزج. تم افتتاحها سنة (٥٧٠هـ[٢]/١١٧٤م). والمدرسة في الأصل كانت داراً لنظام الدين أبي نصر بن علي بن جهير وزير الخليفة المستضيء، فلما عزل سنة (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) سكن في داره هذه حتى وفاته سنة (٥٩٧هـ[٣]/١٢٠٠م)، وكتب في كتاب الوقف أنها وقف على أصحاب أحمد[٤]، وقد وقفت بنفشة عليها الأوقاف الكثيرة[٥] منها قرية بكاملها[٦].

لا يعرف بالضبط متى انشئت المدرسة الشاطئية، إذ لم يرد في الكتب ما ينص على ذلك، والمرجح أنها أقيمت بعد زيارة الرحالة الأندلسي ابن جبير إلى بغداد سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م). والدليل على ما ذهبنا إليه أنه عندما تحدث عن المدارس في بغداد أشار إلى أنها جميعها في الجانب الشرقي "والمدارس بها نحو من ثلاثين، وهي كلها بالشرقية[٧]". من مدرسي هذه المدرسة عبد السلام ابن الشيخ عبد القادر

---

(١) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، مخ، ج٢، ورقة ٥٩ب، ابن الساعي، نشاء الخلفاء، ص١١١، مصطفى جواد، "المعاهد الخيرية انسوية"، بحث ضمن بحوث للمؤلف بعنوان في التراث العربي، ج١، ص١٢٨، الرحيم، الخدمات العامة، ص١٨٦.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٥٣؛ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص٨٧٤.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ج١٠، ص٢٥٣.

(٥) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١١١؛ رؤوف، الخدمات النسوية، ص٤٤.

(٦) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٣٢٩؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٩.

(٧) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٣؛ رؤوف، مدارس، ص١٩١.

الجيلاني (ت٦١١هـ/١٢١٤م). قال صاحب الحوادث[١] في ترجمته "ودرس في مدرسة جده بباب الأزج والمدرسة الشاطئية بباب الشعير" بالجانب الغربي.

ومن مدارس الحنابلة أيضاً، مدرسة ابن العطار. شيدها أبو القاسم نصر بن منصور بن الحسين بن العطار (ت٥٩٥هـ[٢]/١١٩٨م) وقد أشار إلى ذلك ابن الفوطي "وبنى مدرسة للفقهاء الحنابلة بدرب القيار"[٣].

كما أنشأ الأمير مجاهد الدين أيبك المستنصري المعروف بالدويدار الصغير مدرسة أخرى للحنابلة، عُرفت بالمدرسة المجاهدية، تكامل بناؤها سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م). أنشأها قريبة من داره بالجانب الشرقي من بغداد، وجعلها وقفاً على الحنابلة ولم يوقف عليها شيئاً[٤].

والمدرسة المستعصمية من المدارس قليلة الذكر ببغداد، بنيت بأمر من الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م) كما يتضح من ظاهر اسمها. وقد بقيت هذه المدرسة إلى ما بعد سقوط بغداد في يد المغول سنة (٦٥٦هـ[٥]/١٢٥٨ م). ولا يوجد ما يشير إلى موقع المدرسة في كتب خطط بغداد[٦].

بعد أن كانت المدارس قائمة على أساس المذهب، وجد الخليفة المستنصر أنه لا بد من إنشاء مدرسة تكون محط أنظار أهل السنة جميعاً، فلا يقف شرط مذهبي أمام الطالب، كما وضع نظام الملك من شروط القبول في النظامية من أن يكون الطالب شافعياً أصلاً وفرعاً.

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٨٧.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤.

(٣) تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٤، ص١٥٨.

(٤) مجهول، الحوادث، ص١٢٨، رؤوف، مدارس، ص١٩٥.

(٥) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج٢، ص٢٤٥، رؤوف، مدارس، ص٢٠٣.

(٦) المرجع نفسه، ص٢٠٣.

أمر الخليفة المستنصر بالله بإنشاء المدرسة المستنصرية. كان البدء في العمل ببنائها سنة (٦٢٥هـ[١]/١٢٢٧)، وتـمّ افتتاحها الرسمي في جمادى الآخـرة سنة (٦٣١هـ[٢]/١٢٣٣م)، وجعلت هذه المدرسة وقفاً على المذاهب الأربعة[٣]: الحنبلي، والحنفي، والشافعي، والمالكي.

وبلغت النفقة على المدرسة المستنصرية حوالي سبعمائة الف دينار[٤]. وحدد راتب المدرس في كل يوم عشرين رطلاً من الخبز، وخمسة أرطال من اللحم بخضرها وحوائجها، وفي كل شهر راتباً مقداره اثني عشر ديناراً، وأن يكون لكل معيد ثلاثة دنانير في الشهر[٥].

وأنشئ إلى جوار المستنصرية دار لتعليم القرآن الكريم، وشرط الواقف أن يكون في هذه الدار ثلاثون طفلاً من الأيتام، وأن يكون بها من الأشخاص من يحفظهم[٦].

والمدرسة المستنصرية التي استغرق بناؤها ستة سنوات تميزت عن غيرها من المعاهد التعليمية الإسلامية في كل شيء، وانفردت في عمارتها وزخرفتها وعلومها وأوقافها وعدد فقهائها. قال سبط بن الجوزي[٧]: "ليس في الدنيا مثل هذه المدرسة، ولا بنى مثلها في سالف الأعوام".

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٥٣.

(٢) مجهول، الحوادث، ص٥٣؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٥٧.

(٣) المصادر نفسها والصفحات؛ ناجي معروف، تاريخ علماء المستنصرية، ج١، ص٢٧.

(٤) البصري، المناقب العباسية، مخ، ورقة ١٥٤ب، ناجي معروف، تاريخ علماء المستنصرية، ج١، ص٤٢.

(٥) الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٥٨.

(٦) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٨؛ مجهول، الحوادث، ص٥٨-٩.

(٧) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٧٣٩.

وأنشات زوجة الخليفة المستعصم بالله السيدة باب بشير مدرسة عرفت باسمها[١]. تقع في الجانب الغربي قرب محلة قطفتا[٢]. وكان الشروع في بنائها في سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م) وتوفيت منشئتها في شوال سنة (٦٥٢هـ[٣]/١٢٥٢م). قبل أن يتم افتتاحها، الذي تم في جمادى الآخرة سنة (٦٥٣هـ[٤]/١٢٥٣م) أي بعد ثمانية أشهر من وفاة السيدة باب بشير. وحضر الافتتاح الخليفة المستعصم بالله وأبناؤه فجلسوا في وسطها، وحضر خواص الخليفة ومماليكه، ثم حضر الوزير ابن العلقمي، وكافة أرباب الدولة وذوو المناصب والمدرسون ومشايخ الربط، وعملت فيها دعوة عظيمة[٥].

كانت هذه المدرسة قد انشئت على قاعدة المدرسة المستنصرية لتدريس المذاهب الأربعة[٦] وهي بذلك تكون ثاني مدرسة متعددة المذاهب، ليس في بغداد وحدها بل في العالم الإسلامي.

لم تقتصر السيدة باب بشير في أوقافها على المدرسة، بل كان لها من المعاهد الخيرية دار القرآن على شاطئ دجلة بالجانب الغربي، يدرس فيها أبناء الفقراء[٧]، وقد أشهدت على نفسها في دار الوزير بصحة الوقف وثبوته بحضور قاضي

(١) مجهول، الحوادث، ص٣٠٧.
(٢) المصدر نفسه والصفحة.
(٣) مجهول، الحوادث، ص٣٠٧.
(٤) مجهول، الحوادث، ص٣٠٧؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٦٠٩.
(٥) مجهول، الحوادث، ص٣٠٧-٨؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٦٠٣.
(٦) مجهول، الحوادث، ص٣٠٧.
(٧) مجهول، الحوادث، ص٢٧٥؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٦٠٣.

القضاة، وتمت كتابة الوقف في السجل المخصص لذلك، وقرء على الحاضرين فوضعوا خطوطهم تأكيداً لذلك[١].

وتعد المكتبات في الإسلام مركزاً هاماً للثقافة والعلم في الحضارة الإسلامية، وما هي إلا نتاج لحضارته وانعكاس لها. ساهمت مساهمة جلّي في توسيع نطاق هذه الحضارة وتغذيتها وترقيتها. لذلك عندما اتسع أفق المسلمين العقلي وازدهر تقدمهم الحضاري وتنوعت اهتماماتهم، زاد بنفس النسبة عدد المكتبات وتنوعت أغراضها حتى شملت جميع الأغراض التي تؤسس المكتبات من أجلها. لذلك نجد في دنيا الإسلام جميع أنواع المكتبات: المكتبات العامة المفتوحة للجمهور على اختلاف أنواعه، والمكتبات الخاصة التي يمتلكها أفراد معينون لخدمة أغراضهم الشخصية، والمكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع والربط وغيرها، وسنتناولها كلاً على حده.

كانت المكتبات تشكل جزءاً أساسياً من أجزاء المدرسة، فجميع مدارس بغداد في هذه الفترة كغيرها من الفترات السابقة حوت المكتبات، التي يرجع إليها المّدرس والطالب. وكانت خزائن تلك المكتبات تصف فيها الكتب بعضها فوق بعض ولها فهارسها، ولكل علم أو فن خزانة. وقد تولى إدارة المكتبات الإسلامية على مدى الأزمان رجال هم في الذروة من العلم في مختلف العلوم.

كان في مدرسة مشهد أبي حنيفة خزانة كتب نفيسة موقوفة على طلبة العلم لها من يتعهدها بأمر خزنتها[٢]. وللدلالة على أهمية كتب الخزانة ما روي من اطلاع

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) مصطفى جواد، أول مدرسة في العراق، ص٤٢.

ابن الجوزي على ثبت محتوياتها من المصنفات والأسفار، وإن لم يشر إلى مجموع هذه المحتويات وأنواعها[1].

ومن نص التوقيع بتولية أبي الفضل التركستاني بمدرسة أبي حنيفة سنة (٦٠٤ هـ/١٢٠٧م) تبرز أهمية تلك الخزانة فقد جاء فيه "ويثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها، معارضاً ذلك بفهرسته متطلباً ما عساه قد شذّ منها، ليأمر خازنها بعد استصلاحه بمراعاتها ونفضها[2]".

وأنشئت المكتبة في المدرسة النظامية مع إنشاء المدرسة سنة (٤٥٨هـ/ ١٠٩٢م) وفتحت سنة (٤٥٩هـ[3]/١٩٠٣م).

اهتم الخليفة الناصر لدين الله مكتبة النظامية، فلما زارها سنة (٥٨٩هـ/ ١١٩٢م) ووجد ما لحق بها من الإهمال والتلف، أمر بعمارة خزانتها، ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها[4]، نقلها من خزانته[5].

وأوكل الناصر لدين الله مهمة اختيار الكتب إلى مبشر بن أحمد بن علي الرازي[1]. وتعتبر مساهمة الخليفة الناصر بتجهيز المدرسة النظامية بالآف الكتب عملية ازدهار واسعة لخزانة الكتب فيه[2].

---

(١) كوركيس عواد، "خزائن كتب العراق العامة"، مجلة سومر، مديرية الآثار القديمة العامة، بغداد، مج٢، ج٢، ص٢٢٦.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٣٣.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٢١٨.

(٤) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٧٠؛ ابن الأثير، الكامل ج١٢، ص١١٤؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٤٢١؛ ابن كثير، ج١٣، ص٧، الغساني، العسجد المسبوك، ص٢٢٤.

(٥)الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٧٠؛ ابن الأثير، الكامل ج١٢، ص١١٤؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٤٢١؛ ابن كثير، ج١٣، ص٧، الغساني، العسجد المسبوك، ص٢٢٤.

كان للمكتبة خزنة مشرفون يتولون أمرها والنظر في شؤونها، وممن تولى هذا المنصب أبو جعفر بن أبي بكر عبيد الله الدباس الذي كان حنبلياً ثم انتقل إلى المذهب الشافعي، من أجل تحقيق شروط الواقف، وبقي مشرفاً لدار الكتب النظامية إلى أن توفي سنة (٦٠١هـ[٣]/١٢٠٤م). وأوقف المؤرخ ابن النجار (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) خزانتين من الكتب على المكتبة النظامية[٤].

لم يرد لدينا عن خزانة الكتب بالمدرسة الشرابية إلا خبر يتعلق بخازن من خزنتها وهو ابن المارودي، ذكره ابن الفوطي فقال[٥]: "كان فقيها، سافر في صباه إلى خراسان وما وراء النهر، وسمع ببخاري من الفقيه العالم جمال الدين المعروف بكوى خرد فندان، واستوطن بغداد وكان خازن الكتب بالمدرسة الشرفية".

بعد افتتاح المدرسة المستنصرية سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م)، حملت إليها مجموعات كبيرة من أنفس الكتب "ذوات الخطوط النفيسة والفصول المضبوطة والمحتوية على سائر العلوم". وقد حملت هذه الكتب على مائة وستين جملاً، سوى ما نقل إليها بعد ذلك، وجعلت وقفاً بدار الكتب التي أُنشئت بالمدرسة[٦]. وأمر الخليفة المستنصر الشيخ ضياء الدين أحمد الخازن بخزانة كتب الخليفة الخاصة

---

(١) القفطي، أخبار الحكماء، ص١٧٧.

(٢) الرحيم، الخدمات العامة، ص١٨٢.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٦٠.

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٢٧.

(٥) تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٥، ص١٨٢، ناجي معروف، المدارس الشرابية، ص١٤٨.

(٦) مجهول، الحوادث، ص٥٣؛ الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٨، الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٥٨.

بترتيب المكتبة، فحضر إلى خزانة المدرسة ورتبها أحسن ترتيب، وقسمها في خزائن على حسب العلوم ليسهل تناولها [1]

وبعد أن جهزت المدرسة البشيرية سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، نقل إليها من الكتب ستة وثلاثون صندوقاً من الكتب المكتوبة بالخطوط المشهورة، والنسخ المضبوطة منها مما هو بخط ابن البواب[2]، ومصحف بخط الخليفة عثمان بن عفان، ومصحف بخط زين العابدين بن على بن الحسين عليه السلام، ومصحف بخط ابن البواب[3].

أما بالنسبة لبقية المدارس في بغداد في هذه الفترة فقد كان لها مكتباتها الخاصة بها، وأن عدم الحديث عنها إنما يعود إلى عدم وجود إشارات في مصادرنا حولها .

وقبل أن تنفصل المدرسة عن المسجد، كان في كل مسجد مكتبة تحوي مختلف الكتب التي وقفها أصحابها عليه، وعلى رأسها نسخ من القرآن الكريم، يقرأ بها الناس، فلما انفصلت المدرسة عن المسجد، لم تختف مكتبات المساجد ولكنها تضاءلت عدداً واقتصر بعضها على نسخ من القرآن الكريم وعلى الكتب الدينية المحضة .

يقع الجامع الزيدي بدرب دينار الصغير، بالجانب الشرقي من بغداد، وخزانة كتبه وقفها الشريف أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الزيدي (ت٥٧٥هـ[4]/ ١١٧٩م) ومعظم الكتب التي حوتها هذه المكتبة فيما بعد كانت وقفا من العلماء، فقد

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٥٤.

(٢) هو أبو الحسن على بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب، توفي سنة ٤١٣ هـ ولم يوجد من المتقدمين ولا من المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص١٠.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ص٦٠٩- ١٠؛ جواد، المعاهد النسوية، ص١٣٤.

(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج٨، ق١، ص٢٢٧؛ جواد، الإخاء في الثقافة، ص٧.

وقف صبح بن عبدالله الحبشي المتوفى في بغداد سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م) الكتب الكثيرة، وكان يتولى خزنها وإعارتها في المكتبة لطلاب العلم إلى حين وفاته[١].

وحمل هذا العمل العلماء الآخرين على الاقتداء بهذه المناسبة أمثال الجغرافي ياقوت الحموي الذي وقف كتبه على الجامع الزيدي وسلمها إلى المؤرخ ابن الأثير فحملها بدوره إلى هناك[٢]. وخزانة كتب ياقوت لابد أن تكون من أنفس الخزائن وأحفلها بالكتب الثمينة خاصة أن هذا العالم الرحالة الذي اتخذ من الاتجار بالكتب حرفة له، قد جمع لنفسه وللناس بعده كل ما هو نفيس[٣].

كما وقف عمر بن محمد بن عبدالله بن الخضر أبو الخطاب التاجر، وهو من أهل دمشق الذي قدم بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى دمشق، وقبل وفاته أوصى أن تكون كتبه وقفا في خزانة المسجد الزيدي ببغداد، فأرسلها ورثته إلى بغداد وجعلت مع خزانة الجامع[٤].

كان السبب الذي دفع الخليفة المستنصر بالله إلى إنشاء مسجد قمرية، أنه أراد أن يكون داراً للعلم والحديث، فضلا عن دوره في العبادة، قبل أن تتم عمارة المدرسة المستنصرية. ويؤيد ما ذهبنا إليه قول ابن الكازروني: "فتمت عمارته في سنة ست وعشرين وستمائة، وشرط أن يكون فيه من المتلقين ثلاثين نفسا وشيخ مصل به ومعيد"[٥]. ولتحقيق هذه الغاية العلمية فقد جعل في المسجد خزانة كتب تحوي نفائس الكتب[٦].

---

(١) كوركيس عواد، خزائن الكتب، ص٢٢٩.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص١٣٩؛ المستوفي، تاريخ إربل، ج١، ص٣٢٤

(٣) عواد، خزائن الكتب، ص٢٣٠.

(٤) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، مخ، ج٣، ورقة ١١٤ ب – ١١٥ أ.

(٥) مختصر، ص٢٦٠-٢٦١ .

(٦) مجهول، الحوادث، ص٤؛ عواد، خزائن الكتب، ص٢٣٤.

كان للربط أثر كبير في إثراء الثقافة ونهضة التعليم في العراق خلال هذه الفترة، بالإضافة إلى الخدمات الاجتماعية والدينية التي كانت تؤديها للمقيمين بها من الصوفية، ساهمت في الحركة العلمية، ومما ساعد على قيامها بهذا الدور أن الواقفين لهذه الربط قد أنشئوا فيها الخزائن، ووقفوا فيها الكتب، وعينوا لها القوام والخزنة فكان الزهاد المتصوفة يترددون على مكتباتها، وكذلك كان يفعل طلاب العلم.

كان العلماء يتخذون من الربط مكاناً للقراءة والمطالعة والاستنساخ والتأليف، يساعدهم على ذلك مكتباتها العامرة، وإمكانية مكوثهم فيها أوقات طويلة ، وما يهيأ لهم فيه من معونة، تتمثل في الطلاب والمتصوفة الذين كانوا على استعداد تام للتعاون طلبا للثواب من الله عز وجل [١]، ومن هذه المكتبات مكتبات الربط التالية:

اشتمل رباط شيخ الشيوخ[٢] على خزانة كتب، من أشهرها: كتاب ذيل تاريخ بغداد السمعاني. قال ابن الدبيثي في ترجمة السمعاني" كتب عن عامة شيوخ بغداد في وقته و بحث عن أحوالهم، وذكر حفاظها وجمع لها تاريخا جعله مذيلا على تاريخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب لها عشر مجلدات بيضه في بلده بعد عودته إليه، ووقفه ونفذ به إلى بغداد، وجعله برباط شيخ الشيوخ، وكتابنا هذا ذيلا عليه".

وكان في رباط الشونيزية مكتبة حافلة لخدمة طلبة العلم والصوفية المقيمين في الرباط، ولعل هذا ما دفع أبا حامد أحمد بن محمد إسحاق البلخي الأصفهاني المتوفى في بغداد بعد سنه (٥٧٠هـ/١١٧٤م) إلى وقف كتبه بهذا الرباط[٣].

---

(١) عسيري، الحياة العلمية، ص٢٣٩.

(٢) ينسب الرباط لأبي سعيد أحمد النيسابوري (ت٤٧٧هـ/١٠٨٤م) و يقع في محله نهر المعلى بالمشرعة. ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص١١؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٥٩.

(٣) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ورقة ١٠٤.

وأنشأ الخليفة الناصر إلى جانب تربة زوجته السيدة سلجوقي خاتون (ت٥٨٩ هـ[١]/١١٩٢م) رباطاً عرف برباط سلجوقي خاتون، وكان في هذا الرباط خزانة كتب احتوت على نفائس الكتب. وخزانة هذا الرباط كانت من الأهمية بحيث أناط الخليفة الناصر مهمة اختيار كتبها إلى مبشر الرازي الذي كان يقوم باختيار الكتب للمدرسة النظامية و دار المسناة[٢].

وأنشأت السيدة زمرد خاتون في محله المأمونية رباط المأمونية. وفتح هذا الرباط سنة (٥٧٩[٣]هـ/١١٨٢م). وقد كان في الأصل داراً للأميرسنقر المستنجدي، أخذت تلك الدار منه بعد القبض عليه، وعملته رباطاً للصوفية[٤].

كان هذا الرباط على درجة كبيرة من الرقي العلمي بما احتواه من كتب جعلته محجاً لأهل العلم، فيقصدونه للبحث والنقاش، ويتولى الإشراف عليه مشاهير العلماء. ونستخلص هذه الأهمية مما ذكره ياقوت الحموي[٥] "فقد حضر الوجيه النحوي بدار الكتب التي برباط المأمونية وخازنها يومئذ أحمد بن هبة الله: فجرى حديث المعري فذمه الخازن وقال: كان عندي في الخزانة كتاب في تصانيفه فغسلته، فقال له الوجيه: وأي شيء هذا الكتاب؟ فقال: كان كتاب نقض القرآن الكريم. فقال له: أخطأت في غسله فعجب الناس، وتغامزوا عليه، واستشاط ابن هبه الله وقال: مثلك ينهى عن هذا ؟ قال: نعم. لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن

---

(١) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١٨٨؛ ابن الكازروني، مختصر، ص٢٠٥، الغساني، العسجد المسبوك، ص٢٠٥.

(٢) القفطي، أخبار الحكماء، ص١٧٧؛ كوركيس عواد، خزائن الكتب، ص٢٣٢.

(٣) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، مخ، ج٣، ورقه ١١أ؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق١، ص٣٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ج٨، ق١، ص٣٦٥.

(٥) معجم الأدباء، ج ٥، ص٢٢٦٦؛ ساعاتي، الوقف، ص١٠٨- ٩.

أو خيـــر منه أو دونه، فأن كان مثله أو خيرا منه حاشى لله أن يكون ذلك فلا يجب التفــريط فـــي مثله، وإن كان دونه وذلك مما لا شك فيه،فتركه معجز للقرآن، فلا يجب التفريط به، فاستحسن الجماعة قوله، ووافقه ابن هبه الله على الحق وسكت".

ومن الكتب التي احتواها هذا الرباط "كتاب الفنون" لأبي الوفاء علي بن عقيل، قـــال سبط بن الجوزي[١]. "هو مائتا مجلد جمعه طول عمره، وقد طالعت منه في بغداد في وقف رباط المأمونية نحو من سبعين مجلداً.

ورباط الحريم الطاهري من الربط التي أنشأها الخليفة الناصر سنة (٥٨٩هـــ/ ١١٩٢م). وقـــد نقـــل إلـــيه الناصر كعادته الكثيرمن الكتب من مكتبته الخاصة[٢]. وصفه ابن الأثير بقوله: "و هو من أحسن الربط، و نقل إليه كتب كثيرة من أحسن الكتب"[٣].

وأنشـــأ الخليفة الناصر رباط الأخلاطية بمشرعة الكرخ مجاور لتربة زوجته سلجوقي خاتون[٤]. وقد كان فيه خزانة كتب مشتركة بينه وبين التربة[٥].

وينسب رباط ابن النيار إلى الشيخ عزالدين ابن النيار (ت٦٥٦هـــ /١٢٥٨م) ويقـــع بالجانـــب الشـــرقي مـــن بغداد. وقد توفرت فيه خزانة كتب، قال عنها ابن الفوطي[٦]: "أنشأ به خزانه للكتب النفيسة والخطوط المنسوبة".

---

(١) مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٨٤٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص١٠٤.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٢.

(٥) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٢٩٣، معروف، أصالة الحضارة العربية، ص٤٦١.

(٦) تلخيص، ج ٤، ق١، ص١٣٣.

وحرص الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء على اقتناء مجموعة ضخمة من الكـتب فـي قصورهم ومنازلهم. وإن كنا نسميها خاصة لأنها تخص أفراد معينين أنشـأوها لفائـدتهم ومصـلحتهم، ومن أموالهم الخاصة. إلا أنها كانت في "الغالب نصـف عامـه أن جـاز التعبير[١] "، فبعضهم يفتحها للناس جميعا أو يوقفها على طلاب العلم كما فعل ابن المارستانية[٢].

اهـتم الخلفاء في هذه الفترة بالعلم، فألف الخليفة الناصر لدين الله كتاب "روح العارفين"، وأجاز للعلماء بالرواية عنه . ومن الطبيعي أن هذا الاهتمام كان يرتبط معـه الاهتمام بالكتب واقتنائها فكان له خزانة كتب عظيمة الشأن. ذكر القفطي[٣]: "أنـه أوقف جزءاً منها على خزانة دار المسناة [٤] التي استحدثها الخليفة الناصر، وعلى خزانة الرباط الخاتون، و خزانة المدرسة النظامية"، كما أنه أنشأ دار المسناة وجعلهـا دار علـم، وفـيها مكتبة خاصة بها، اعتمد في اختيار كتبها على مبشر الرازي المشار إليه سابقاً[٥].

وقـد حـرص الناصر على تعليم ولديه أبي نصر محمد (الخليفة الظاهر) وأبي الحسـن علـي، وقـد حـدث الظاهر عن والده وروى الحديث عنه[٦]. كما أجاز

---

(١) حمادة، المكتبات في الإسلام، ص٨٦.

(٢) الذهبي، مختصر، ج٢، ص١٨٧.

(٣) أخبار الحكماء، ص١٧٧.

(٤) دار المسناة على ما ذكره جواد هي البناء العتيق الذي تقوم بقاياه اليوم في قلعة بغداد على ضفة دجله اليسرى. للمزيد حول دار المسناة أنظر جواد، دار المسناة الناصرية، ص ٢١-٣٨.

(٥) القفطي، أخبار الحكماء، ص١٧٧؛ عواد، خزائن الكتب، ص٢٣١.

(٦) الإربلي، خلاصة الذهب، ص ٢٨٤؛ الذهبي، مختصر، ج١، ص١٩.

لمجموعة من العلماء بالرواية عنه(١). وكان الخليفة المستنصر بالله فيه ميل إلى العلوم محسن للخط، ومن محبته للعلوم أنشأ خزانة للكتب، جمع فيها من أنواع العلوم على اختلافها وتباينها(٢).

وفي سنه (٦٤٢هـ/١٢٤٣م) أنشأ الخليفة المستعصم خزانتين للكتب وجعل فيهما من نفائس الكتب من سائر العلوم(٣) وكتب على وجه الأولى منها:

أنشأ عمارتها خليفة عصره لا زالت الأملاك من أنصاره
مستعصم بالله من أوصافه جمع العلوم بليله ونهاره
فأصولها من بيته وفروعها تقرأ عليه وكتبه في داره

وكتب على وجه الأخرى.

خليفة الله قد اكملت بنيتها فليس في وقتها شيئاً يدانيها(٤)

قال ابن الطقطقا(٥) في وصف المستعصم بالله: "وفي بعض الأوقات كان يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة ". وسلم المستعصم هذه الخزانة إلى عبد المؤمن(٦) الذي كان يجلس بباب الخزانة ينسخ له ما يريد(٧).

---

(١) ابن الكازروني، مختصر، ص٢٥٥.

(٢) الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٦.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ص٥١٦.

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٥) الفخري، ص٣٣٣.

(٦) هو صفي الدين عبد المؤمن بن فاخر الارموي كان مقربا من المستعصم حتى صار من خواصه. ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٣٣.

(٧) المصدر نفسه والصفحة.

نشأ الوزير مؤيد الدين محمد بن القصاب مشتغلا بالعلم والأدب، وبرع في علوم الرياضات والمساحـــات والمقاسات وأنشأ خزانه كتب في درب الخياطين ببغداد[١].

وشيد الطبيب أبو بكر مجد الدين عبيد الله بن علي (ت٥٩٩هـــ/١٢٠٢م). دارا بدرب الشاكرية[٢] وسماها دار العلم، وجعل فيها خزانه كتب، أوقفه كتب، طلاب العلم[٣]. لكن يبدو أن دار العلم المارستانية أصابها الضرر بعد حبس ابن المارستانية، حيث بيعت كتبه التي أوقفها في تلك الدار من قبل السلطة آنذاك مع سائر أمواله[٤].

وكان لأبي الخير مسيحي بن أبي البقاء الطبيب (ت ٦٠٨هـــ/١٢١١م) خزانة كتب، ضمت كتبا كثيرة في الحكمة وما يتعلق بها، خرجت عن الحصر من الكثرة، وقيل أنه إذا وقعت في يده نسخه من كتاب وخشي المزايدة عليه خرمه لينقص من ثمنه ويبتاعه[٥].

---

(١) ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٢٤.

(٢) تقع في الجانب الشرقي من بغداد بجوار محله نهر المعلى. ابن الجوزي، المنتظم، ج٧، ص٤٤.

(٣) الذهبي، مختصر، ص١٨٧.

(٤) الرحيم، الخدمات العامة، ص١٧٢.

(٥) القفطي، أخبار الحكماء، ص٢١٨، عسيري، الحياة العملية، ص٢٠٣.

وكان لعبد السلام بن الشيخ عبد القادر الجيلاني مكتبة ضخمة حوت كتبا كثيرة في علوم الأوائل، واتهم بالتعطيل، وأنه يرجع إلى أقوال الفلاسفة، فكبست داره وأحرقت كتبه(١).

وظهــر في هذا الفترة نوع جديد من المكتبات والتي يمكن أن نسميها مكتبات التــرب (المقابــر). ولعل السبب في إنشائها كما نعتقد ديني محض، يرتبط بحديث الرســول صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"(٢). ولديمومة هذه الصدقة فقد أوقفوا هذه الكتب مدى الحياة وجعلوا لها الحفظة والخزنة.

أنشأت السيدة سلجوقي خاتون زوجة الخليفة الناصر تربة خاصة بها، لكنها لم تـتمها، فأكمل بناءها الخليفة الناصر، تقع بالجانب الغربي عند مشهد عون ومعين ولدي الإمام علي –عليه السلام –(٣) . وبذلك تكون مجاورة لرباط سلجوقي خاتون وقفت بها خزانة كتب نفيسة "تعار لمن طلبها بالرهن"(٤) وفي هذا النص دلالة على

(١) وقد فصل المؤرخون حادثه إحراق كتب الجيلاني. فقد كان عبد السلام الجيلاني كما هو معروف من بيت تصوف و علم، وكان قد قرأ علوم الأوائل، فأمر الناصر بأن تخرج هذه الكتب و تحرق بحضور الناس، واحضر لها عبيد الله البكري المعروف بابن المارستانية وجعل له منبر فصعد عليه وخطب خطبه لعن بها الفلاسفة ومن يقول قولهم وذكر عبد السلام، و كان يخرج الكتب: كتابا فيتكلم عليه و يذمه ثم يلقيه في النار. القفطي، أخبار= =الحكماء، ص١٥٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٥- ٦؛ حمادة، المكتبات في الإسلام، ص ٢٠٠- ١.

(٢) رواه الخمسة إلا البخاري. ناصف، التاج الجامع، ج١، ص٧٥.

(٣) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١١٧.

(٤) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١١٨.

طريقة الاستعارة الملزمة والتي بدورها تعكس القيمة العلمية لهذه الخزانة، ولما كانت هذه التربة مجاورة لرباطها فأصبحت هذه الخزانة مشتركة بينهما[١].

وشملت تربة زمرد خاتون المجاورة لقبر الشيخ معروف الكرخي في الجانب الغربي من بغداد على خزانة كتب[٢]. قال أبو شامة[٣]: " وقفت عليها الأوقاف" وبالرغم من عدم إشارة النص السابق إلى نوعيه تلك الأوقاف، ولكن الدارج أن بينها الكتب، لأنها أصبحت نواة لمكتبة عامرة، ومما يؤكد أنه سنة عندما توفي نجاح الشرابي(٦١٥هـ/١٢١٨م) "وقفت كتبه في هذه المكتبة"، وكانت له خمسمائة مجلدة، فأوقفها في تربة أم الخليفة، وكتب عليها اسم الشرابي"[٤].

---

(١) الرحيم، الخدمات العامة، ص١٦٣.

(٢) أبو شامة، الذيل، ص١١٤.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة، ج٨، ق٢، ص٦٠٠؛ أبو شامة، الذيل، ص١١٤.

الخاتمة

بعد دراسة الحياة الاجتماعية في بغداد من (٥٧٥-٦٥٦هـ/١١٧٩-١٢٥٨م).
نستطيع القول أن المجتمع البغدادي كان ينقسم إلى فئتين: المسلمين "سنة وشيعة ، وأهل الذمة "يهود ونصارى". وكانت سياسة الدولة تجاه هذه الفئات تمتاز بعدم الثبات، فأحياناً نجدها تقف موقفاً محايداً وعادلاً، تعمل من خلال هذه السياسة على توحيد* فئات الشعب، كما كان في أيام الخليفة الناصر لدين الله. وأحياناً أخرى كانت تدعم أحدى الفئات ضد الأخرى كما حدث في أيام الخليفة المستعصم بالله، عندما دعم السنة ضد الشيعة. ولاحظنا أن أسرة الخليفة لم يكن لها أي دور في النشاط السياسي أو الاجتماعي باستثناء ما قامت به نساء الخلفاء من أعمال الخير، وذلك لأن أفراد هذه الأسرة في هذه الفترة ابعدوا عن الحياة السياسية "معتقلون اعتقالاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون".

كانت التنظيمات الاجتماعية مؤيدة للسلطة، لما تتلقاه من دعم ونفقات من الحكومة، فتيار التصوف كان المظلة التي يستظل بها البطالون والعاطلون عن العمل، يمكنهم الإنضمام إلى إحدى طرقها للحصول على الرعاية باعتبارهم منقطعين للعبادة.

كان تنظيم الفتوة أهم تلك التنظيمات في هذه الحقبة. فعلى الرغم من أن هذا التيار الشعبي كان جزء من تراث العرب المسلمين قبل هذه الحقبة، إلا إنه لم يكن تياراً رسمياً يتلقى الدعم من الدولة. لكن وبعد أن تحول إلى تنظيم اجتماعي ارتأى الخليفة الناصر لدين الله أن يجمع من خلاله شمل المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي، لأجل التصدي للأخطار الخارجية، وتوحيد عناصر المجتمع بمختلف فئاته. ولأهمية هذه المنظمة فقد انتظم الخليفة في صفوفها، وجعل نفسه المرجع الأولى، واليه ينتسب جميع الفتيان بمختلف أنحاء العالم الإسلامي.

ولم تختلف الحياة اليومية في هذه الحقبة عن سابقاتها من الحقب، فتجد أن الظروف السياسية قد انعكست على مجمل جوانب الحياة الاجتماعية، فالشيعة وبدعم

من قادتهم الذين تولوا المناصب المهمة كابن الصاحب الذي تولى أستاذية الدار للخليفة الناصر في بداية حكمه، استطاعوا أن يعبروا عن آرائهم ومعتقداتهم وإحياء شعائرهم بكل حرية. في المقابل نجد أن سياسة المستعصم بالله كات على النقيض من ذلك، فقد الذي اتبع سياسة سنية بالكامل، ومنع الشيعة من قراءة المقتل إلا في مقام موسى الكاظم.

أما وسائل التسلية، وخاصة الفروسية ورياضة السعي في هذه الحقبة فلم يكن دافعها الوحيد التسلية وملء الفراغ، بل كانت غايتها أكبر فهي مرتبطة بالفتوة، فمن صفات الفتى الشدة والبأس، وعليه أن يمارس مختلف الرياضات التي تؤهله الدخول بمنظمة الفتوة.

وبعد دراسة الخدمات والمرافق العامة لمدينة بغداد، تبين أن معظم هذه المرافق كالمدارس البيمارستانات والمكتبات، قامت بجهود أفراد، ولم يكن للدولة ذلك الدور الفعال في هذا المجال. كما أسهمت مؤسسة الوقف إسهاما كبيراً في إنشاء هذه المؤسسات والمحافظة على ديمومتها. وكان الوقف يعبر عن شعور ديني، يعود إلى تقوى صاحب الوقف ورجائه الثواب من الله، بسبب ما كان للدين من أثر على حياة الناس، فضلاً عما طبعت عليه النفس البشرية من حب الشهرة والثناء، والميل إلى تخليد الذكر بعد الموت.

قائمـــة المصــــادر والمراجـــع

أ- المخطـــــوطات

- البخاري، محمد بن يحيى (مجهول تاريخ الوفاة)

١- **رسالة في فضيلة العمامة**، مخطوطة ضمن مجموعة من الرسائل في مكتبة الأوقاف، بغداد، رقم ٣٧٩٩.

- البصري، علي بن أبي الفرج (عاش في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)

٢- **المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية**، ميكروفيلم مصور عن مخطوطة باريس المرقمة (٦١٤٤) محفوظة في المكتبة المركزية الثانية لجامعة بغداد، رقم ٢٢٥.

- ابن الدّبيثي، أبو عبد الله محمد بن سعيد الواسطي (ت٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م)

٣- **ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد**، الجزء الثاني صورة عن المخطوطة بدار الكتب الوطنية بباريس، محفوظة في مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب جامعة بغداد، رقم ١٢٤٢، والجزء الثالث صورة عن المخطوطة بدار الكتب الوطنية بباريس محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي، رقم ٣١ / تاريخ.

- ابن الشعار، أبو البركات بن المبارك بن أبى بكر حمدان (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)

٤- **عقود الجمان في شعراء هذا الزمان**، نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة اسعد أفندي باستانبول محفوظة في مكتبة جامعة مؤتة (المجموعات الخاصة).

- ابن أبي عذيبة، شهاب الدين أحمد بن محمد عمر (ت٨٥٦هـ/١٤٥٢م).

٥- **أنسان العيون في مشاهير سادس القرون**، صورة عن المخطوطة في مكتبة المجمع العلمي العراقي، رقم ١٠٨٣.

a. الغياثي، عبد الله بن فتح الله البغدادي (كان حيا سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٨م).

٦- **التاريخ الغياثي**، صورة عن المخطوطة محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي رقم ١٧ تاريـــخ.

- القرمشهري، محمد بن ولي (مجهول تاريخ الوفاة)
٧- **رسالة في شؤون السقايات**، محفوظة ضمن مجموعة رسائل في المكتبة القادرية ببغداد، رقم ١٤٥٦.
- ابن ميمون، عبد الله (عاش في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي).
٨- **الإفادة والتبصير لكل رام مبتدئ وما هو مهير بالسهم الطويل والقصير**، صورة عن المخطوطة، رقم ١٢١٣ في مكتبة كوبرلي في استانبول، نشرتها جامعة فرانكفورت ألمانيا، بعناية فؤاد سزكين.

ب) المصادر المطبوعة

٩. **القرآن الكريم**
- الابشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت٨٥٠ هـ/١٤٤٦م).
١٠. **المستطرف في كل فن مستظرف**، ٢ج، مكتبة الحيل، بيروت، ١٩٨٨.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)
١١- **الكامل في التاريخ** ، ١٢ جـ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ م.
-ابن الأخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت٧٢٩هـ / ١٣٢٩م)
١٢- **معالم القربة في أحكام الحسبة**، عني بنقله وتصحيحه روبين لوي ، مطبعة دار الفنون ، كمبرج ، ١٩٣٧م .
- الإربلي ، عبد الرحمن سنبط قنيتو (ت٧١٧ هـ / ١٣١٧م)
١٣- **خلاصة الذهب المسبوك من سير الملوك** ، صححه مكي السيد جاسم ، مكتبة المثنى، بغداد ، ١٩٦٤م.
- الأزدي ، أبو المطهر بن أحمد (عاش في القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي)
١٤- **حكاية أبي القاسم البغدادي**، طبعة بالأوفست عن طبعة كرل ونترا، هيدلبرج، ١٩٠٢ م .
- ابن الأزرق ، أبو عبد الله محمد بن علي (ت٨٩٦هـ / ١٤٩٧م)

١٥- **بدائع السلك في طبائع الملك** ، تحقيق علي النشار ، ٢ج، دار الحرية للطباعة ، بغداد، ١٩٧٧م.

- الإسنوي ، جمال الدين عبد الرحيم (ت٧٧٢هـ / ١٣٧٠م)

١٦- **طبقات الشافعية** ، تحقيق عبد الله الجبوري، ٢ جـ، ط[١]، مطبعة الإرشاد، بغداد ، ١٩٧٠م.

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (ت٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)

١٧-**عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، تحقيق نزار رضا، ٢ج في مجلد، دار مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) .

- الأيوبي ، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت٦١٧هـ / ١٢٢٠م)

١٨- **مضمار الحقائق وسر الخلائق** ، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة ، ١٩٦٨م.

- ابن بسام ، محمد بن أحمد المحتسب (عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)

١٩- **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** ، تحقيق حسام الدين السامرائي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨م .

- ابن بطلان ، أبو الحسن بن الحسن بن عبدون (ت٤٥٥هـ / ١٠٦٩م)

٢٠- **رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد** ، تحقيق عبد السلام هارون ، ضمن مجموعة من نوادر المخطوطات ، ٤ج ، مطبعة مصطفي البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٧٣

- ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

٢١- **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** ، تحقيق علي المنتصر الكتاني ، ٢جـ ، ط[٣] ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٨١م .

-البغدادي ، محمد بن الحسن بن محمد الكاتب (ت٦٢٣هـ/١٢٢٦م)

٢٢- **الطبيـــــخ**، أعاد نشرة فخري البارودي ، دار الكتب الجديدة ، بيروت ، ١٩٦٤م

-التادفـــي ، محمد بن يحيي الحنبلي (ت٩٦٣هـــ / ١٥٥٦م)

٢٣- **قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني** ، مصر ، (د.ت) .

-التطيـــلي ، بنيامين بن يونة (ت٥٦٩هـــ/١١٧٣م)

٢٤- **رحلـــة بنيامين** ، ترجمة عزرا حداد ، ط[١] ، المطبعة الشرقية ، بغداد ، ١٩٤٥م.

-ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨٧٤هـــ/١٤٦٩م)

٢٥- **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة** ، ١٢ج ، عن طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة، (د.ت).

- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـــ / ٨٦٩م)

٢٦- **الحيوان** ، تحقيق عبد السلام هارون ، ٧جـــ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٥٨ م .

- ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت٦١٤هـــ / ١٢١٧م)

٢٧- **رحلة ابن جبير المسماة رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك** ، مكتبة الهلال ، بيروت، ١٩٨١م .

-ابن جماعة ، إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد الكناني (ت٧٧٣هـــ / ١٣٨١م)

٢٨- **تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم** ، تحقيق عبد الأمير شمس الدين ، ط٢ ، دار اقرأ ، بيروت ، ١٩٨٦م .

- الجواليقي ، أبو منصور مرهوب بن أحمد (ت٥٤٠هـــ /١١٤٥م)

٢٩- **المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم** ، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦١هـــ .

- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـــ / ١٢٠١م)

٣٠- **أخبار الحمقى والمغفلين**، باعتناء عبد القادر المغربي، مطبعة التوفيق ، دمشق ، ١٣٤٥هـــ.

٣١- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** (٥-١٠جـ) مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الهند ، ١٣٥٧-١٣٥٩هـ .

٣٢- **أخبار الظراف والمتماجنين**، راجعه وقدم له عبد الرزاق سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، (د.ت).

٣٣- **الأذكياء** ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ط٥ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٣م .

٣٤- **القصاص والمذكريـن**، تحقيق محمد لطفي الصباغ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٣م.

٣٥- **تلبيس إبليس** ، تحقيق السيد الجميلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٥

- الجيلاني ، عبد القادر (ت٥٦١هـ/١١٦٥م) .

٣٦- **فتوح الغيب** ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٦٠ م .

٣٧- **الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل** ، تحقيق فرج توفيق الوليد ، ٣جـ ، مكتبة الشرق الجديد ، بغداد ، ١٩٨٧م .

- الحسيني ، تاج الدين بن محمد بن حمـزة (ت ٩٢١هـ /١٥١٥م)

٣٨- **غاية الاختصار في أخبـار البيوتات العلويـة المحفوظة من الغبار** ، مطبعة بولاق ، ١٣١٠هـ .

- الحسيني، صدر الدين أبو الحسن علي (عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) .

٣٩- **أخبار الدولة السلجوقية** ، اعتنى بتصحيحه محمد إقبال ، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٤م .

- الحصني ، تقي الدين أبو بكر محمد (كان حيا سنة ٨٠٨ هـ/١٤٠٥م)

٤٠- **كفاية الأخبار في حل غاية الاختصار** ، دار الفكر ، عمان ، (د.ت) .

- الحموي ، محمد بن علي (ت٦٤٤هـ / ١٢٤٦م) .

٤١- **التاريخ المنصوري** ، المسمى تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان ، تحقيق أبو العيد دودو، مطبعة الحجاز ، دمشق ، ١٩٨١م .

- الحميري ، أبو عبد الله محمد بن أبي عبد الله (ت٧٢٧هـ /١٣٢٥م)

٤٢- **الروض المعطار في خبر الأقطار** ، تحقيق إحسان عباس ، ط ٢ ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٤ م .

- الحنبلي ، أحمد بن إبراهيم بن نصر الله (ت٨٧٦/١٤٧١م)

٤٣- **شفاء القلـــوب في مناقب بني أيوب** ، تحقيق ناظم رشيد ، دار الحريـــــة للطباعة ،بغداد ، ١٩٧٨م .

-الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)

٤٤- **تاريخ بغداد** ، ١٤جـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (د.ت) .

- الخطيب الشربيني ، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (عاش في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي)

٤٥- **مغنى المحتاج إلى معرفة معاني الفاظ المنهاج** ، ٢جـ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ، ١٩٣٢ م .

- ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ /١٢٨٣م)

٤٦- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، تحقيق إحسان عباس ، ٨جـ ، دار صادر ، بيروت ،١٩٧٢ م .

- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ / ١٤٠٥ م) .

٤٧- **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، ٥ج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م.

- الخوارزمي ، أبو عبد الله محمد بن يوسف (٣٨٣هـ / ٩٩٣م)

٤٨- **مفاتيح العلوم** ، المطبعة المنيرية ، القاهرة ، ١٣٤٢م .

- ابن الدبيثي ، أبو عبد الله محمد بن سعد (ت٦٣٧ هـ / ١٢٤٠م).

٤٩- **ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد** ، حقق حرف الميم منه بشار عواد معروف ، ٢جـ، الجزء الأول ، دار السلام ، بغداد ، ١٩٧٤ ، والجزء الثاني ، دار الحرية للطباعة ، بغداد، ١٩٧٩ م .

- ابن دحية ، أبو الخطاب عمر بن أبي علي (٦٣٣هـ /١٢٣٥م) .

٥٠- **النبراس في تاريخ بني العباس** ، صححه وعلق عليه عباس العزاوي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٤٦م .

- الدمشقي ، أبو الفضل جعفر بن علي (عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي)

٥١- **الإشارة إلى محاسن التجارة** ، مطبعة المؤيد ، دمشق ، ١٣١٨هـ .

- ابن الدمياطي ، الحافظ شهاب الدين أحمد بن ايبك (ت٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م)

٥٢- **المستفاد من ذيل تاريخ بغداد للحافظ محيى الدين بن النجار** ، حققه وعلق عليه محمد مولد خلف ، أشرف على التحقيق بشار عواد معروف ، ط١، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٦م .

- الدميري ، كمال الدين محمد بن موسى (ت٨٠٨هـ /١٤٠٥ م)

٥٣- **حياة الحيوان الكبرى** ، ٢جـ في مجلد ، المكتبة الإسلامية ، (د.م) ، (د.ت)

- الديار بكري ، حسين بن محمد بن الحسن (ت٩٩٦هـ /١٥٨٨م)

٥٤- **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس** ، ٤جـ في مجلدين ، بيروت ، (د.ت) .

- الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م)

٥٥- **المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد القرشي** ، ٣جـ ، الأول تحقيق مصطفى جواد ، مطبعة المعارف ، بغداد، ١٩٥١ ، الجزء الثاني تحقيق مصطفى جواد ، مطابع الزمان، بغداد، ١٩٦٣، والثالث تحقيق مصطفى جواد ، ومراجعة ناجي معروف، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٧م

٥٦- **سير أعلام النبلاء** ، تحقيق بشار معروف ومحي الدين سرحان ، الأجزاء ٢٢ و ٢٣ ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٥ .

٥٧- **العبر في خبر من غبر** ، حققه وضبطه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ٣جـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،(د.ت) .
٥٨- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام** ، تحقيق بشار معروف والشيخ شعيب الارناؤوط وصالح عباس، ٤ طبقات تغطي الفتـرة ٦٠٠هـ-٦٤٠ هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٨م .

- الراوندي ، محمد بن علي بن سلمان (كان حيا سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م)

٥٩- **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية** ، عربة إبراهيم الشواربي وعبد النعيم محمد حسنين ، دار القلم ، القاهرة ،١٩٦٠ م.

- ابن رجب ، أبو الفرج عبد الرحمن بن احمد الحنبلي (ت٧٩٥هـ / ١٣٩٢م) .

٦٠- **الذيل على طبقات الحنابلة** ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ٢جـ ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٢ م.

- الرفاعي ، السيد أحمد (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م)

٦١- **الحكم الرفاعية** ، جمعها واعدها ياسر سعدي إبراهيم ، مكتبة الشرق الجديد ، بغداد، ١٩٩٠م.

-ابن الساعي ، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب (ت٦٧٤هـ /١٢٧٥م)

٦٢- **الجامـــع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير** ، تحقيق مصطفي جواد ، ج٩ ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ، ١٩٣٤م .
٦٣- **نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء** ، تحقيق مصطفى جواد ، دار المعارف ، مصر ،(د.ت).

- سبط بن التعاويذي ، أبو الفتح محمد بن عبد الله (ت٥٨٣هـ /١١٨٧م)

٦٤- **الديوان** ، نشره مرجليوث ، مطبعة المقتطف ، القاهرة ، ١٩٠٣م .

- سبط بن الجوزي ، أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي (ت٦٥٤هـ /١٢٥٦م)

٦٥- **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، الجزء الثامن في مجلدين ، ط1 ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيد أباد ، ١٩٥١-١٩٥٢م .

- السبكي ،تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت٧٧١هـ /١٣٦٩م)
٦٦- **طبقات الشافعية الكبرى** ،تحقيق محمد الحلو ومحمد الطناحي ، ٦جـ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٤-١٩٦٨م .

- ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى المغربي (ت٦٨٥هـ /١٢٨٤م)
٦٧- **كتاب الجغرافيا** ، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٠م .

- السهروردي ،شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله (ت٦٣٢هـ / ١٢٣٥م)
٦٨- **عوارف المعارف** ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٦م .

- السهروردي ، أبو النجيب عبد القاهر (ت٥٦٣هـ/١١٦٧م)
٦٩- آداب **المريدين** ، حققه وقدم له مناحيم ميلسون،منشورات معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية ، الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٧٧م .

- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)
٧٠- **طبقات الحفاظ** ، تحقيق علي عمر ، ط١ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
٧١- **تاريخ الخلفاء** ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨م .

- أبو شامه ، أبو محمد بن عبد الرحمن بن اسماعيل (ت٦٥٦هـ/١٢٦٦م) .
٧٢- **تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين** ، صححه الشيخ محمد زاهد الكوثراني ، ط٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٤م.
٧٣- **الروضـــتين في أخبار الدولتين** ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٨٧٠ م.

- ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت٦٣٢هـ / ١٢٣٤م)
٧٤- **النوادر السلطانية والمحاســـــن اليوسفيية** ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة، ١٩٦٤ م.

- الشطنوفي ، نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت٧١٣هـ / ١٣١٣ م)
٧٥- **بهجة الأسرار ومعدن الأنوار** ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ، ١٢٣٠هـ .

- الشعراني ، عبد الوهاب بن أحمد بن علي (ت٩٧٣هـ / ١٥٦٧م)

٧٦- **الطبقات الكبرى المسمى لواقح الأنوار في طبقات الأخيار** ، ٢ج ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٥٤م.

- شيخ الربوة ، أبو عبد الله محمد بن أبي طالب (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)

٧٧- **تحفة الدهر في عجائب البر والبحر**، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية ، بطرسبورغ ، ١٨٦٥ م .

- الشيزري ،عبد الرحمن بن نصر (ت٥٨٩هـ / ١١٩٣ م)

٧٨- **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** ، نشره السيد الباز العريني ،مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٦ م .

- الشيوخي ، احمد بن محمد بن مهدي الرفاعي (ت١٢٨٧هـ /١٨٧٠ م)

٧٩- **بوارق الحقائق** ، عني بنسخه وتحقيقه عبد الرحيم بن سليم بن عبد الباسط ، مكتبة النجاح ، طرابلس ليبيا ، (د.ت) .

- الصابئ ، أبو الحسن الهلال بن المحسن (ت٤٤٨هـ /١٠٥٦ م)

٨٠- **رسوم دار الخلافة** ، تحقيق ميخائيل عواد ، بغداد ،١٩٦٤ م .

- ابن الصابوني ، جمال الدين أبو حامد بن محمد (ت٦٨٠هـ / ١٢٨١م) .

٨١- **تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب** ، ط١، مكتبة عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٦ م.

- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣ م)

٨٢- **نكت الهميان في نكت العميان** ، وقف على طبعه احمد زكي بك ، المطبعة العالمية ، مصر ،١٩١١م .

- ابن الطقطقا ، محمد بن علي بن طباطبا ، (ت٧٠٩هـ /١٣٠٩م)

٨٣- **الآداب السلطانية والدول الإسلامية** ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ م .

-ابن عبد الحق ، صفي الدين عبد المؤمن (ت٧٣٩هـ/ ١٣٠٨م)

٨٤- **مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع** ،تحقيق علي محمد البجاوي، ٣ جـ، ط١ ، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م .

- ابن العبري ، أبو الفرج غريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـ /١٢٨٦م)

٨٥- **تاريخ مختصر الدول** ، دار المسيرة ، بيروت ، (د.ت) .

- ابن العماد ،أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت١٠٨٩هـ /١٦٧٨م) .

٨٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ج في أربعة مجلدات ، دار الكتب العلميـــة ، بيروت (د.ت) .

- العماد ، محمد بن حامد الكاتب الأصفهاني (ت٥٩٧هـ /١٢٠١م)

٨٧- **خريدة القصـــر وجريدة العصـــــر**، تحقيق محمد بهجة الأثري ، (القسم العراقي) ، المجلد الثاني ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٧٧م.

٨٨-**تاريخ دولة آل سلجوق** ، ط٢، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٨م.

٨٩- **الفتح القسي في الفتح القدسي** ، تحقيق محمـــد محمـــود صبح ، الدار القومية للطباعـــة والنشر ، بيروت ،(د.ت).

٩٠- **البرق الشامي** ، تحقيق فالـــح حسين ، جـ٥ ، ط١ ، منشورات مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ، ١٩٨٧ م.

- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ /١١١١ م)

٩١- **إحياء علوم الدين** ، ٤جـ ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٦م .

-الغساني ، أبو العباس إسماعيل بن العباس (ت٨٠٣ هـ/١٤٠٠م) .

٩٢- **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك** ، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ، دار البيان ، بغداد ، ١٩٧٥م.

- أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت٧٣٢هـ /١٣٣١م) .

٩٣- **المختصر في أخبار البشر** ، ٤جـ ، المطبعة الحسينية ، مصر ، ١٣٢٥هـ .

- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ / ١٤٠٤ م)

٩٤- **تاريخ ابن الفرات** ، تحقيق حسن محمد الشماع ، المجلد الخامس، الجزء الأول ، مطبعة دار الطباعة الحديثة ، البصرة ،١٩٧٠م.

-ابن فضل الله العمري ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)
٩٥- **التعريف بالمصطلح الشريف** ، تحقيق سمير الدروبي ، منشورات جامعة مؤتة ، الكرك ، الأردن ، ١٩٩٢ م .

- ابن الفقيه الهمذاني ، أبو بكر أحمد بن محمد (توفي بحدود سنة ٣٤٠ هـ /٩٥١)
٩٦- **بغداد مدينة السلام** ، تحقيق صالح أحمد العلي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٧م .

- ابن الفوطي ،كمال الدين عبد الرزاق بن تاج الدين الشيباني (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م) .
٩٧- **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب** ، حقق مصطفى جواد الجزء الرابع في أربعة أقسام ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٦٢ -١٩٦٥م . وحقق الجزء الخامس الحافظ محمد عبد القدوس القاسمي ، لاهور ، ١٩٤٠ م .

- القرشي ، محي الدين أبو محمد عبد القادر بن محمد (ت ٧٧٥ هـ/١٣٧٤ م)
٩٨- **الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية** ، ٢ج ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الهند ، ١٣٣٢هـ.

- القرماني ، أبو العباس الحسن بن عبد الله بن محمد (من أهل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)
٩٩- **آثار الأول في ترتيب الدول** ، بولاق ، مصر ، ١٢٩٥ هـ .

- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ،(ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م) .
١٠٠- **آثار البلاد وأخبار العباد** ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م .

- القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف (ت٦٤٦هـ/١٢٤٩ م)
١٠١- **أخبار العلماء بأخبار الحكماء** ، عني بتصحيحه محمد أمين ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٢٦ هـ .

- القلقشندي ، أبو العباس أحمد (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)

١٠٢- **مآثر الإنافة في معالـــــم الخلافة** ، تحقيق عبد الستار فراج ، ٣جـ ، ط٢ ، عالم الكتب ، بيروت ،١٩٨٠ م .
١٠٣- **صبح الأعشى في صناعة الانشا** ،١٤ج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م
- ابن الكازروني ، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)
١٠٤- **مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس**، تحقيق مصطفى جواد ، وضع فهارسه سالم الآلوسي ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٧٠م.
١٠٥- **مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية** ، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد ، منشورة في مجلة المورد العراقية ، المجلد الثامن ، العدد الرابع ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٩ م .
- ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ إسماعيل الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
١٠٦- **البداية والنهاية في التاريخ** ، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون ،١٤جـ ، ط٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م .
- الكتبي ، محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) .
١٠٧- **فوات الوفيـــــات والذيل عليها** ، تحقيق إحسان عباس ، ٥جـ ، ط١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣م .
- الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصري (ت٤٥٠/١٠٥٨م).
١٠٨- **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** ، تحقيق خالد الجميلي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ،١٩٨٩م .
- مجهـول (ينسب لابن الساعي).
١٠٩- **مختصر أخبار الخلفاء** ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، القاهرة ، ١٣٠٩هـ.
- مجهـول (ينسب لابن الجوزي)
١١٠- **مناقـــب بغداد** ، عني بهوامشه محمد بهجة الأثري ، مطبعة دار السلام ، بغداد ، ١٣٤٢هـ .
- مجهـول ينسب لابن الفوطي) .

١١١- **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعـــــة** ، تحقيق مصطفى جواد ، مطبعة الفرات ، بغداد ،١٣٥١ هـ .

- ابن المعمار ، أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم البغدادي (ت٦٤٢هـ/١٢٤٤م)

١١٢- **الفتـــوة** ، تحقيق مصطفى جواد وآخرون ، مطبعة شفيق ، بغداد ، ١٩٥٨م .

- المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي ،(٨٤٥هـ/١٤٤١م) .

١١٣- **الخطط المقريزية المسمى المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** ، ٤جـ ، مطبعة النيل ، مصر ، ١٣٧٦هـ .

١١٤- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ٣جـ ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

- المكي ، أبو طالب محمد بن علي (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م)

١١٥- **قوت القلوب** ، ٤جـ ، المطبعة المصرية ، القاهرة ، ١٣٥١هـ .

- المنذري ، زكي الدين أبو محمد بن عبد العظيم ، (ت٦٥٦هـ /١٢٥٨م)

١١٦- **التكملة لوفيات النقلة** ، تحقيق بشـار عواد معـروف ، ٤ج، مؤسسـة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١ م .

-ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/١٣١١م)

١١٧- **لسان العرب المحيط** ، أعاد ترتيبه على حروف المعجم يوسف خياط ونديم مرعشلي ،٤ جـ ، دار لسان العرب ، بيروت (د.ت) .

- النبهاني ، يوسف بن إسماعيل (ت١٣٥٠هـ/١٩٣١م)

١١٨- **جامع كرامات الأولياء** ، تحقيق إبراهيم عطوة ، ٢جـ ، المكتبة الثقافية ، ليبيا ، ١٩٩١م .

- ابن النجار ، أبو عبد الله محمد بن محمود (ت٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) .

١١٩- **ذيل تاريخ بغداد** ، ٣جـ ، منشور مع كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي في المجلدات ١٥،١٦،١٧، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (د.ت) .

- النسوي ،محمد بن أحمد (ت٦٣٩هـ / ١٢٤٩م)

١٢٠- **سيرة جلال الدين منكبرتي** ، تحقيق حافظ احمد حمدي ، مكتبة الاتحاد ، القاهرة ، ١٩٥٣م .

- النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (٧٣٢هـ /١٣٣٢م)

١٢١- **نهاية الإرب في فنون الأدب** ، الأجزاء ١-٢٣ منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، والجزء السابع والعشرون تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥م ، والجزء التاسع والعشرون تحقيق محمد ضياء الدين الدبس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣م .

- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)

١٢٢- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب** ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ٥جـ ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

- ابن الوردي ، زين الدين عمر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

١٢٣- **تاريخ ابن الوردي** ، ٢ جـ ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٩م .

- اليافعي ، أبو محمد عبد الله بن سعد عفيف الدين (ت٧٦٨هـ /١٣٦٥م)

١٢٤- **مرآة الجنان وعبرة اليقظان** ، دائرة المعارف النظامية ، حيدر آباد الهند ، ١٣٣٩هـ .

١٢٥- **نشر المحاسن الغالية في فضائل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية** ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦١م .

- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ /١٢٢٩م)

١٢٦- **معجم البلدان** ، ٥جـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،١٩٧٩م .

١٢٧- **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء** ، تحقيق إحسان عباس ، ٧ج ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣م .

- أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم (ت١٨٢هـ/ ٧٩٨م)

١٢٨- **الخراج**، تحقيق إحسان عباس ، دار الشروق، بيروت ، ١٩٨٥م .

- اليونيني ، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م)

١٢٩- **ذيل مـــرآة الزمان** ، ٤جـ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند ، ١٩٥٤م .

جـ- المراجع العربية والمعربة

- إبراهيم ، ناجية عبد الله

١٣٠- **قراءة جديدة في مؤلفات ابن اجوزي** ، مطبعة الديواني ، بغداد ، ١٩٨٧م .

١٣١- **ريف بغداد ، دراسة تاريخية لتنظيماته الإدارية وأحواله الاقتصادية (٥٧٥-٦٥٦ هـ/١١٧٩-١٢٥٨م)** ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٨م .

- إسماعيل ، اكتمال

١٣٢- **الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العراق (٤٤٧-٥٩٠هـ)** رسالة ماجستير غير منشورة، قدمت لجامعة دمشق ، ١٩٩٠م.

- الآلوسي ، عادل

١٣٣- **تجارة العراق البحرية مع اندونيسيا حتى أواخر القرن السابع الهجـري** ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٤ م.

- أمين ، حسين

١٣٤- **المدرسة المستنصرية** ، مطبعة شفيق ، بغداد ،١٩٦٠ م .

- الأنباري ، عبد الرزاق .

١٣٥- **منصب قاضي القضـــاة في الدولة العباسية حتى نهاية العصر السلجوقـي** ، ط١ ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، ١٩٨٧ م.

- بروكلمان ، كارل

١٣٦- **تاريخ الشعوب الإسلامية** ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٨م .

- ترتون ، أ . س

١٣٧- **أهل الذمة في الإسلام** ، ترجمة حسن حبشي ، دار المعارف ، القاهرة ، (د.ت)

- الجميلي ، رشيد

١٣٨- **دولة الأتابكــة في الموصل بعد عمــاد الدين زنكي (٥٢١-٦٣١هـ)** ط [١]، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٠ م .

- جواد ، مصطفى

١٣٩- **سيدات البلاط العباسي** ، دار الفكر العرب للجميع ، بيروت ، (د. ت) .

١٤٠- **في التراث العربي** ، (وهو مجموعة من البحوث والمقالات للباحث) قدم لها وأخرجها وفهرسها محمد جميل شلش وعبد الحميد العلوجي ، ٢جـ ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٥م .

- جواد ، مصطفى ، و أحمد سوسة

١٤١- **دليـل خارطـــة بغداد قديمـا وحديثـا** ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٨ م .

- حسن ، حسن إبراهيم

١٤٢- **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ، ٤جـ ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٧م .

- حسنين ، عبد النعيم محمد

١٤٣- **سلاجقـــة إيران والعراق** ، ط[٢]، مطبعة السعادة ، القاهرة ،١٩٧٠ م .

- حمادة ، محمد ماهر

١٤٤- **المكتبات في الإسلام نشأتـها وتطورها** ، مؤسسة الرسالـة ، بيروت ، ١٩٧٨م .

- حمدي ، حافظ احمد

١٤٥- **الدولة الخوارزمية والمغول** ، دار الفكر العربي ، بيروت ، (د.ت)

١٤٦- **دائرة المعارف الإسلامية** ، عدة مقالات .

- الدروبي ، إبراهيم

١٤٧- **البغداديون أخبارهم ومجالسهم** ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، ١٩٥٨ م .

- الدوري ، عبد العزيز .

١٤٨- **دراسات في العصور العباسية المتأخرة** ، مطبعة السريان ، بغداد ، ١٩٤٥ م .

١٤٩- **تاريخ العراق الاقتصـــــادي في القرن الرابع الهجري** ، ط٢ ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٧٤م .

١٥٠- **مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي** ، ط١، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨١م .

-دوزي ، رينهارد

١٥١- **المعجم المفصل بأسماء الملابس العربية** ، ترجمة أكرم فاضل ، مطبوعات وزارة الإعلام العراقية ، بغداد ،١٩٧١م .

١٥٢- **تكملة المعاجم العربية** ، نقله إلى العربية محمد سليم النعيمي ، ترجم منـــه حتى حـــرف الغين ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٧٨-١٩٩٢م .

- الديوه جي ، سعيد

١٥٣- **الفتوة في الإسلام** ، المطبعة الكلدانية ، الموصل ،١٩٥٠ م.

- الرحيم ، عبد الحسين .

١٥٤- **الخدمـــات العامـــة فـــي بغـــداد** ، (٤٠٠هـــ-٦٥٦هـ/١٠٠٩-١٢٥٨م) دار الحـــرية للطبـــاعة ، بغداد ، ١٩٨٧م

- رؤوف ، عماد عبد السلام .

١٥٥- **مدارس بغداد في العصر العباسي** ، ط١ ، مطبعة دار البصري ، بغداد، ١٩٦٦م

- زامباور ، ادوارد فون.

١٥٦- **معجم الأسرات الحاكمة في التاريـــخ الإسلامي** ، أخرجه محـــمد زكي حســـن وحسن أحمـــد محمود ، ٢ جـــ ، القاهرة ، ١٩٥١م .

- أبو زهرة ، محمد

١٥٧- **محاضرات في الوقف** ، دار الفكر العربي ، بيروت ،١٩٧١م.

- زيدان ، جرجي

١٥٨- **تاريخ التمدن الإسلامـــي** ، راجعه وعلق عليه حسين مؤنس، ٥جـــ، دار الهلال، بيروت ، ١٩٥٣- ١٩٥٧م .

- زيدان ، يوسف طه

١٥٩- **الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر** ، ط1 ، دار الجيل ،١٩٩١م .

- ساعاتي ، يحيي محمود

١٦٠- **الوقف وبنية المكتبة العربية** ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ، الرياض ، ١٩٨٨ م .

- السامرائي ، يونس

١٦١- **السيد أحمد الرفاعي حياته وآثاره** ، مكتبة الشرق الجديد ، بغداد ، (د.ت).

- سهيل ، جعفر صادق

١٦٢- **عبد القادر الجيلاني ومذهبه الصوفي** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قدمت لجامعة القاهرة ، ١٩٧٥م .

- شمس الدين ، عبد الأمير

١٦٣- **المذهب التربوي عند ابن جماعة** ، دار اقرأ ، بيروت ، ١٩٨٦م .

- صبرة ، عفاف سعيد .

١٦٤- **التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية** ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، ١٩٨٧م .

- عاشور ، سعيد عبد الفتاح

١٦٥- **الحركة الصليبية** ، ٢جـ ، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

- عبد الهادي ، يحيي احمد

١٦٦- **الفتوة في العصر العباسي الأخير (٥٧٥-٦٥٦هـ)** رسالة ماجستير غير منشورة قدمت للجامعة الأردنية ، ١٩٩٢م .

- العبود ، عبد الكريم

١٦٧- **الشعر في العراق من سقوط السلاجقة إلى سقوط بغداد** ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٦ م .

- العبود ، نافع توفيق

١٦٨- **الدولة الخوارزمية نشأتها وعلاقتها مع الدول الإسلامية . نظمها العسكرية والإدارية** (٤٩٠-٦٢٨هـ/١٠٩٧-١٢٣١م) ط[١]، مطبعة الجامعة ، بغداد ، ١٩٧٨م .

- العبيدى ، صلاح الدين .

١٦٩- **الملابس العربيـــــة الإسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والأثرية** ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ م .

- عثمان ، محمد عبد الستار

١٧٠- **المدينة الإسلامية** ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٢٨ ، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ، ١٩٨٨م .

- العلوجي ، عبد الحميد.

١٧١- **مؤلفات ابن الجوزي** ، دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٦٥م .

- العلي ، صالح أحمد

١٧٢- **بغداد مدينة السلام (الجانب الغربي) مطبعة المجمع العلمي العراقي** ، بغداد ، ١٩٨٥م .

- عيسى ، أحمد بك

١٧٣- **تاريخ البيمارستانات في الإسلام** ، ط٢، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨١م

- عسيري ، مريزن .

١٧٤- **الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقـــي** ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، ١٩٨٧م.

- الغامدي ، سعيد .

١٧٥- **صلاح الدين والصليبيون** ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ١٩٨٥م .

- فارمر ، هـــ . جـــ .

١٧٦- **تاريخ الموسيقـــى العربية** ، ترجمة حسين نصار ، دار الطباعة الحديثة ، القاهرة، ١٩٥٦م .

- فهد ، بدري محمد .

١٧٧- **العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري** ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٧ .
١٧٨- **تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٥١٢- ٦٥٦هـ /١١٥٧-١٢٥٨م)** ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٧٣ م .

- فوزي ، فاروق عمر

١٧٩- **النهوض العربي في العراق والأقاليم المجاورة في العصور العباسية المتأخرة** ، منشورات جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٨٩م .

- فيية ، جان موريس

١٨٠- **أحوال النصارى في خلافة بني العباس** ، ترجمة حسني زينة ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٩٠م .

- القزاز ، محمد صالح

١٨١- **الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير (٥١٢-٦٥٦هـ)** مطبعة القضاء ، النجف ، ١٩٧١م .

- الكبيسي ، حمدان

١٨٢- **أسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي** ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٩ .

- الكروي ، سلمان

١٨٣- **نظام الوزارة في العصر العباسي الأول** ، ط ٢، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م .
١٨٤- **طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول** ، ط ٢، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ، ١٩٨٩ م.

- لوبون ، غوستاف

١٨٥- **حضارة العرب** ، ترجمة عادل زعيتر ، ط ٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٧٩م .

- لويس ، برنارد

١٨٦- **الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام** ، تعريب محمد العزب موسى ، دار المشرق العربي ، بيروت ،١٩٨٠.

- متز ،آدم

١٨٧- **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة** ،ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ٢جـ ، بيروت ، ١٩٦٧م .

- مصطفى، شاكر

١٨٨- **مدن الإسلام حتى عصر المماليك** ، ٢جـ ، ط[1]، ذات السلاسل ، الكويت ، ١٩٨٧م .

- معروف ، ناجي

١٨٩- **المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة** ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٥م .

١٩٠- **تاريخ علماء المستنصرية** ، ٢جـ ، مطبعة العاني ، بغداد ،١٩٥٩، ١٩٦٥م .

١٩١- **حياة إقبال الشرابي** ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٦ م .

١٩٢- **العملة والنقود البغدادية** ، دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٦٧م .

١٩٣- **أصالة الحضارة العربية** ، مطبعة التضامن ، بغداد ، ١٩٦٩ .

- المنجد ، صلاح الدين .

١٩٤- **الحركات التقدميـة في العراق حتى الغزو المغولـي** ، دار العلم ، بيروت ، ١٩٦٢م .

- ناصف ، منصور علي .

١٩٥- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ، ٢جـ ، دار الفكر ، ١٩٧٥م.

- النقيب ، أحلام .

١٩٦- **سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية** ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد ، ١٩٨٨م .

- نيكلسن ، رينولد

١٩٧- **في التصوف الإسلامي وتاريخه** ، ترجمة أبو العلا عفيفي ،مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

- هنتس ، فالتر

١٩٨- **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري** ، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية ، ١٩٧٠م .

د- **البحوث والمقالات .**

- إبراهيم ، ناجية عبد الله

١٩٩- "**الجهود العلمية للمرأة في العراق في القرنين الخامس والسادس الهجريين**" ، بحث مطبوع على الآلة الكاتبة غير منشور .

- أمين ،حسين

٢٠٠- "**المدارس الإسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التعليم** " بحث منشور ضمن مجموعة بحوث بعنوان "بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية" ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٣م

- الأنباري ، عبد الرزاق ٢٠١- "**النظام القضائي** " ، بحث منشور ضمن موسوعة حضارة العراق ، ج٦ ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٨٤ م.

- تشنز ، فرانز

٢٠٢- " **الفتـــوة والخليفة الناصـــــــــر** " ضمن كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين ، ترجمة صلاح الدين المنـجد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٥

- جواد ، مصطفى

٢٠٣- "**الفتوة والفتيان** " ، مجلة لغة العرب ، المجلد الرابع ، السنة الثامنة ، ١٩٣٠م .

٢٠٤- "**الإخاء في الثقافة ووقف الكتب** " ، مجلة الحضارة ، العدد الرابع والثلاثون ، السنة الثالثة ، ١٩٤٥م .

٢٠٥- " **الربط البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلاميـــة** " ، مجلة سومر ، المجلد العاشر ، الجزء الثاني ، ١٩٥٤م .

٢٠٦- " **الفتوة وأثرها في توحيد العرب والمسلمين** "، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الخامس ، مطبعة المجمع ، ١٩٥٨م .

٢٠٧- "**أزياء العرب** " ، مجلة التراث الشعبي ، بغداد ، العدد الثامن ، ١٩٦٤م

- " جواد، مصطفى وزميله أحمد سوسة"

٢٠٨- " **مدينة المنصور وجامعها**" ، مجلة سومر ، المجلد الثاني والعشرون ، الجزء الأول ، ١٩٦٦م .

- حمارنه ، صالح

٢٠٩- " **وقفة عند الخليفة العباسي الناصر لـدين الله (٥٥٣-٦٢٢هـ/١١٥٨-١٢٢٥م)**" ضمن بحوث ودراسات مهداة إلى عبد الكريم غرايبه بمناسبة بلوغه سن الستين، عمان ، ١٩٨٨م .

- الدوري ، عبد العزيز

٢١٠- " **نشوء الأصناف والحرف في الإسلام** " ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد الأول ، ١٩٥٩م.

- رؤوف ، عماد عبد السلام

٢١١- "**تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد** " ، مجلة المورد ، بغداد ، المجلد الثامن ، العدد الرابع ، ١٩٧٩م .

٢١٢- "**الخدمات النسوية في العراق** " ، بحث مطبوع على الآلة الكاتبة غير منشور ، محفوظ في الاتحاد العام لنساء العراق .

- الزيات ، حبيب

٢١٣- "**معجم المراكب والسفن في الإسلام** " ، مجلة المشرق ، ١٩٤٩ م .

- سالنجر ، جيرالد

٢١٤- " **الفتوة هل هي الفروسية الشرقية** " ، بحث منشور في كتاب دراسات إسلامية ، بأقلام مجموعة من المستشرقين ، أشرف على الترجمة نقولا زيادة ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٠م .

- صالحيه ، محمد عيسى

٢١٥- " **دراسة لمخطوطة الإفادة والتبصير لكل رام مبتدأ وما هو تحرير بالسهم الطويل والقصير لعبد الله بن ميمـــون** " ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت، المجلد الثاني، العدد السادس ، ١٩٨٢م .

- عاشور ، سعيد عبد الفتاح

٢١٦- " **ظل الخلافة العباسية في الحروب الصليبية** " ، منشور ضمن بحوث للمؤلف بعنوان بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، عالم الكتب القاهرة ، ١٩٨٧م .

- العبيدى ، صلاح حسين

٢١٧- " **ملابس الندامى في العصر العباسي** " ، مجلة سومر ، المجلد التاسع والعشرون ، الجزء الأول ، ١٩٧٣م .

- العلي ، صالح أحمد

٢١٨- **الحريم الطاهري**، مجلة الأقلام، بغداد، الجزء الثامن، السنة الخامسة ، ١٩٦٩م .

٢١٩- " **المواصلات والجسور في بغداد** "، مجلة المورد، بغداد ، المجلد الثالث ، العدد الربع، ١٩٧٩م.

- عواد ، كوركيس

٢٢٠- "**خزائن كتب العـــراق الهامة في أيام العباسيين** " ، مجلة سومر ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، ١٩٤٦م .

- فهد ، بدري محمد

٢٢١- " **الحياة اليوميـــة في المدينة العراقية** "، ضمن موسوعة المدينة، والحياة المدنية، الجزء الثاني ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ،١٩٨٤م .

- معروف ، ناجي

٢٢٢- " **زوارق بغداد وجسورها** " ، مجلة الأقلام ، بغداد ، المجلد الرابع ، السنة الثالثة ، ١٩٦٦ م .

هـ -المراجع الأجنبية :

٢٢٣ - Rashad , Abdul Munim
The Abbasid Caliphate (٥٧٥/١١٧٩-٦٥٦/١٢٥٨) ,University Of London ,London , ١٩٦٣.

٢٢٤- Maracas , AL-Nasir Li-Din Allah , EI[١]

٢٢٥- Taeschner , F, Futuwwa , EI[٢]

٢٢٦- Margoliouth,D.S, Qadiriyya , EI[٢].

الفصـــــل الثالـــــث:

الأعياد والاحتفالات ووسائل التسلية والحياة اليومية ١٧٣

أولا : الأعيـــاد والاحتفالات ١٧٥

أ- الأعياد والاحتفالات الإسلامية ١٧٥

ب- أعياد أهل الذمة ١٩٧

ج- الاحتفالات العامة ٢٠٠

ثانيا: وسائــل التسلية ٢٠٥

ثالثا: الحياة اليومية ٢٢٩

الفصـــــل الرابـــــع:

الــمــرافق والــخــدمات الــعامة ٢٤٣

أ- توفير المياه لمدينة بغداد ٢٤٥

ب- الطرق والمواصلات ٢٥٢

ج- الجوامع والمساجد ٢٥٧

د- البيمارستانات ٢٦٢

هــ- الحمـــامـــات ٢٦٧

و- النظافة والصر ف ٢٧٣

ز- المؤسسات العلمية ٢٧٤

الخاتمـــة ٣٠٥

قائمة المصادر والمراجع ٣٠٧

الفهرس ٣٣٣

المحتويـــات

الموضــــوع	رقم الصفحة
المقدمــة..	٥
التمهيد:	
الأوضاع السياسية للخلافة العباسية في الفترة .... (٥٧٥-٦٥٦هـ/١١٧٩-١٢٥٨)	- ١١
الفصــــــل الأول:	
التقسيمات السكانية لمجتمع مدينة بغداد.........	٣٩
أولا : من الناحية الدينية	
١ - المسلمون	٤١
٢ - أهل الذمة	٥٤
ثانيا: من الناحية الاجتماعية	
أ- فئة الخاصة	٦٦
ب- فئة العامة:	٩٢
الفصــــــل الثاني :	
الـتـنـظـيـات الاجـتـمـاعـيـة	١١١
١- نقابة الأشراف	١١٣
٢- الطرق الصوفية	١٢٦
٣- الفتــــــوة	١٥١
٤- الأصناف (أصحاب الحرف)	١٦٧